صمد بهرنجى

خوخة وألف خوخة

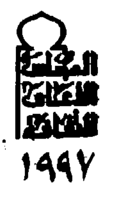
وقصص أخرى

ترجمتها عن الفارسية وقدمت لها

د . ماجدة العنانى

راجعها

د. إبراهيم الدسوقى شتا



١٩٩٧

هـذا الكتاب

ترجمة لقصة يك هلو وهزار هلو

وقصص أخرى للكاتب الإيرانى

صمد بهرنجى

من مجموعته القصصية

قصه هاى بهرنج

تهران - دنيا - ١٣٥٩ هـ. ش.

١٩٨٠

إهـــداء

إلى روح أبى .. رحمة الله عليه

وإلى أمى .. أمد الله فى عمرها

إعترافا بفضل

يبـــقى أبـــد الدهـــر.

ماجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصديـــــر

غريبة هي حياة ذلك الكاتب الإيراني الشاب صمد بهرنجي (١٩٣٩-١٩٦٨) أو لعلها بتعبير أحد الكتاب الإيرانيين المعاصرين " العمل الأعظم من أعماله" . تسعه وعشرون عاما فحسب عاشها هذا الشاب ، مثل ومضة البرق ، لكن على نور هذه الومضة ، وضع الشاب لنفسه موضعا في الأدب القصصي الفارسي المعاصر مع خمسة آخرين ، مات معظمهم في سن الشباب ، وإن كان صمد قد مات في سن أصغر ، إلا أن المرء لا يكاد يصدق أنه في خلال إحدى عشرة سنة فحسب منذ أن تخرج من مدرسة إعداد مدرسي الأرياف والمناطق النائية وحتى وفاته ، يمكن لكاتب أن يترك كل هذه الأعمال من قصص للأطفال إلى مقالات نقدية ومترجمات عن أدبه القومي الأدب الآذرى نسبة إلى" آذربيجان " إلى اللغة الفارسية ، إلى نظرات في نظم التعليم ومقررات الدراسة ، وكلها على مستوى واحد من الجودة والدقة ، وسيادة روح التغيير والحماس ، ووضوح الهدف والإتجاه إليه مباشرة . إلا أن أهم ما يتميز من أعمال صمد حقيقة تلك المجموعة من القصص التي كتبها للأطفال وعن الأطفال ، ومن خلالها ولج إلى حياة الكبار ومشاكلهم في مرحلة تعد من أعقد مراحل التاريخ الإيراني المعاصر ، وبرغم عمره القصير ، أعتبر واحدا من بناة الفكر الثورى الإيراني المعاصر ، وترجمت مجموعات من قصصه إلى لغات أوربية عديدة من أهمها الإنجليزية والفرنسية ،

وكتبت عنه دراسات نقدية عديدة، وفازت بعض أفلام الأطفال التي أخذت عن قصته " السمكة السوداء الصغيرة " بجوائز أولى في مهرجانات عالمية لسينما الأطفال ، وبعد الثورة ، ملأ الدنيا وشغل الناس ، وتعرضت أعماله لعاصفة من النقد ، بين إفراط وتفريط ، لكن أحدا لم ينكر أنه مؤسس كتابة القصة للطفل في الأدب الفارسي المعاصر، وأن كل من كتبوا القصة للطفل من بعده إستفادوا منه بشكل أو بآخر.

ومن ثم فقد كانت مفاجأة حقيقية لي يوم أن إطلعت على رسالة الماجستير التي كتبتها الباحثة الدكتورة ماجدة العناني المدرس بكلية الآداب جا معة حلوان عن صمد وقدمت من خلالها ترجمة ست قصص من أشهر قصصه ، ووجدت ترجمة الباحثة ترجمة دقيقة تتميز بحساسية لغوية نادرة ربما كان مصدرها أن الباحثة تمارس أيضا كتابة القصة للطفل ، واقترحت عليها أن تضم إلي هذه القصص بقية قصص صمد المشهورة ، وبخاصة قصة السمكة السوداء الصغيرة التى كانت قد تركتها على أساس أنها ترجمت من قبل إلى العربية ، غير أني بمضاهاة الترجمة على النص إكتشفت أن مترجمتها - وربما نقلت ترجمتها عن ترجمة أوربية مشوهة - قد تصرفت كثيرا في النص . وبهمة تحسد عليها قامت الدكتورة ماجدة العناني بإضافة ست قصص أخرى من قصص صمد لتقدم هذه المجموعة الغنية إلى القارئ العربي في ترجمة مشرقة غنية فياضة بالمحبة للطفل ولعالم الطفل ، متعاطفة أشد ما يكون التعاطف مع مشاكل الطفل وآلامه وعالمه الصادق ، وبنفس الهمة قدمت لمجموعتها بمقدمة تتناول

بعض الموضوعات التي لم تكن قد تناولتها في رسالتها، وهي عن صمد والتراث وصمد والقيم الثورية وصمد والرمز. وإنني إذ أقدم هذه المجموعة أقدم إلى المكتبة العربية كاتبا جديدا كما أقدم لها مترجمة جديدة واعدة وملتزمة في نفس الوقت تبشر بالكثير وينتظر منها الكثير. والله من وراء القصد.

دكتور

إبراهيم الدسوقي شتا

أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية

كلية الآداب – جامعة القاهرة

في ٢٤ مايو سنة ١٩٩٦



مقدمـــة المترجمـــة

لست أريد في هذه الصفحات القليلة التى أقدم بها قصص صمد بهرنجي إلى قراء العربية أن أخوض في موضوعات سبق أن بحثتها في رسالتي للماجستير التي تقدمت بها إلى قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ونلت بها الدرجة سنة ١٩٨٩ ففيها من التفصيل ما يغني القارئ الذى يريد الإستزادة عن مكونات شخصية صمد بهرنجي الأدبية والفكرية وملابسات حياته عن أن أعيد هنا ما كتبت ، وأكرر ما أسلفت من قول ، إلا أن هناك بعض النقاط رأيت أني لم أتطرق إليها ، وإن كنت قد مسستها مسا رفيقا ، فهي في حاجة إلى بسط وزيادة وهي صمد والتراث ، وصمد والقيم الثورية ، وصمد والرمز.

١- صمـــد والتراث :

كان صمد يكتب قصصه دون أن ينسى لحظة واحدة أنه معلم، وعلى لسان أحد أبطاله من الأطفال يقول : "رسالة المعلم ، أن يبين حقائق الطبيعة ، ويحارب الخرافات . " الدمية المتحدثة : حوار بين ياشار ويهرام " ، وخلف صمد بهرنجي ، كان هناك تراث خصب من الأدب الفارسي ، وللأدب التعليمي فيه شأن وأى شأن(1) ويرغم ندرة الإشارات الصريحة في قصص صمد إلى أعلام الأدب الفارسي" إشارة إلى سعدى وإلى إبن سينا عن الطاووس في الدمية المتحدثة " إلا أن هناك – في هذه النقطة بالذات – تأثيرات أخرى لم يشر إليها صمد كما سنرى فيما بعد .

(1) Rypka , yan , History of Iranian Litterature ,pp. 419- 480 ,Dordrecht ,Holland ,1968

وهناك إشارة عند مولانا جلال الدين الرومي عن أدب الأطفال وما يمكن أن يحتوى عليه من حكم ومعان عميقة :

- كانت سبأ هذه مدينة كبيرة جدا ، إستمع إلى حكايتها كحكاية من حكايات الأطفال .

- إن الأطفال يقصون الحكايات ، وتحتوى حكاياتهم على كثير من الأمثال والعظات .

- إنهم يتحدثون بكثير من الهزل في حكاياتهم ، فداوم البحث عن الكنوز في الخرابات .[٢]

ويواصل مولانا جلال الدين على مدى أكثر من عشرين بيت في قص حكاية من حكايات الأطفال المشهورة على مستوى التراث الشعبي للعالم الإسلامي . وربما كانت هذه الإشارة المفصلة لمولانا جلال الدين إلى أهمية قصص الأطفال وإلى توخي المعاني المستترة وراءها برغم سذاجتها الظاهرة سببا في إهتمام صمد بمولانا الذى يبدو شديد التأثر به في ثلاثة مواضع :

الموضع الأول في حديثه عن الطاووس في قصة " اولدوز والدمية المتحدثة " حيث توجد هذه المعاني بشكل شديد التفصيل في أكثر من موضع من مثنوى مولانا جلال الدين ، أكثرها تفصيلا الواردة في الكتاب الخامس :- كان طاووس يقتلع جناحه في واد ، وكان أحد الحكماء قد ذهب هناك للنزهة .

- فقال له : أيها الطاووس ، أمثل هذا الجناح السني ، كيف تقتلعه هكذا من أصله دون توقف ؟

- وكيف يطاوعك قلبك أن تقتلع هذه الحلل وتلقي بها في الوحل ؟

---

(٢) مثنوى مولانا جلال الدين الرومى – الكتاب الثالث الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقى شتا – تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات . ٢٦٠٣ – ٢٦٠٥

- وكل ريشة منك من عزتها والإعجاب بها ، يضعها الحفاظ في المصاحف .
- وهي مفيدة من أجل التهوية ، ومن ريشك تصنع المراوح (٣)
أما الموضع الثاني فقد ورد في قصة خوخة وألف خوخة عندما تتحدث الخوخة عن تحولها بعد أن يأكلها الإنسان إلى حياة داخل جسده ، ويذكرنا هذا بحديث السيدة التي تنضج حبوب الحمص الواردة في الكتاب الثالث من مثنوى مولانا جلال الدين:
- ويا حبة الحمص ، داومي على الغليان في الإبتلاء ، حتى لا يبقى لك وجود أو ذات.
- وإذا كنت ضاحكة في ذلك البستان ، فأنت الآن زهرة بستان الروح والبصر.
- وإذا صرت منفصلة عن بستان الماء والطين ذاك ، فقد تحولت إلى لقمة ، ودخلت إلى عالم الأحياء .
- فتحولي إلى غذاء وقوة وفكر ، لقد كنت عصارة ، فتحولي إلى أسد في الغابات(٤)
أما الموضع الثالث فقد ورد في قصة " اولدوز والدمية المتحدثة " عند حديثه عن بقرة اولدوز التي ذبحت فصار لحمها مرا لمن يكرهون اولدوز حلوا مستساغا لمن يحبونها ، تماما مثل ماء النيل عند مولانا جلال الدين الرومي الذى كان عذبا زلالا على بني اسرائيل دما على آل

---

(٣) مثنوى مولانا جلال الدين الرومى - الكتاب الخامس الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقى شتا - تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات ٥٣٧-٥٤١ .

(٤) مثنوى مولانا جلال الدين الرومى - الكتاب الثالث الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقى شتا - تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات ٤١٨١-٤١٨٤ .

فرعون ، وفي الكتاب الرابع من المثنوى تصوير لهذه الحادثة التراثية ، أغلب الظن أن صمد قد إستفاد منه في رسمه لهذه الصورة (٥)
ومهما كان يقال عن صمد من أن موقفه من الدين كان سلبيا " وربما روج لهذا اليسار الإيراني التقليدى ومنظمة فدائيي خلق التى كانت تعتبر صمد واحدا من مفكريها وشهدائها " ، نرى أنه من المستحيل أن يتجاهل كاتب إيراني التراث الصوفي الإيراني من قبله، وحتى إن كان يرفضه من منطلق فكرى ، إلا أنه لا يستنكف إستخدام بعض مفرداته ، وتوظيفها لبيان بعض أفكاره ، ولا يمكن أن يكون صمد قد تجاهل في تصويره الحمام الرامي لجيش الملك بالمنجنيق في قصة " الأقرع اللاعب بالحمام " حادثة تراثية هامة تتعلق بالطير الأبابيل ورميها لجيش أبرهة وفيله عندما جاء لهدم الكعبة ، والواردة في القرآن الكريم وفي التفاسير وفي كافة كتب التراث . كما أن قصة " دومرول ديوانه سر أو دومرول المجنون" قائمة في أساسها على فكرة دينية هي أن حضور الله تعالى يتجلى لأشد البشر إنكارا له ولربوبيته عند الموت وعند حضور ملك الموت ، ففي المأثور الدينى أنه كان يظهر قديما لمن يريد أن يقبض روحه ، وفكرة أخرى تقوم عليها القصة وفحواها أن أشد الناس جرأة وشجاعة إنما يقف أمام الموت مكتوف الأيدى ضعيفا لا يملك حيلة ، ثم فكرة ثالثة : أن أحدا لا يستطيع أن يموت بدلا من أحد حتى ولو كان أمه وأباه . ومن المظنون أن القصة خصوصا فيما يتعلق بذلك الحوار الذى يتوقح فيه البطل على الذات الإلهية في الحديث قد

---

(٥) مثنوى مولانا جلال الدين الرومى - الكتاب الرابع الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقى شتا - تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات ٣٤٣١-٣٤٤٣ - القاهرة ١٩٩٣ .

يصدم القارىء .. لكن ألم ينقل القرآن الكريم أحاديث الكفار وتوقحهم ؟

ومثلما إستفاد صمد من التراث الفارسي الكلاسي ، فإنه يعد جزءا لا يتجزأ من تيار الأدب الفارسي المعاصر، ومن المعروف أنه كان يترجم إلى الآذرية بعض عيون الأدب الفارسي المعاصر للشعراء نيما يوشيج وأحمد شاملو ومهدى أخوان ثالثوفروغ فرخزاد وغيرهم ، ويرى رضا رهجذر(٦) أن قصة السمكة السوداء الصغيرة قد تكون مستلهمة من شعر لمهدى أخوان ثالث يقول فيه :

إنني هنا ضيق الصدر جدا
وكل لحن أسمعه ، سيء الترديد
فتعال لنحمل زاد الطريق
ولنمض في طريق بلا عودة
ولننظر إلى السماء في كل مكان ..هل هي بنفس اللون ؟

ومن الممكن أن يعتبر صمد واحدا من المدرسة التي بدأها صادق هدايت وطورها جلال آل أحمد وحمل لواءها من بعدهما جماعة من الكتاب الذين كانوا شبانا قبل الثورة : جمال ميرصادقي وغلامحسين ساعدى ومحمود دولت آبادى ، تلك المدرسة التي كانت تنتج أدبا مرتبطا في لغته وبيئاته وخلفياته ومشاكله بالطبقات الدنيا من الشعب الإيراني .

وكان نقد الشعر من إهتمامات صمد أيضا . وله مقال قصير ناقش فيه مهمة الشاعر ورسالته وعلاقته بالسياسة وعلاقة الشعر بالمجتمع. ليس الشاعر صحفيا أو موظفا أو وسيلة تسلية أو نديما ، والشعر

---

(٦) رضا رهجذر:نجاهى ديجربه ماهى سياه كوتشولو- فى كيهان فرهنجي سال بنجم - ارديبهشت سال ٦٧ ص ٣٦ .

الجيد لا يمكن أن يكتب في موضوعات فاسدة(٧) كما أنه لم يكن يعيش بمنأى عن الحركة الأدبية من حوله ، وبنفس أسلوبه الحاد يفتتح مقاله :

نظرى به أدبيات امروز: نظرة إلى أدب اليوم " أول كلامي مع جماعة الشعراء والكتاب الأحياء ، ولأترك جانبا الأدباء أصحاب اللحى والشوارب ، فلا شأن لي بهم "(٨)ويقدم نقدا لرائعة غلامحسين ساعدى " عزاداران بيل : القائمون بالعزاء في قرية بيل (٩)

إلى جوار التراث الفارسي ، كان جل إعتماد صمد على تراث آذربيجان ، والواقع أن جوانب عديدة من قصصه تعتمد على هذا التراث وتجليه ، وله كتاب ضخم عن أساطير آذربيجان " افسانه هاى آذربايجان - صمد بهرنجي وبهروز تبريزى - ط٤ -١٣٥٧ هـ.ش." قدم صمد ورفيقه في هذا الكتاب تسعا وثلاثين حكاية شعبية آذرية لا يخطؤ قارؤها الجو العام المشترك بينها وبين القصص التى أبدعها صمد ، ومعظمها يدور حول فكرتين أساسيتين : البطولة والعشق ، ومنهما تنبثق عدة أفكار تدور في فلك الفكرتين الرئيسيتين كالألحان الداخلية المنبثقة من اللحن الرئيسي والتي تدور حوله:الضعيف الذىينقلب إلى يطل قوى بمعونة قوى أسطورية،والأميرة التي يخرجها العشق من جلدها الأرستقراطي المرفه ، والفقراء في صراعهم الممتد

---

(٧) انظر مقال : شعر واجتماع فى مجموعة مقاله هاتشاب دوم سال ٢٥٣٧ شـ. صص ١٠١-١٠٤ وانظر الترجمة الإنجليزية فى :

Critical Perspectives on Modern Persian Literature Edited and Compiled by Thomas M.Ricks
Three Contints Press PP240-241 First Edition 1984 .

(٨) مجموعة مقاله ها : ص ١٠٥.

(٩) انظر ترجمتها الإنجليزية فى :

Critical Ptespectives PP 360-365.

ضد الأغنياء وآكلي الحقوق وأكلة السحت ، والحمائم الوديعة التي تنقلب إلى حمائم مقاتلة إنتصارا للضعفاء ومساعدة لهم ، بل وتتجلى الأنماط التورانية في سدى القصة الفارسية ولحمتها من تأثير هذا الجو الآذرى الصرف " أسطورة حب " : البشر الذين ينقلبون إلى جياد ، والحديد الذى تصنع منه السيوف الأسطورية " الحديد أيضا قاسم مشترك أعظم في الأساطير التورانية و الترك يسمون أبناءهم دمير وتيمور ومعناها الحديد " كما تشترك الأساطير التركية مع الأساطير الفارسية في أنهما معا يحفلان بوصف الطبيعة التي تتجلى في قصص صمد وتلعب دورا شديد الأهمية : ليالي الشتاء الطويلة ذات الثلج والتي تزيد أبطاله الفقراء بؤسا فوق بؤس ، والطبيعة القاسية وكيف تتكاتف مع البشر القساة في اضطهاد الضعفاء وصب الويلات فوق رؤوسهم حيث تتجلى براعة صمد في وصف الطبيعة ومنحها دورا في القصة يؤثر في مصائر أبطالها وفي تيار الحدث .

والأساطير التي نقلها صمد عن الآذرية أساطير ذات برنامج وذات هدف - إن صح التعبير - حيث يتداخل الحدث الواقعي مع الحدث الأسطورى ، وكل يؤدى دوره دون أن يطغى على الآخر.. ومن ثم يمكن الفصل بينهما بسهولة ، ومع ذلك فإن هذا التداخل يستهوينا ، إذ نلتقي بعالمي صمد الواقعي والأسطورى في إنسجام وتناغم يخفف كثيرا من حدة الجو الكئيب الذى يزج بنا فيه ، حيث يركز عينا على المجتمع بكل تناقضاته وشخصياته الطيبة والشريرة على السواء ، ويقدم جانبا من صراعاتها ، ثم تتدخل القوى الأسطورية في الوقت المناسب لتحدد مسير تطور الحدث بما فيه مصلحة الفقراء ، ويكفي هنا أن أقدم نموذجا واحدا يتمثل في قصة " إبنة الحاج صياد " حيث الإبنة الشابة الفاتنة ، يأتمن عليها أبوها قبل سفره إلى الحج أحد " الملات " الذى يحاول أن يخون الحاج في عرضه ، ثم هروب الفتاة

بشرفها وإنقاذ الملك لها في البرية ، وزواجه منها ، ثم الملا الشرير الفاسد(١٠)يرسل إلى أبيها أن ابنته قد فرطت في عفافها وهربت ، وسعى أخ الفتاة في العثور عليها لقتلها ويعد عدد من المغامرات تثبت براءة الفتاة أمام أبيها .(١١).

والأبطال الضعاف الذين يخرجون من بين الطبقات الدنيا من الشعب ولا يتميزون بقوى جسدية خارقة لهم في أعمال صمد شأن وأى شأن ، وتكمن قوتهم الحقيقية في عقولهم وحسن تصرفهم وسعة حيلتهم ومواتاة الحظ لهم . وتلفت شخصية الأقرع وهو من أهم شخصيات الأسطورة الآذرية النظر كما أنه من أهم الشخصيات في قصص صمد، وهو في العادة شاب فقير معدم لا يتقن صنعة يعيش في الغالب مع أمه العجوز ويأكل من كدها ، هو كسول ، لكنه إذا ما أضطر إلى إطعام نفسه يبدى من العقل والفراسة والذكاء ما يعجز عنه الأبطال والوزراء والملوك(١٢). وعندما يعيد صمد صياغة صورة البطل الشعبي " كور اوغلو " ومعناها الحرفي إبن الأعمى والبطل الشعبي كتشل حمزه " حمزه الأقرع " في قصة تحمل نفس العنوان في مجموعته القصصية الرئيسية " قصه هاى بهرنج " نتبين إلى أى حد إستطاع أن يستفيد من القصص الشعبى في تصوير مجتمعه المعاصر وبيان أفكار جديدة وتعاليم جديدة وقيم جديدة ، لكنه يظل يتغنى

---

(١٠) وهو شخصية نمطية فى الأدب الفارسى القصصى المعاصر. أنظر : ابراهيم الدسوقى شتا: مطالعات فى الرواية الفارسية ،غلامحسين ساعدى الخوف والرعدة " ترس ولرز"حيث يصور الشيطان فى صورة ملا .

(١١)دختر حاجى صياد فى افسانه هاى آذربايجان صص ١٣ - ٢١.

(١٢) كلهامتمثلة فى قصة الأقرع اللاعب بالحمام من قصص هذه المجموعه، وفى أسطورة كتشل مم سياه التى نقلها فى افسانه هاى اذربايجان صص ٣٠٥-٣٢٥.

بالضعفاء وما يستطيعه الضعفاء ، وأن النصر في النهاية لهم ، هذا ماكان يقصده صمد بهرنجي في كل أعماله .

٢-صمد والقيم الثورية :

لكي نعرف مكانة القيم الثورية في قصص صمد ودورها في يقظة الشعب الإيراني ، علينا أن نضع في الحسبان أن الجيل الذى كان يقرأ هذه القصص في الستينيات هو نفس الجيل الذى أدركه العام الدامي للثورة " ٧٩/٧٨" شابا وشارك فيه مشاركة فعالة . وفي كل كتابات صمد ، هناك إحساس شديد بمدى ما تفعله الطبقية في المجتمع الإيراني ، وأبطاله في الأغلب مقهورون ينزل عليهم القهر من كل مكان ، إنهم في داخل البيت تحت سيطرة زوجة الأب القاسية ، وفي المجتمع تحت سيطرة الأغنياء وأرباب الذهب والقوة ، والحكام والشرطة ، الأب في الغالب مهاجر إلى العاصمة في سبيل لقمة العيش ، والصبي يتحمل في سن صغيرة مسئولية البيت ، يحلم أبطاله جميعا بالعيش الرغد وهم يعيشون في حضيض المجتمع " أربع وعشرون ساعة من القلق " ، ويتحملون من الصغر مسئولية الإنفاق على الأسرة " الصبي بائع البنجر المسلوق ، الأقرع اللاعب بالحمام - أربع وعشرون ساعة من القلق - خوخة وألف خوخة " . ومما عمق هذا الإحساس بالدونية ومعاناة الإضطهاد أن صمد نفسه كان ينتمي إلى آذربيجان ، يضطر إلى إستخدام لغة ليست لغته الأم " التركية الآذرية "كل هذا مع إحساسه بغنى منطقته وبالدور الذى لعبته في تاريخ إيران المعاصر(١٣)وغنى تراثها ، يحس أنها منطقة على الهامش، مما عمق في قصصه هذا الإحساس بالإحباط المستمر" قيل أنه كان

---

(١٣) له مقال عن دور آذربايجان فى الثورة الدستورية أنظر مجموعه مقالة ها صص ٩ - ٣٣ .

يعرض أعماله على بعض الكتاب للنظر في صياغتها الفارسية !!"
وبالرغم من أن من سمات قصص الأطفال أنها تجرى في غير زمان وفي غير مكان - أو هكذا في أغلبها - إلا أن صمد قدم لنا المجتمع الإيراني قبيل الثورة بكل تناقضاته الطبقية وصور الظلم الشائعة فيه والخلل البين في بنياته الإجتماعية والإقتصادية والفكرية والسياسية ، والمشكلات التي يعانيها أطفال قصصه هي في الغالب من نتاج كل هذه التناقضات الموجودة من حولهم ، وعندما " تُدس " كل هذه الأفكار الكبيرة في قصص " الصغار " تشارك بشكل أو بآخر في خلق وعي مبكر بحركة المجتمع عند الصغار والشباب في سن مبكرة .
وكمعلم في القرى " من سن الثامنة عشرة حتى وفاته في سن التاسعة والعشرين " ، كان صمد على صلة بقاع المجتمع من ناحية ، ومن ناحية أخرى إكتسب هذه الخاصية شديدة الوضوح في قصصه ، وهي أنه في كل قصصه يهدف إلى تعليم شيء، وكانت ثورته على نظام التعليم والمواد الدراسية والحالة المزرية للمدارس والتلاميذ والمعلمين جانبا كبيرا من جوانب نشاطه ، وهو في هذا المجال يلتقي مع كاتبين كبيرين بارزين في عصره : أحدهما مشهور وهو جلال آل أحمد الذى صب كل نقده على النظام التعليمي في روايته المشهورة " مدير المدرسة " ، والثاني أقل شهرة وهو رسول برويزى الذى ضمن مجموعتيه القصصيتين : " لولي سرمست : اللعوب الثملة " و" شلوارهاى وصله دار : السراويل المرقعة " سخرية سوداء من المدارس ونظام التعليم (١٤) وفي مقدمة قصصه التي ترجمت أغلبها في هذه المجموعة ينص على هدفه التعليمي الثورى" لقد مر الزمان الذى

---

(١٤)انظر بحث ابراهيم الدسوقى شتا بالفارسية تحت عنوان " بحثى درباره رسول برويزى وآثار وى المنشور فى مجلة كلية الأداب جامعة القاهرة العدد ٥٩ لسنة ١٩٩٣.

نحد فيه أدب الأطفــال بالدعوة عن طريق النصائح الجافة التي لاثمر فيها ، وتلقينها ، ينبغي إيئاس الأطفال من العوامل المؤملة الواهية ضعيفة الأساس ، ثم خلق آمال أخرى على أساس معرفة الواقعيات الإجتماعية وسر مقاومتها "(١٥) ويقول في موضع آخر " ليس الهدف من القصص هو مجرد التسلية والمتعة ، أنا لاأحب أن يقرأ الأطفال قصصي من أجل المتعة والتسلية فحسب "(١٦) ولم يكن نشاط صمد قاصرا على التعليم في المدارس ، بل كان يبذل نشاطا ملموســا من أجل التعليم في المناطق القروية والنائية ، يحمل الكتب التي يشتريها من مرتبه الضئيل ويوزعها في قرى آذربيجان ، يدخل محال بيع الكتب ويناقش الناس حول الكتب التي يجب أن يقرأوها .

كان صمد يعاني مثل كل كتاب عصره من الرقابة ، وكان يريد أن يقول الكثير ، لكن الرقابة بالمرصـاد ، فما العمل ؟ القصة ، قصة الأطفال،وبالنسبة لمعلم أطفال لايستغرب إستخدام هذا الأسلوب (١٧) وهناك جانبان متمايزان في هذا المجلل عند صمد بهرنجي : جانب التنظير الذى ضمنه كتابه " كندكاو در مسائل تربيتي در ايران : بحث في القضايا التربوية في ايران " حيث تحدث في المقام الأول عن السيطرة الأمريكية على عملية وضع المناهج الدراسية في ايران والفجوة الموجودة بين ما يدرسه التلميذ وبين الواقع الذى يعيش فيه ، وهو نفس الموضوع الذى دق عليه جلال آل احمد ورسول برويزى ،

---

(١٥) قصة هاى بهرنج - مقدمة - ص٥ - انتشارات دنيا - طهران ١٣٦٠ هـ ش .

(١٦) من مقال معلم مردم لغلامحسين فرنور فى آرش - ١٨ - ١٣٤٧ ص ٦٠ .

(17) Brad Hansen , The westoxication of Iran :Deception and Reaction of Behrangi . Ale Ahmad and Ali Shariati
الترجمة الفارسية تحت عنوان " غرب زدكى در ايران از ديدكاه صمد بهرنجى وجلال آل أحمد وعلى شريعتى المنشورة فى كتاب شريعتى درجهان صص ١٣١ - ١٦٦.

ثم جانب التطبيق عن طريق القصص التي تشير كل قصة منها إلى وجوب القيام بثورة تعليمية وتدريسية في المقام الأول ، وأنه لا أمل للجيل الجديد في أى تقدم طالما هو خاضع لهذا النمط من التربية والتعليم في نفس الوقت الذى يعاني فيه من حياة يومية غير إنسانيـــة .

ومن قضايا التربية والتعليم إنتقل صمد إلى نقد النظام القانوني والإجتماعي(١٨)

ويتساءل : أينبغي علينا أن نخبر أطفالنا عن أطفال لم يروا الجبن لشهور وربما لسنوات ؟ أينبغي أن نخبر أطفالنا أن أكثر من نصف سكان العالم من الجوعى وكيف نحد من جوعهم ؟ أينبغي علينا أن نعلم أطفالنا التاريخ على حقيقته ؟ وتقدم المجتمعات البشرية وتقدمها ؟ .

وبالرغم من أن صمد كان يعيش في ظل دولة ملكية ، تكاد عبادة الشاه تكون فيها فكرا مسيطرا ، إلا أن معظم الملوك المصورين في قصصه يصورون بصورة ساخرة " أسطورة المحبة مثلا " ، فلا شخصية مسيطرة ولامهابة،وفي الأغلب يكون الشاه ألعوبة في يد وزيره الأكثرغباء ، وتظل الشخصيةالمتسلطةعادة شخصيـة ضعيفةمهترئة من الداخل ،تصبح في بعض الأحيان ألعوبة في أيدىالأطفال ، لأنهاببساطة أقل ذكاء وأكثرعبادة للخرافات"اولدوزوالغربان " . في نفس الوقت يقدم صمد شخصية الطفل بشكل مختلف ، فهي شخصية ذكيـــة متآمرة جريئة مبادرة ، تصارع عالم الكبار وتنتصر عليه في بعض الأحيان " اولدوزوياشار في الدمية المتحدثة - اولدوز في اولدوزوالغربان - الأقرع اللاعب بالحمام - أسطورة المحبة -

---

(18) Sabri Tabrizi , Human Values in The works of two Persian Writrers in correspandnce d'orient ,Acts x1 " 1970 pp411-418

لطيف في أربع وعشرين ساعة من القلق " وهناك نماذج جديرة حقا بالملاحظة والتقدير: تارى وردى الصبي بائع البنجر المسلوق الذى يتصدى لصاحب المصنع دفاعا عن شرف أخته ، ولطيف في أربع وعشرين ساعة من القلق الذى برغم إحساسه بالدونية تجاه الأغنياء ، إلا أنه يتحرش بهم ، وكان مستعدا حتى للقتل في سبيل ما يراه حقا له . وتثير النقطة الأخيرة بالذات سؤالا مهما هو: هل كان صمد يؤمن بالعنف كوسيلة لتغيير المجتمع ؟

الواقع أننا لا نلتقي في قصص أطفال بسمكة تدافع عن نفسها بخنجر " السمكة السوداء الصغيرة " وبغراب يبرر السرقة ولا يرى أنها حرام " اولدوز والغربان " وبحمائم مقاتلة " الأقرع اللاعب بالحمام " وبماعز تنتج المنجنيق " الأقرع اللاعب بالحمام " وبطفل يتمنى لو كان يملك مدفعا رشاشا ليحول دون بيع لعبة تعلق بها قلبه " أربع وعشرون ساعة من القلق " اللهم إلا في قصص صمد ، ويمكن تفهم هذا الإتجاه إلى العنف في إطار الروح التي كانت سائدة في ايران في ستينيات هذا القرن، والإحباط العام واليأس الكامل من جدوى التغيير السلمي ، وإلى أن صمد في رفضه للنمط السائد من قصص الأطفال كان قد سار إلى نهاية الشوط ، فضلا عن أن النمط السائد في القصص الشعبي الآذرى كان نمط تمجيد القوة والشجاعة والروح القتالية وخوارق الأمور التي تجرى أيضا على أيدى الأطفال ، وهو ما لا يفصله عن العنف سوى خط واه ، وكان هذا التراث الشعبي كما رأينا شديد التأثير على صمد . ويدافع أحد نقاد اليسار عن القيم التي ينشرها صمد عندما هوجم بأنه ينشر قيم الحقد والكراهية ، وكأن الحقد والكراهية ليسا من الأحاسيس الإنسانية ، وكأن الحب والبغض والصداقة والعداوة مجرد قيم في خيال الإنسان وليس لها ماصدقات خارجية ، إنهم يعلموننا أن بني آدم أعضاء جسد واحد وأسألوهم

أى بنى آدم مع أى بني آدم أعضاء في جسد واحد ؟ هل الطفل الذى يموت جوعا عضو في جسد واحد مع المليونير المتخم ؟ وإذا كان البشر يصلون في كراهيتهم للبشر إلى حد قتلهم جوعا، فعلى من تقع المسئولية ؟ على كواهل النهابين أو المنهوبين ؟ وهل يلزم على أمثال صمد أن يأتوا ويعلموا الأطفال التصوف والزهد ؟ أوكالمسيح يقولون له : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر؟ الكراهية التي يعلمها صمد للأطفال " ولولم يعلمها لهم لعلمها الزمان لهم " كراهية إنسانية ، كراهية الشر والأشرار والجبناء ، الحقد والكراهية سلاح استخدمته السمكة السوداء في مواجهة السرطان، وإلا كان قد ابتلعها .(١٩)

هذا العنف يقابله عند الأبطال إحساس عظيم بحب التضحية ، ورغبة في المعرفة والإكتشاف " السمكة السوداء الصغيرة " (٢٠) ويظل الأمل في انتصار الثورة موجودا، فلا إحباط ولا يأس ، ومع كل الجو الأسود الذى يصوره بصراحة ووضوح " وحتى دون رحمة بالقارىء " وبإخلاص شديد للصدق الفني ، وكأنه كان يتمثل قول معاصرته العظيمة الشاعرة فروغ فرخزاد " لا أمر على الحوارى التي تفوح برائحة البول في تهران ثم تطالبونني بوصف العطور " ، يظل صمد على أمله في المصير النهائي . فلم يكن صمد كاتبا إصلاحيا ، بل كان كاتبا ثوريا ، وكان الكتاب الثوريون أكثر مساهمة في تطوير الأدب وفي التأكيد على دور الكاتب في التغيير، وكان ثم مصطلحات تملأ المحيط الأدبي : أدب المقاومة وأدب الإستسلام ، شعر الشعب وشعر

---

(١٩)منوچهر هزارخانى : جهان بينى ماهى سياه كوچولو- نشر احياء تبريز- بدون تاريخ - صص٨ - ٩ .

(20) The Little Black Fish and other Persian Stories by Samad Behrangi , Tran. by Eric Hoogland and Mary Hagland - P13- Washington ,Three continent Press , 1987.

القصر، شعر التعبئة والناس(٢١) وقد فهم صمد الدور الثوري للكاتب والفنان ،وبالطبع عندما كان يكتب عن أطفال القرى النائية المحرومين العراة، لم يكن يكتب عن أطفال محترمين يحبون الملك ، كما يعبر صمد عن الضغوط الإقتصادية المتزايدة والضغوط العسكرية لأورباوالولايات المتحدة ، في مقدمة قصة اللاعب بالحمام يقول صمد " في المجتمع السليم ، ينبغي ألا يوجد أثر للمرض، والإفلاس وقول الزور والكذب والسرقة كلها أمراض، ومن أجل علاج كل هذه الأمراض ينبغي أن نكتشف عللها ، إنكم تسألون أنفسكم دائما : لماذا أرسل زميلكم في الدراسة إلى مشاغل السجاد ؟ لماذا يسرق بعضهم ؟ لماذا توجد الحروب وسفك الدماء هنا وهناك ؟ ماذا يؤول إليه حالي بعد الموت ؟ وماذا كنت قبل الحياة ؟ وما نهاية الحياة ؟ ومتى ينتهي الفقر والجوع ؟ وهناك آلاف الأسئلة الأخرى ينبغي أن تطرحوها حتى تفهموا المجتمع وأمراضه . واعلموا أيضا أن المجتمع ليس هو الجدران الأربعة لمنزل كل منكم . المجتمع هوكل مكان يعيش فيه مواطنونا ، من القرى النائية ، حتى المدن الكبيرة والصغيرة ، من أزقة القرى المليئة بالطين والروث إلى شوارع المدن النضرة النظيفة ، من الأكواخ الضيقة المظلمة المليئة بالذباب للقرويين الفقراء ، إلى القصور الباذخة لسكان المدن ، من أطفال الزراع وناسجي السجاد لابسي الأسمال إلى الأطفال الذين يعد أقل طعام لهم الأرز بالدجاج والديكة الرومية والموز والبرتقال ، هذا هو المجتمع الذى سيورثه آباؤكم لكم ، ولا ينبغي أن تسلموه لأولادكم دون أدنى تغيير، بل ينبغي أن تقللوا من المساوىء أو أن تقضوا عليها .

(21) Thomas M. Ricks , Samad Behrangi and Contemporary Iran, the Arist in RevolutionaryStruggle in Critical Prepectives P363 .

المجتمع أمانة لا يحتفظ بها كما هي "(٢٢)

وفي هذا المجال تدور قصص صمد حول محاور ثلاثـــة :

١- الثقافة المهتزة المتباينة الإتجاهات للشعوب الإيرانية ، والصراع التاريخي بين الأسر الحاكمة والقوى الثورية .

٢- أهمية التعليم والحاجة إلى تفسير العلاقات الداخلية للحضارة والتاريخ بنظرة واقعية للمجتمع وأقل تقليديـة .

٣- الحاجة الملحة إلى مقاومة مسلحة لتحقيق مكاسب للناس وليس لمجرد نظرة قيميـة .(٢٣) والثقافة ليست تيارا متقطعا بل يعتمد سابقها على لاحقها ، والهجوم على روافد الحضارة لشعب من الشعوب يعد هجوما على الشعب نفســه ، وهكذا ففي خلال بحثه في المأثور الآذرى الشعبي وعيشه إحدى عشرة سنة متتالية في قاع المجتمع الآذرى إكتشف صمد معنويات هذا الشعب وجاهد في المحافظة على الأسس الثقافية من خلال قصصه وترجماته ، وأرسى أسس تحليل علمى للمجتمع.

والصراع عنصر أساسي من عناصر قصص صمد ، وفي قصة اللاعب بالحمام مثلا يقدم صمد صراعا علنيا بين أقرع فقير وبين أصحاب المصانع ، ومن خلالها يدق على قيمة العمل " يدعو الأميرة نفسها إلى العمل " ويعيد الثروة التي نهبها صاحب المصنع المستغل إلى الفقراء والمحرومين . وفي قصة " الصبي بائع البنجر المسلوق " يقدم صراعا بين صبي نسيج وحده يقف بالمرصاد لصاحب المصنع مضحيا بمصدر رزقه للدفاع عن عرض أخته . وكأنه كان يريد أن يقول لقارئه : إنك مهما كنت وأربع وعشرين ساعة من القلق " حيث تصيح السمكة السوداء الصغيرة " في يوم ما سوف أضطر إلى مواجهة الموت ،

---

(٢٢)قصة هاى بهرنك : صص ١٤٣- ١٤٤ .

(23) Thomas M.Ricks , Samad Berhangi and Cotemporary Iran. P.364

صغيرا وضعيفا وفقيرا إلا أنك تستطيع أن تقاوم وأن تقف وأن تصمد . والقصتان كلتاهما تصوران بشكل مباشر الفروق الرهيبة بين نوعين من الحياة : حياة مرفهة إلى درجة السفه حيث تستغل الأموال المكتسبة من عرق العمال في عقد زيجات المتعة بينما يعيش العمال في مستويات أدنى من مستوى الحيوان ،نفس الصورة التي تتكرر في قصصه "خوخة وألف خوخة " والسمكة السوداء الصغيرة لكن هذا لا يهم ، المهم هو تأثير حياتي أو موتي في حياة الآخرين "(٢٤).

ومن خلال تعبيرات بسيطة جدا يقدم صمد آراء لا تخفى على القارىء الفطن الخبير بتاريخ ايران ، ومن خلال عبارة واحدة في " خوخة وألف خوخة " يقدم رأيه في الإصلاح الزراعي التي جاءت به ثورة الشاه البيضاء ، فالإقطاعي يحتفظ بالأرض الخصبة والبستان النضر لنفسه ، بينما يبيع الأرض البور الجرداء للفلاحين، وبينما يحرم الفلاحون من ثمار البستان ، تتمنى الخوخة نفسها أن تكون طعاما للصبيين المحرومين اللذين زرعاها ، وعندما يموت أحد الصبيين بلدغة ثعبان ، ويرحل الآخر، تسقط الشجرة ثمارها بنفسها، ولا تعود تثمر، نظرة نفاذة لما يمكن أن يؤدى إليه الظلم من خراب . وتنتهى قصة " أربع وعشرون ساعة من القلق " بأن يتمنى بطلها لطيف أن لو كان يمتلك مدفعا رشاشا ليحول بين اللعبة التي كان يعشقها ويشاهدها من وراء زجاج المحل وأن تباع إلى طفلة مرفهة ، قد تلعب بها يوما أو بعض يوم ثم تلقي بها في سلة المهملات .

وإذا قورنت أعمال صمد ببعض الأعمال الأخرى ذات الطابع الثورى في الأدب الفارسي ، يظل صمد أخطر الكتاب جميعا، فقد كان يكتب للأطفال بما يمكن أن يحرك الكبار ، وكان يزرع بهذه القصص البسيطة معاني شديدة العمق في نفس الطفل ، كان يقدم للأطفال

. (24) Thomas M. Ricks , Samad Behrangi , p 366

أحلاما يكون تعبيرها في مرحلة الشباب ، ومن ثم فقد كان صمد يضحي في كثير من الأحيان بمقاييس فنية في سبيل أن تصل الرسالة ، وكان هو نفسه يفخر بأنه يكتب للمشردين والعراة والجياع وليس لأولئك الأطفال الأنانيين المرفهين السمان ركاب السيارات وداهني شعورهم المعطرين(٢٥) ومن هنا يمكن إدراج أدب صمد بهرنجي فيمقدمة ما أطلق عليه"أدب النضال:ادبيات مبارز" تلك التي استمرت أكثر من نصف قرن بداية بهدايت ومرورا بصادق تشويك وجلال آل احمد تعبيء الشباب الإيراني ، وتعده لليوم الموعود .

٣- صمد والرمز :

من الطبيعي في قصص الأطفال - وبخاصة تلك القصص ذوات البرنامج والهدف المحدد المرسوم - أن تكون قائمة على استخدام الرمز ومن الطبيعي أيضا أن يكون الرمز في قصص الأطفال واضح الصلة بالمرموز له بحيث يصل إلى هدفه مباشرة ، ولا يكد ذهن الباحث أو الدارس - ناهيك عن المخاطب الحقيقي وهو الطفل - في الوصول إليه . فهل نجح صمد بالفعل في تقديم مجموعة من الرموز يمكن أن تكون مفتاحا إلى العالم الذى أراد أن يقدمه للطفل؟ الواقع أن صمد في رموزه لم يسلك طريقا ثابتا ، ربما لأن النظرة الفانتازية عنده كانت تغلفها واقعية مغلقة محددة بأطر فكرية تحد من إنطلاق الرمز وعموميته من ناحية ووضوحه من ناحية أخرى . وثمة خاصية أخرى في قصص صمد جعلته لا يجيد صنعة الرمز أولغته،وهي أن قصصه وإن كانت للأطفال إلا أنها في الواقع قصص عن الكبار وعن عالمهم ومشاكله والتي تنعكس بدورها على الأطفال .

---

(25) Thomas M. Ricks , Samad Behrangi , p.369

وقد فطن رضا رهجذر إلى هذه المشكلـة (٢٦) وفي تحليله لأشهر قصص صمد " السمكة السوداء الصغيرة " فطن إلى أن صمد لم يكن يعرف حدود استخدام الرمز، فكل مجموعة من النباتات أو الجمادات أو الحيوانات تستطيع أن ترمز لبشـر، فما العلة في اختيار الحلزون رمزا للمفكر المتحرر ؟ ويمكن أن يقال نفس الشيء عن بقية رموزه .. ولماذا تكون السمكة الصغيرة سوداء ؟ لماذا لا تكون حمراء مثـلا ؟ ويمكن الرد على هذه النقطة بالذات . المغامرة كلها قامت بها سمكة سوداء ، وفي آخر القصة كانت الجدة قد أنهت قصتها ، وظلت سمكة حمراء ساهرة ولم تنم .. والرمز هنا شديد الوضوح ، فإذا كان من المتعارف عليه ، وكانت أجهزة الأمن تعرفه ، أن اللون الأسود في أعمال أدباء ما قبل حتى الثورة كان يرمز إلى الجناح الديني من المقاومة ، وأن اللون الأحمر كان يرمز إلى الجناح اليسارى[٢٧] ، فإن هدف صمد يكون شديد الوضوح وليس في حاجة إلى تأويل ، وإذا كانت القصة قد ألفت في منتصف الستينيات حيث كانت المقاومة بالفعل في أيدى رجال الدين بعد الحركة الخمينية الأولى " ١٩٦٣" فإن الرمز هنا يكاد يكون تصريحـا . غير أننا لا ينبغي أن نسلم بهذا التفسير تماما ، ففي قصصه الأخرى وعلى الخصوص " اولدوز والدمية المتحدثة و اولدوز والغربان يغلب اللون الأحمر تماما ،

(٢٦) مقال نكاهي ديكر به ماهي سياه كوجولو - كيهان فرهنكي - سال بنجم - ارد يبهشت ١٣٦٧ - صص ٣٤-٣٧.

(٢٧) كان الشاه نفسه يسمي رجال الدين المناضلين الرجعية السوداء . ولتفصيلات أنظر : ابراهيم الدسوقي شتا - الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية ط٢ - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٨٨ - ص٣٠٤ وأيضا : ابراهيم الدسوقي شتا : مطالعات في الرواية الفارسية المعاصرة - الهيئة العامة للكتاب - ١٩٨٦ - صص ١٦٦-١٦٧.

كما أن نشيد الوردة الحمراء الذى تغنيه الحيوانات في الغابة ليس أيضا في حاجة إلى تأويل ، والسطور الأخيرة في القصة تكادتكون بيانا ثوريا : " لابد أنكم تنتظرون إلام انتهى أمر الدمية والأطفال ، وإن لم تكن حادثة الغربان قد حدثت ، لماتت اولدوز حزنا ، ولضاعت من أيدينا ، لكن ظهور أم الغراب ، وصداقة الأطفال مع الغربان غيرت الأمور برمتها ، فلقد استعادت اولدوز واستعاد ياشار حماسهما ، وجاهدا كثيرا ليصلا إلى مدينة الغربان "(٢٨) هذا التعاقب بين الأحمر والأسود لا يعني أن صمد قد انتصر للون الأسود إلى لنهاية ، ففي الصفحة التالية للصفحة المذكورة آنفا يقول " يقول مؤلف هذا الكتاب : لقد تعرفت على اولدوز بعد سنوات من ضياع الدمية المتحدثة وصادقتها كما ذكرت في قصة اولدوز والغربان ، تعرفت عليها في قرية جدتها ، وكانت آنذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وكنت معلما في نفس القرية ، وفي النهاية استطعت أنا وتلاميذى أن نجد دمية اولدوز المتحدثة ، وهذه قصة أخرى سأذكرها في كتاب : الغربان والدمى والبشر ، فانتظروا من الآن صدور هذه القصة "(٢٩) اللون الأسود عند صمد له دوره الثورى أيضا ، وإن كان يرقب إتحادا بين اللونين لعله كان يريد التعبير عنه في قصة الغربان والدمى والبشر التي لم يصدرها قط فيما أعلم " وإن كان هذا الإتحاد قد حدث في عام الثورة والعام التالي له " ، لكن تبقى بعض الإشارات تهز من اليقين في أن صمد كان ينتظر بالفعل دورا من اللون الأسود ، ففضلا عن السمكة السوداء الصغيرة تختفي لتترك دورها لسمكة حمراء ، يجعل الكلب الذى هدد اولدوز وياشار

---

(٢٨) قصه هاى بهرنك : ص ١٣٨.

(٢٩) المصدر السابق ص ١٣٩ .

في اولـدوز والغربـان أسـود ،كمـا يجعـل القطـة الـتي أكلـت الكـارع السحرى في اولدز والدمية المتحدثة سوداء ، فـاللون الأسـود عنـده ذو دور ثورى كما أنه ذو دور سلبي أيضـــا .

والواقع أن رموز صمد بالذات قد أثارت ردود فعل عديدة وذلك من خلال الدراسات التي أعادت تقييم أعمال صمد بعد انتصار الثورة الإسلامية ، ولم يكن الإتجاه اليسارى عند صمد مما يصادف هوى عند المثقفين الثوريين الإسلاميين الذين وجدوا عالمه شديد البعد عن القيم الإسلاميـــة ، بل ووقر الشك في أصالة ثورية صمد، ويصل الأمر هنا إلى درجـة الإحالـة ، ففـي تقييـم رضـا رهـجـذر علـى قصـة السـمكة السوداء الصغيرة ، يناقش لا منطقية الحدث ، وكأن قصص الأطفال ينبغـي عليهـا أن تحـافظ علـى حـدود المنطـق ، ويتسـاءل : هـل مـن الممكن أن تكون هنـاك قصة ثورية تحكيها جدة قبل النوم ؟ وهل تقيم سمكة النبع أسماك البحر؟ وهل تحركت أسماك البحر بعدها في عمل ثـورى ؟ إلى غير ذلك مـن الأسئلـــة المترصدة التي تغيب تمامـا عـن طبيعة عملية الإبـداع الخـاص بالأطفـال . وينكـر رضـا رهـجـذر علـى صمـد أنـه مـا دام قـد استخدم رموز الحيوان في القصـة فـلا قيمـة إذن لوجـود الإنســـــان ، وهـو حكـم في محلـه إذا تم تجـاهل طبيعـة قصـة الطفل ، فالإنسان الطيب الضعيف المسحوق الذى يواجه قوى أقوى منـه ، عـادة مـا تخـف قـوى غيبيـة لنجدتـه قـد تكـون مـن الجـن ومـن المخلوقـات الخرافيـة ، وإن اختـار صمـد قـواه الغيبيـة مـن الطيـور والحيوانات فذلك لكي يقوم بعمليـــة ربط بين الإنسان الطفل وبين مـا يحيط بـه من مخلوقـات ، وهذا لا يقلل أبـدا مـن قيمـة الإنســـان سيد المخلوقات والذى خلق كل ما في الأرض لخدمته كما في المأثور الديني نفســـه . ويتسـاءل النـاقد : القصـة الرمزيـة لا تـدور في زمـان معين أو في مكان معين .. هي قصة تجريدية ، وكيف يمكن للطفل أن

يقتنع بالأحداث الخارقة وهي تجرى في زمان ومكان عاديين ومعلومين ؟ وينسى الناقد أن كل أساطير ايران محددة بأزمنة وأماكن ، وينسى أيضا أن صمد لم يكن يريد أن يحس الطفل بالجو الأسطورى . لأن الأمر إن كان برمته أسطورة ، فإن الغرض من التعليم ينتفي ، فضلا عن أنه كان يريد أن يضع الطفل على أرض الواقع عن طريق الأسطورة ، وينسى أيضا أن ثمة فرقا بين الزمن الأسطورى في الأسطورة ، وبين نفس الزمن في قصة الأطفال .

ويتساءل الناقد : كيف يصدق الطفل أن القصة تجرى على ألسنة الحيوانات ؟ وهل تتحدث الحيوانات ؟ وهنا يصل إلى قمة ترصده وغيابه التام سواء عن الأدب الرمزى أو أدب الطفل أو أدب الحيوان مع ماله من ماض في الأدب الفارسي ، ومن الطريف أن مولانا جلال الدين رد على هذه القضية وناقشها مناقشة مستفيضة، يقول :

- وإن لم تكن قد رأيتها لا من الداخل ولا من الخارج ، فخذ من الحكاية المعنى أيها المسكين .

- لا مثل ذلك الذى سمعها كحكاية ، والتصق بصورتها كالشين في كلمة نقش .

- حتى ليقول : كليلة تلك التي لا لسان لها ، كيف تسمع الكلام من دمنة التي لا تتكلم؟

- وإذا كانت كل منهما تعرف لغة الأخرى ، فكيف فهمهما البشر وهما لا تنطقان؟!

- وكيف صارت دمنة رسولا بين الأسد والثور ؟ وكيف خدعتهما معا ؟

- وكيف صار الثور النبيل وزيرا للأسد ؟ وكيف خاف الفيل من إنعكاس القمر ؟

- إن كليلة ودمنة هذه كلها إختلاق ، وإلا فمتى كان بين الزاغ واللقلق إمتـــراء ؟
- فيـا أخي ، إن لقصـة مثـل الكيـــل ، والمعنى داخلهـا على مثـــال الحبوب .
- ورجل العقل يأخذ حبوب المعنـــى ، ولا يرى الكيل إن نقل إليـــه .
- فاستمع إلى حادثة البلبل مع الوردة ، وإن لم يكن ثـم مقـال ظـاهر فيها .
-- واستمع أيضـــا إلى ما جرى بين الشمعة والفراشـــة ، واختر أنت المعنى من الحكاية .(٣٠)

فكأن مولانـا كـان يرد على رضا رهجذر عندمـا قـال نقـدا على قصـة السمكة الصغيرة السوداء بعد مناقشة مـا جرى على ألسنة الأسمـاك حرفيـا وأنهـى المناقشة بـأن الأسمـاك لا تتحـدث في الأصـل "!!" وأن الحيوانـــات لا تفكـر أصـــلا ولا ترســم الخطــط ، ومـــا يحــدث مــن الحيوانـــات في قصــص صمــد يغـــاير تمامــا مـــا يحــدث في حياتهـــا الطبيعية "!!!"(٣١) منتهى التنطع والإحالة .

غير أن هذا التنطع وهذه الإحالة كانـا أمرين طبيعيين إذا وضعنـا في الحسبان ما استخرجه نقاد اليسار من قصص صمد من أفكار تبدو بدورها من الإحالات ، والفريقـان كلاهمـا بدأ من نقطة خاطئة هي مناقشة قصص الأطفال بمعايير قصص الكبار من ناحية عند نقـاد مـا قبل الثورة والبحـث والتنقيـب عـن الرمـز السياسـي ومناقشـة

---

(٣٠)مثنـوى مولانـا جـلال الديـن الرومـي – الكتـاب الثـاني – الترجمـة العربيـة لإبراهيم الدسوقي شتـــا– الأبيات :٣٦٣١-٣٦٤١.

(٣١)مقال رضا رهجذر: ص ٣٧.

القصص من منطلق أن صمد يسارى ملتزم بالمقولات اليسارية وهو حكم مسبق لم يقم عليه أى دليل ، وأبرز مثال على نقاد ما قبل الثورة الناقد منوتشهر هزارخاني في نقده على السمكة الصغيرة السوداء .(٣٢) يعتبر هزارخاني المناقشة بين السمكة السوداء وبين الأم في النبع والجيران الذين يسخرون منها ومن تطلعاتها ، ومن إتسامها بالسمات اللازمة للثورى الحقيقي : الفكر والوعي والإرادة ، بينما تمثل الأم والجيران جناح المحافظين الذين يفكرون في المصلحة ، والأمر في رأى هزارخاني يمثل الصراع الفكرى بين الأجيال ، نمط تفكير جيل في سبيله إلى الإنقراض ، في مواجهة جيل متمرد ، أو الصراع الدائم بين جيلين: جيل وصل بمرور الزمان إلى نوع من السكون الفلسفي المزيف ، وجيل في حالة غليان (٣٣) ، وتنتصر السمكة السوداء على هذا المنطق " العفن " طبعا بالفكر والإرادة والوعي ، وإن كان وعيا نسبيا في مواجهة حياة رتيبة ووتيرية ، فهي لا تعلم ماذا تريد ، لكنها تريد تغيير الوضع فحسب حتى بالتضحية بكل روابطها وعلاقاتها، لكنها تعلم - ولسنا ندرى من أين - أن الطريق سوف يتضح لها عند قطعه . ويتساءل هزارخاني : إذا وصفنا هذا النمط أمام أصحاب الأيديولوجيات .. ماذا يقولون ؟ سيقولون : بورجوازية صغيرة مغامرة ورومانسية ثورية كاذبة وعندها جنون مؤقت ناشيء عن عقدة النقص والنظرة الدونية إلى نفسها ، وإخلال بالنظام وتحريض على أمن الأسماك ، عميلة للأجانب " الحلزون الملتوى" ، وثمة نقاد لايودون أيضا النظر بغضب ، لكن صمد كان يخلق نمطا جديدا

---

(٣٢) منوجهر هزارخاني : جهان بيني ماهي سياه كوجولو- نشر إحياء تبريز- بدون تاريخ .

(٣٣) هزارخانى : ١-٢.

يتميز بخصلتين بارزتين: الجرأة والشجاعة ، جرأة وشجاعة ثوريتين ، ليست فروسية اسكندر ديماس الكاذبة أو الفرسان الأغبياء في قصة الملك بهمن .. وهذه الشجاعة نتيجة قوة خلاقـــة عن طريق الإرادة والوعي ، تنبثق كالطاقة الذرية ،وتمنح الحياة أبعادا وآفاقا أوسع ومستوى أعلى إلى حد تكامل الإنسانية وقمة نضجها ، فهل هذه رومانسيـــة كاذبة ، ومغامرة لبورجوازية صغيـــرة ؟(٣٤)

ويتحمس هزارخاني ، ويصور الضفادع الصغيرة وحوارها معها بأنه تعبير عن طبقة البورجوازيـــة المفكرة "!!" التي تعيش في بركة ساكنة وتدعي الأصالـــةوالأرستقراطيـــة ، حتى أسماؤهم ليست ملكا لهم ومع ذلك يظنون أنهم محور الوجود ، والبركة التي يعيشون فيها هي كل العالم ، والضفدعة هي نموذج الإدعاء واحتقار الآخرين لمجرد أنها تستطيع العيش في الماء واليابسة ، وتسمع الحقيقة من السمكة السوداء الصغيرة : " عيشي أضعاف هذا العمر مائة مرة، سوف تظلين ضفدعة حقيـــرة "(٣٥)لكن السمكة الصغيرة واعية بضعفها وقوة الآخرين ، فلا تجر إلى معركة غير متكافئـــة ، ولا يخرجها أيضا خداع السرطان عن وعيها ويجعلها تتبعه ، وتظل على كراهيتها للسرطان وحذرها منه ، ويجدها هزارخاني فرصة للدفاع عن القيم التى ينشرها صمد بما أشرنا إليـــه آنفـــا .. ثم يأتي هزارخاني إلى السحلية ، لماذا هي رمز الوعي ؟ لأنها تعرف أعداءها جيدا وأصدقاءها جيدا ولاتنخدع وتعرف مخاطر الطريق ، وتفضح ألاعيـــب البجعـــة ، وتحذر السمكة السوداء منها .. وهذا في رأى هزارخاني رمز للتعلم أثناء الحركة،واستخدام العلم من أجل التقدم ، ومن بعدها تصبح

---

(٣٤) نفس المصدر ص ٤-٥.

(٣٥)جهان بيني ماهي سياه كوتشولو ص ٧.

السمكة السوداء الصغيرة قائدة للأسماك الضئيلة التي تحس بالخوف والرعب من البجعة ، ومن ثم فهي مشلولة ، علم نفس الخوف وروحياته ، ومن ثم فهي تشق فيه فجوة ، منها يمكن العبور إلى غير الممكن وإلى المحال ، وفي الصراع مع البجعة تمثل الأسماك الضئيلة حالة الرعب والفزع ، فحالها خارج كيس البجعة ليس بأفضل من حالها داخله ، بل هو نتيجة حتمية لهذا الرعب(٣٦)وعند الخطر تبدو قيمة المرء الحقيقية وجوهره ، فثمة مشاجرة بين السمكة الصغيرة والأسماك الضئيلة داخل كيس البجعة ، الأسماك الضئيلة هلعة خائفة نادمة تود أن تتوسل إلى قاتلها بأن يرحمها ، وتتملقه ، لكن السمكة السوداء تعلم أن كل هذا لا يجدى ، إنها تكره – حتى في هذا الخطر– ضعف النفس والملق والتوسل والتذلل ، وعندما تحاول البجعة أن تؤلب الأسماك الهلعة على السمكة السوداء وتطالب برأسها ثمنا للعفو عنهم ، تعلمهم السمكة السوداء الدرس الأخير ، وعندما تبتلع البجعة الأسماك الضئيلة تقوم السمكة السوداء بعملها ، ويخنجرها ، تمزق جوفه ، وتلخص فلسفة حياتها قائلة : " الآن ليأت الموت نحوى ببساطة شديدة ، لكن مادمت حية لن أسعى للقاء الموت ، ولكن إن أضطررت إلى مواجهة الموت ، لا يهم ، المهم أى أثر لحياتي أو موتي في الآخرين " وفي بطن النورس تقول للأسماك الضئيلة التي تتوجع وتتفجع وتنادى أمهاتها " كفى ، كفى يا صغيراتي ، لقد قضيتم على كرامة الأسماك تماما " والآن تريدون أن تنتهي القصة بانتصار السمكة البطلة وتنصيبها زعيمة على الأسماك؟ لقد فهمتم خطأ ، فصمد لا يعترف بالبطل الدائم والبطل المحترف ، إنه يقبل البطل أثناء بطولته ، عمله ، صراعه وكفاحه ، لقد

---

(٣٦) المصدر السابق ص ١٢.

صارت السمكة الصغيرة جزءا من كل سمكة حرة تصل إلى البحر، هي ليست سمكة حرة ، لكنها جزء من قيمة الحرية ، لتمت السمكة السوداء الصغيرة ، لكن السمكة الحمراء الصغيرة التي استمعت إلى قصتها ظلت ساهرة طوال الليل تفكر في البحر.(٣٧)

الناقدان إذن اليساري والإسلامي وقعا بين إفراط وتفريط ، الإسلامي وقف عند الظاهر لا يريم ،واليساري صور كل شيء بمصطلحاته هو، والسمكة الصغيرة السوداء قد تكون هذا أو قد تكون ذاك ، وقد تكون شيئا آخر أراد صمد أن يضرب به للأطفال الصغار مثلا عن عدم الإستسلام لحياة الخنوع ،والمقاومة حتى ولو لم تكن مجدية ، فضلا عن أن يسارية صمد ليست يسارية معلنة ، وجنوحه إلى المقاومة الدينية ليس واضحا أيضا ، ومن ثم تبقى السمكة السوداء الصغيرة مجرد قصة أطفال ، وينبغي أن يقرأها الطفل أولا ثم نسأله : بماذا خرجت منها؟

وختاما لهذه العجالة أرجو أن أكون بمجموعتي هذه قد أضفت شيئا يذكر إلى المكتبة العربية ، وأضفت إلى وجدان الطفل القارىء بالعربية جديدا ، ولا يفوتني أن أقدم شكرى لأستاذىّ الجليلين : الدكتور أحمد الخولي على مساعدته إياى عند كتابتي لرسالة الماجستير وبدء طريقي مع صمد ، والدكتور ابراهيم الدسوقي شتا على الآفاق الجديدة التي فتحها أمامي بشأن صمد ، وعلى تفضله بتشجيعي على إكمال هذه المجموعة ومراجعته إياها ، جازاهما الله عني خير الجزاء . والله ولي التوفيق .

دكتورة
ماجدة العناني
مدرس اللغة الفارسية وآدابها
كلية الآداب - جامعة حلوان
مايو ١٩٩٦

---

(٣٧)اجهان بينى ماهى سياه صص ١٥-١٦.

١ - "أولدوز" والدمية المتحدثة

أوشكت الشمس على المغيب ، وكانت " أولدوز " تجلس في المخزن، وهي تضع دميتها الكبيرة أمامها وتحدثها ببطء شديد قائلة :- أتريدين الحقيقة يا دميتي الكبيرة ؟!! ليس لي غيرك في دنياي ، أتسألينني عن أمي ؟ أنا لا أتذكرها مطلقا !! ولكن جيراننا يقولون أن أبي طلقها منذ زمن بعيد ، وأرسلها عند أبيها في القرية ، وأنا أيضاً لا أحب زوجة أبي ، فمنذ أتت إلى بيتنا أخذت مني أبي ، وأنا وحدي في هذا البيت ، لقد ذبحوا أيضا بقرتي بالأمس ، وكانت علاقتي بها أفضل منهما عندي ، كنت أحدثها وهي تلعق يدي بلسانها وتعطيني لبنها ، وكانت لا تسمح لأحد أن يحلبها إذا لم ترني أمامها . كانت في منزلنا منذ صغرها ، فأمي هي التي استقبلتها على يدها منذ ولادتها ، وقامت برعايتها حتى كبرت ... يا دميتي الكبيرة ، إما أن تبادليني الحديث أو أنفجر!! نعم ، قلت إنهم ذبحوا بقرتي بالأمس ، فقد كانت زوجة أبي تتوحم واشتهت الأكل من لحم بقرتي ، والآن ها هي وأختها تجلسان في المطبخ تنتظران نضوج اللحم لتأكلان ... مسكينة بقرتي الحنون !! أعرف أنك الآن تغلين فوق النار... دميتي الكبيرة تحدثي وإلا انفجرت ، إنني أتجرع مرارة الموت ... فمنذ أن كانت زوجة أبي تتوحم وهي لاتطيق رؤيتي ، وتقول لي " عندما أرى وجهك أصاب بالغثيان ، ليس بيدي " ، ولذلك فأنا مجبرة أن أقضي معظم الوقت في المخزن حتى لا ترى زوجة أبي وجهي فتصاب بالغثيان ، يا دميتي الكبيرة ، تحدثي وإلا انفجرت ، أنا لا أعلم منذ متى وأنت معي ؟!! منذ أن فتحت عيني على الدنيا رأيتك ، فإذا أصبحت أنت الأخرى سيئة وعابسة معي ، فلا أدري

ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟!! يا دميتي الكبيرة !! تحدثي وإلا سأنفجر... سأموت كمداً ، يا دميتي الكبيرة !! إننى أنفجر...تحدثى ...تحدثى... !!

فجأة شعرت " أولدوز " بيد تمسح دموعها وتقول لها بهدوء : - " أولدوز " !! يكفى هذا !! لا تبكى ... لن تنفجرى ... فها أنا أتحدث ، أتسمعين صوتى ؟!! دميتك الكبيرة نطقت ، لن تكونى وحيدة مرة أخرى أبداً !!

أزاحت " أولدوز " شعرها جانبا ورفعت رأسها فرأت دميتها الكبيرة قد نهضت من جوار الحائط ، وجلست فى مواجهتها ، وأخذت تمسح دموعها بيدها ، فقالت :

" أولدوز " - أيتها الدمية : أكنتِ تتحدثين ؟

قالت الدمية المتحدثة : - نعم ، وسوف أتحدث ثانية ، فأنا أعرف لغتك .

كان الليل قد هبط ، وكانت " أولدوز " ترى دميتها بمشقة ، وخرجت من المخزن وهى تتحسس طريقها في الظلام ، واتجهت نحو الرف لكى تحضر الكبريت لتشعل المصباح ، لكنه لم يكن بجانب المصباح ، فوضعت المصباح على الأرض وذهبت لتحضر الكبريت من الرف الآخر. فاصطدمت رجلها فجأة بالمصباح فانقلب ، وانكسرت زجاجته وانسكب الكيروسين على السجادة ، واختلطت رائحة الكيروسين بالظلمة وانتشرت فى الحجرة . أثناء ذلك دق الباب فاضطربت " أولدوز " ، فقالت لها الدمية وهى تقترب من عتبة المخزن : - أدخلى هنا يا " أولدوز " من الأفضل أن نتجاهل الأمر ، وقولى أنك لم تخرجى من المخزن مطلقا.

تناهى إلى الأسماع صوت الأب وزوجته في الممر الخارجي ، وتقدمت زوجة الأب وقالت : - كنت فى المطبخ ولم أشعل المصباح ، وسوف أشعله الآن .
قالت العروسة لـ " أولدوز " : - أسرعى ... وادخلى هنا .
قالت " أولدوز " : - من الأفضل أن أقف هنا وأقول لهما أن الزجاجة قد انكسرت ، وإلا ربما وطأت أقدامهما الزجاج ويسوء الأمر.
وعندما كانت زوجة الأب تمر من العتبة إلى داخل الحجرة ، أشعلت " أولدوز " الكبريت وقالت لها : - أمى !! انتبهى !! لقد وقع المصباح وانكسرت زجاجته .
ودخل الأب عقب زوجته بينما كانت زوجة الأب ترفع يدها لتصفع " أولدوز " ولكن سرعان ما أنزل الأب يدها وقال لها : - ألم أقل لك اتركيها وشأنها عدة مرات ؟!!
وكانت " أولدوز " عندما كانوا يذبحون البقرة قد بكت وأظهرت الجزع ، حتى قال الجميع أنها ستنفجر من شدة البكاء . وبالأمس أيضاً لم تتناول عشاءها ، وأخذت تهذى وتقلد صوت البقرة حتى الصباح ، لذلك أوصى الأب زوجته بأن تترك " أولدوز " لعدة أيام ولاتترصدها .
قالت زوجة الأب : - لم أر بنتاً مهملة وكسولة مثلها !! حتى المصباح لم تستطع إشعاله ، الآن أغربى عن وجهى !!
ذهبت " أولدوز " إلى المخزن ، وأشعلت زوجة الأب مصباحاً آخر، وقالت لزوجها : - إن رائحة الكيروسين تجعلنى أشعر بالغثيان .
كان الجو صيفاً ، والنافذة مفتوحة ، أطلت زوجة الأب من النافذة

وتقيأت ، وكان الأب قد أبدل ثيابه ، ثم قام بجمع الزجاج المكسور وأثناء ذلك جاءت أخت زوجة الأب مسرعة وقالت : - أختى ..!! صار اللحم أمَّر من السم !!
اعتدلت زوجة الأب وقالت : - ماذا قلتِ ؟!! اللحم مُرّ المذاق !!
وقدمت " برى " قطعة من اللحم لها وقالت : - تذوقى ... وانظرى ؟!!
اختطفت زوجة الأب قطعة اللحم من يد أختها ووضعتها فى فمها ، وكان اللحم حقاً مر المذاق ، سيئ الطعم ، بحيث شعرت زوجة الأب بالغثيان مرة أخرى .
- لن أطيل عليكم - وأسرعت زوجة الأب والأب و" برى " إلى المطبخ ، وكانت " أولدوز " ما زالت - هي ودميتها المتحدثة - تجلسان بالمخزن وتتحدثان ، بينما كان الضوء خافتاً ، قالت " أولدوز " : - أسمعتِ يا دميتى المتحدثة ماذا قالت " برى " ؟ لقد قالت أن اللحم أصبح مر المذاق .
قالت الدمية المتحدثة : - أظن أن البقرة جعلت لحمها مر المذاق لهم فقط ولكنه لن يكون مر المذاق فى فمك !!
قالت " أولدوز " : - سوف آكل منه .
قالت الدمية : - لابد أن تحتفظى بشىء من البقرة ، سوف ينفعنا هذا النوع من الأبقار فإن له خواصا عديدة .
قالت " أولدوز " : - أى قطعة فى رأيك أحتفظ بها ؟!
قالت الدمية : - كارعها مثلاً !!

إنه مر المذاق لزوجة الأب

حلو المذاق لـ " أولدوز "

اجتمع الأب وزوجته و" برى " في المطبخ ، وأخذوا يتذوقون قطع اللحم قطعة وراء الأخرى ، ويلفظونها ، وكان قدر كبير من اللحم لا يزال معلقا بالخطاف ، كانوا قد تركوه لليوم التالى ليفرموه . فقطع الأب قطعه من اللحم النئ وتذوقها فوجدها أيضاً مرة المذاق ، سيئة الطعم ، فقال : - لا أدرى ماذا أكلت البقرة قبل ذبحها فصار لحمها هكذا ؟!!

قالت زوجة الأب : - لم تأكل شيئا ، ولكن ابنتك صبت سم عينيها عليها ، كم هي دميمة !!

قال الأب : - لقد ذبحناها بلا سبب !! حرام !! وكم قلت لك دعينى أشترى لك لحم بقر من القصاب ، ولكنك لم تقبلى .

قالت زوجة الأب : - فلتذهب البقرة إلى الجحيم ! ... أنا موشكة على الإنهيار فالرائحة العفنة تشعرنى بالغثيان .

وأمسكتها " برى " من ساعدها وقالت لها : - هيا بنا نخرج .

إتكأت زوجة الأب على ساعد " برى " ، وذهبت وجلست على حافة الحوض وقالت : - نادى " أولدوز " لتأخذ هذا اللحم وتحمله إلى بيت كلثوم فرائحته العفنة تملأ البيت .

كانت كلثوم جارتهم من جهة اليسار ، وكان زوجها فى طهران يشتغل عاملاً فى حرق الطوب،ولها طفل صغير يدعى " ياشار " يذهب إلى المدرسة بينما كانت هي تقوم بغسل الملابس أغلب الوقت .

أسرعت " برى " صوب الحجرة ونادت على " أولدوز" قائلة : -
" أولدوز! أولدوز! أمك تريدك أن تذهبى إلى منزل " ياشار " .
وعندما نادت " برى " على " أولدوز" قطعت حديثها مع دميتها .
فقد كانت تُعّرفها بـ " ياشار " .
وقالت الدمية المتحدثة : إذا رغبتِ فى نقل خبر نطقى إلى " ياشار "
فافعلى .
فقالت " أولدوز" : - أجل لابد أن أقول له .
ذهبت " أولدوز" إلى الفناء وكان المصباح الكهربى على رأس الحارة
يبعث ضوءاً خافتاً فى الفناء ، وكانت زوجة الأب جالسة تتقيأ، وقد
أحضر الأب الوعاء ووضعه تحت شجرة التوت ، وذهب ووضع كفه
على جبهة زوجته .
وقالت " برى " لـ " أولدوز" : - خذى هذا الوعاء وأعطيه لكلثوم .
وقالت زوجة الأب : - لا تجلسى كثيراً وتتحدثى مع هذا الولد
الصائع... عودى سريعاً ! ...
قالت " أولدوز" : - أمى ، لماذا لا تأكلين من اللحم؟
أجابت زوجة الأب وقد نفد صبرها : - هل حشوت أنفك بالقطن ؟!!
ألا تشمين رائحته العفنة ؟! إحمليه وأسرعى .
قالت " برى " لزوجة الأب : - يا أختى الكبيرة : عندما كانت هذه
البقرة حية ، كانت بليدة عنيدة، إنها حيوان حقير.
ولم يكن الأب ينبس . وعاد ينظر إلى " أولدوز" فرآها قد أخرجت
قطعة من اللحم من الوعاء وأخذت تلوكها بشهية وتلذذ ثم تبتلعها .
وفجأة صاح وقال : - أيتها البنت !! لا تأكليها فتمرضين

وهنا التفت الجميع لصوت الأب ، وأخذوا ينظرون إلى " أولدوز " فتجمدوا فى أماكنهم من شدة تعجبهم .
وقال الأب مرة أخرى : - أيتها البنت قلت لا تأكلى !! أبصقيها على الأرض .
قالت " أولدوز " : - يا أبت !! لحم بهذه الجودة والمذاق الطيب ... لم لا آكل ؟!!
قالت " برى " : - عجباً !! عجباً !! إنها مثل الجوارح ، أى شىء تحصل عليه تأكله!!
قالت زوجة الأب : - إنها ليست آدمية .
وضعت " أولدوز " : - قطعة أخرى فى فمها وقالت : - أنا لم آكل من قبل لحماً أشهى من هذا !!
ارتعدت زوجة الأب ، وعبست " برى " وبهت الأب ، فقالت " أولدوز " مرةأخرى : - يا لها من رائحة طيبة ، إن مذاقه مثل مذاق الزبد ولحم الدجاج وما يشبهها ياأمي .
كانت زوجة الأب تدعك يديها ووجهها ، فنهضت وذهبت نحو الغرفة وقالت لها:- كُلى كما تشائين ، حتى ولو خرجت أحشاؤك،فمالي أنا!!
قال الأب : - يكفى آخرا يا بنت ،، إنك ستمرضين ، احمليه واعطيه لبيت كلثوم .
قالت " أولدوز " : - أتركنى آكل قطعة أو إثنتين .
ودلف الأب و" برى " أيضاً إلى الداخل . وأخذت زوجة الأب تقطع الغرفة ذهاباً وإياباً ، وهى تضع يدها على بطنها وتتأوه ، وعندما دخل الأب و" برى " قالا : - الرائحة العفنة تملأ المكان !!

قالت " برى " : - ورائحة الكيروسين أيضاً يا أختى الكبيرة .
قالت زوجة الأب : - هل أنا غبية إلى حد أنى لا أعرف رائحة الكيروسين؟!! آخ!! بطنى !! أحشائى تخرج ... آه ... آه !!
قال الأب : - إحمليها يا " برى " إلى الفناء حتى تشم هواءً نقياً .
وأخذت " برى " يد زوجة الأب ، وخرجا إلى الفناء ، وكانت " أولدوز " لا تزال جالسة تحت الشجرة ، تأكل من اللحم بشهية ، متلذذة به وهى تلعق أصابعها وتعلن استحسانها ، فصاحت زوجة الأب قائلة : - يا نصف الشبر : ها أنت تقومين ثانية بإخراجى عن طورى ، قلت لك أخرجى هذه الرائحة العفنة من البيت !!
قالت " أولدوز " : - أى رائحة عفنة هذه يا أمى ؟!!
رمت زوجة الأب الوعاء وصاحت قائلة : - اقول لك ، لحم بقرتك الجرياء هذه ... ياللا ، إنهضى واحملى هذه الرائحة وأخرجيها من هنا ، فإن أحشائى تخرج من بطنى .
قالت " أولدوز " : - أتركينى يا أمى آكل بعض القطع منها ، فإننى جائعة .
أمسكت زوجة الأب بشعر " أولدوز " وأخذت تصيح قائلة : - أتعاندينني يا بنت الكلب !!
أطل الأب من النافذة على الصياح والصراخ وسأل : - ماذا حدث ثانية ؟!!
قالت زوجة الأب : - إنك لا تقدر على أحد قط سواى أنا التعيسة ، لاتزال تقول لى ألا يكون لى شأن مع هذه الصفراء ، الآن أنظر كيف تعاندنى ؟

حملت " أولدوز " الوعاء وذهبت به تجاه باب الممر ، ووضعت الوعاء خلف الباب على الأرض ، وأمسكت بحلقة الباب ، وألصقت إحدى قدميها بالباب ورفعت نفسها الى أعلى ، وفتحته ، ثم نزلت ، وحملت الوعاء وخرجت .
فصاحت زوجة الأب وراءها قائلة : - لا تغلقى الباب !!

حديث بسيط و ودى :

وفى تلك الليلة نام الاب وزوجة الاب فى الفناء ، قالت اولدز سوف انام فى الحجرة .
قال الأب : - يا بنت ، إنك دائما تقولين إنك تخافين من النوم فى المخزن وحدك ، الآن ماذا حدث لك ؟!! أتريدين أن تنامى بمفردك تماما ؟
قالت " أولدوز " : - أشعر بالبرد .
قالت " برى " : - جو بهذه الحرارة !! وتقول أنها تشعر بالبرد ؟ مسكينه يا أختى !! إنك على حق عندما لا تطيقين رؤيتها .
قالت زوجة الأب : - إهمليها ، ولتذهب إلى الجحيم ، فهى ليست بآدمية ، تأكل اللحم العفن وتتلذذ به !!
وعندما هدأت الضوضاء ، نادت " أولدوز " على دميتها المتحدثة ، فجاءت العروسة ودخلت تحت غطاء " أولدوز " وانهمكتا فى الحديث ، وسألت الدمية " أولدوز " قائلة : - هل رأيت " ياشار " ؟
قالت " أولدوز " : - نعم رأيته ! لم يصدق أنك صرت تتحدثين ولابد أن نجتمع ثلاثتنا ذات يوم و...
قالت الدمية : - الأن نحن فى الصيف ، و" ياشار " لا يذهب إلى ...

المدرسة ، نستطيع أن نلعب ونتنزه من الصباح حتى المساء .
قالت " أولدوز " : - " ياشار " ليس عاطلا ، إنه يعمل فى نسج السجاد .
قالت العروسة : ولكن أين أبوه ؟!!
قالت " أولدوز " : - ذهب إلى طهران ليعمل في قمائن الطوب .
قالت الدمية : - يا " أولدوز " لابد أن تحتفظى لنا بكارع البقرة فى أى مكان تكونين فيه ، ذلك لأنها لم تكن بقرة عادية .
قالت " أولدوز " : - أوافقك على ذلك ، كل من يأكل لحمها يصاب بالغثيان ، أما بالنسبة لى فلها مذاق الزبد والعسل ولحم الدجاج ، كذلك " ياشار " وأمه أعجبهم وأكلوه بشهية .
قالت الدمية : - هل كان " ياشار " بخير؟
قالت " أولدوز " : - قطعت السكين إبهامه هذا الصباح وهو فى المصنع ، يالسوء الحظ ، لن يستطيع أن يعقد العقد بعد .
فجأة ارتفع صراخ زوجة أبيها عليها بصوت عال : - يا بنت ... إكتمى .. لماذا تثرثرين مع نفسك هكذا مثل المجانين ، كلامك غير واضح ، ماذا تقولين ؟!!
قال الأب : - إنها تحلم .
قالت زوجة الأب : - تنام ما تقوم .
همست الدمية : - من الأفضل أن تنامى .
فهمست لها " اولدوز " : - إننى لا أرغب فى النوم ، أريد التحدث واللعب معك هل تعرفين حكى القصص ؟
أجابت الدمية : - فلتنامى الآن قليلاً ، وعندما يحين الوقت سأوقظك

لأنني أريد أن آخذك أنت و " ياشار " إلى الغابة .
لم تقل " أولدوز " شيئا ، وتمددت على ظهرها ، وثبتت عينيها بالنافذة ، وأخذت تنظرإلى السماء في انتظار رؤية النجوم .

○ ليلةالغابة

○ ليلة وكأنها كانت حلما

○ شقلبة في السماء

بعد أن انقضى نصف الليل ، وبينما أخذ القمر في الظهور من خلف الجبال ، سكن الهواء فوق الأرض ، ولم يكن ثم نفس ، وكان النسيم في الطبقات العليا يهب عليلاً ، بينما كانت هناك ثلاث حمائم بيض يطرن على جناح النسيم ويمضين بخفة وينزلقن ، كانت البلدة نائمة تحت أرجلهن وأجنحتهن في ظل ضوء القمر. وكان لإحدى الحمائم ريشة مكسورة مربوطة بخيط ، وكان هناك بعض الأشخاص ينامون على الأسطح ، واستيقظ طفل وقال لأمه : - أمي : انظري هذه الحمامات وكأنها ضلت طريقها ، كانت أمه تغط في نوم عميق ، فلم تستيقظ ، وظلت عين الطفل تتابع الحمامات وتتحسر ، وظل هكذا حتى غلبه النعاس مرة أخرى .
وبينما كان القمر يزداد سطوعاً أخذت الظلال تنحسر ، وكانت الحمائم قد ابتعدت عن البلدة كثيرا ، وقالت الحمامة ذات الريشة المكسورة للحمامة
الوسطى : - أيتها العروسة المتحدثة : هل الغابة بعيدة جداً ؟!!
أجابت الحمامة الوسطى : - لا يا عزيزي " ياشار " إنها تقع وسط هذه الجبال ، إنها تلك الغابة التي يظهر من خلفها القمر ، أخشى أن

يكون التعب قد أصابك .
قال " ياشار " : - وهو نفسه الحمامة ذات الريشة المكسورة : - لا أيتها االدمية المتحدثة ، فأنا سعيد بالطيران ، فمهما أطير لا أتعب ، ففى أيام الصيف دائما كنت أحلم أننى أركب طائرتى الورقية وأطير بها .
قالت الحمامة الثالثة : - أنا دائماً أحلم كل ليلة أن لدىَّ جناحاً وأطير.
قالت الحمامة الوسطى : - وهى الدمية المتحدثة : - كيف ؟!
قالت الحمامة الثالثة : - ذات ليلة رأيت فى الحلم أننى كنت أحمل علبة عسل وقد أكلتها ، وعرفت زوجة أبى فتعقبتنى وبيدها عصا العجين فحاولتُ - بقدر المستطاع - الهرب منها ، ولكننى لم أستطع ، كنت أحس بثقل فى قدمى ، وأخذت أتراجع للخلف ، ولم يبق سوى القليل وتلحق بى زوجة أبى ، وفجأة ارتفعت فى الهواء وبدأت فى الطيران ، وابتعدت عنها ، وأخذت أطير من سطح إلى آخر، وأخذت زوجة أبى تصيح من أسفل وتتبعنى .
قال " ياشار " : - وفى النهاية ؟!!
قالت " أولدوز " : - بعد ذلك مدت زوجة أبى يدها فجأة وأمسكت بقدمى وسحبتنى إلى أسفل ، فصرخت من شدة الخوف ، وفزعت من نومى . رأيت أن النهار قد طلع ووجدت زوجة أبى تمسك بإصبع قدمى وتهزنى وتقول : - إنهضى ، لقد أشرقت الشمس ، أما زلت نائمة حتى الآن ؟!!
ضحك " ياشار " والدمية المتحدثة وقالا : - يا له من حلم عجيب !!

قالت الدمية المتحدثة بعد ذلك : - أي سوء فعلته بزوجة أبيك بحيث لا تقلع عن إيذائك حتى فى النوم ؟

قالت " أولدوز " : - لا أعرف !! ذات يوم قالت لأبى ما دمت أنا فى البيت فلن يحبها أبى ، ولكن أبى أقسم أنه يحبنا نحن الاثنين .

قال " ياشار " : - أريد أن أتشقلب عدة شقلبات .

قالت العروسة : - فلنفعل ثلاثتنا .

فى تلك الليلة كان الرعاة الذين يتجولون فى هذه المنطقة ، ينظرون إلى السماء يرون ثلاث حمامات أشد بياضاً من اللبن يطرن فى السماء ويتشقلبن ويتكلمن ويذهبن ومع ذلك لا يتعبن مطلقا .

فجأة قال " ياشار " : - اوه ، انتظروا لقد فُتح جرحى .

فنظرت " أولدوز " والدمية فشاهدتا الدم يتساقط من ريشة " ياشار " المكسورة ، فنزعت العروسة زغباً من صدرها ، وسدت به جرح " ياشار " ، ثم قالت : -عندما نصل إلى الغابة سندهن جرحك بالدهان ليشفى سريعاً .

وفى ذلك الوقت كانوا قد وصلوا إلى أسفل الجبال، فرأوا فى البداية وادياً ضيقاً ، وكانت الجبال قد التقت فى فوهة الوادى وجعلت الوادى أكثر ضيقاً ، فدلفت الحمائم داخله . وسأل " ياشار " الدمية:- أيتها الدمية المتحدثة : لم تقولى لنا بعد، لماذا نذهب إلى الغابة ؟

قالت الدمية : - اليوم ستأتى جميع الدمى إلى الغابة ، فقد اعتدنا الإجتماع مرة كل عدة شهور .

قالت " أولدوز " : - لماذا تجتمعون ؟

قالت الدمية : - إننا نجتمع لنتباحث فى أمور الأولاد والبنات الصغار، هل هم طيبون أم لا ؟ أيضاً نحن محتاجون للأفراح والاحتفالات .

إنتهى الوادى ، وبدأت الغابة ، كانت الأشجار طويلة طويلة تتلألأ تحت ضوء القمر. وظل الثلاثة يطيرون مدة فوق الأشجار حتى وصلوا إلى وسط الغابة . ووصل إلى أسماعهم ضجة وضجيج وهمهمة حديث ، كانت أرضا شاسعة بلا أشجار، وكانت هناك بركة تبدأ من إحدى الزوايا وتلتوى خلف الأشجار، وتحيط بها الأشجار المختلفة العالية تحط عليها طيور ملونة تغرد أو تتحدث ، ويجوار هذه البركة اشتعلت نار كبيرة كان نورها الأحمر يشع فى كل مكان ، وكانت هناك مئات وآلاف الدمى الصغيرة والكبيرة تذهب هنا وهناك ، أو تجلس مجموعات تثرثر، وكانت الدمى سواء الكبيرة منها أو الصغيرة ترتدى ملابس جميلة ، ومنها من كانت ترتدى ملابس متواضعة ، وكان الأولاد والبنات مختلطين .

وفى تلك الليلة كانت حيوانات الغابة قد تركت النوم ، بل وتجمعت أسفل الأشجار وحولها ، وكانوا يشعرون بالراحة فى أماكنهم وهم يتفرجون على الدمى.

كان " ياشار " و " أولدوز " فرحين لرؤية الدمى والطيور والحيوانات ، فلم يَر ذلك أى طفل حتى فى الحلم ، كذلك كان القمر يُشاهد منعكساً على سطح البركة ، وكانت الطيور والأشجار ومشاعل النار. كان كل شئ يبدو جميلا ورقيقاً ، وطيباً ، وكان

كل شئ يبعث على الحب ، كل شئ ... كل شئ

طاووس بذيل كالمظلة ... وثرثار :

كان الطاووس يحط بمفرده على شجرة وذيله معلق .
وقالت الدمية المتحدثة لـ " ياشار " و " أولدوز " : - تعاليا لآخذكما عند الطاووس لنتحدث معه ، أما أنا فسوف أذهب عند ساره ، وعندما أنادى عليكما تعاليا عندالدمى .
قالت " أولدوز " : - ومن ساره هذه ؟!!
قالت الدمية : - ساره هي كبيرة الدمى .
ثم قدمت الدمية الأطفال للطاووس ، وذهبت إلى أصدقائها .
قال الطاووس : - إذن فأنتما صديقا الدمية المتحدثة .
قالت " أولدوز " : - نعم لقد أحضرتنا هنا لكى نشاهد احتفال الدمى .
وقال " ياشار " : - حقا ، أيها الطاووس كم أنت جميل !!
فقال الطاووس:- وماذا رأيتم منى الآن ، أنظرا إلى ذيلى !!
فنظر " ياشار " و " أولدوز " ، فرأيا ذيل الطاووس يرتفع لأعلى ببطء شديد ، ثم ينفتح وكأنه مظلة كبيرة ، وكان ريش الطاووس يشع ألف لون فى ضوء القمر والنار ، حتى أن الطفلين ظلا فاغرى فميهما من شدة التعجب .
قال الطاووس : - نعم ، أناكما تريانى ، طائر جميل جداً ، أتريان كيف صنعت قوساً جميلا بذيلى ؟ فكل الأطفال يتوقون شوقاً لريشة من ريشى . وجميع الشعراء امتدحوا جمالى ورقتى ، فمثلا يقول " سعدى الشيرازى " :

وقـد قـرأت فـى كتـاب قديـم أن " أبـا على سـينا " الحكيـم الكبير قد مدح شـحمي ولحمي على أنهمـا عـلاج لكثـير مـن الأمراض . والشعراء أيضا يشبهون الشمس بى ، فيقولـون " الطاووس نارىُّ الريش " ، وأيضا كـانوا قد أطلقوا علىَّ فى بعـض الكتـب القديمـة إسـم " أبـى الحسـن " ، كذلـك فأنـا أجمل من زوجتى ...

تضـايق " ياشـار " مـن كـثرة كـلام الطـاووس ، ولكنـه كـان يرغـب فـى أخـذ ريشـة أو ريشـتين مـن ريشـه ، فـأنصت لـه جيداً ، وكـان يتحـين الفرصـة ، وبعـد ذلـك قـاطع الطـاووس قـائلاً : - يا عزيزى الطاووس ! هل تعطينـى أنـا و " أولـدوز " ريشة أو ريشتين من ريشك الجميل ؟ فإننى أريد الإحتفـاظ بها فى طيات كتبى .

دهـش الطـاووس وقـال : - لا ... لا أستطيع أن أنـتزع ريشـى الغـالى ، فهـوجـزء منـى ، هـل تسـتطيع أن تخـرج عينيـك وتعطيها لى ؟

كـان إنتبـاه " أولـدوز " كلـه موجهـا للدمـى والحيوانـات ، بينمـا كـانت تنصـت قليـلا إلىحديـث الطـاووس . لذلـك كـانت أسـرع إنتباهـاً مـن " ياشـار " فـى رؤيـة الدميـة المتحدثـة وهـى تنـادى عليهـم . وكـانت الدميـة قـد ألقـت بجلدهـا ، ولم تعد فى صورة حمامـة . نظـرت " أولـدوز " إلى " ياشار " فرأته فى حـالة ضيق ، فقـالت له : - تعال يا

" ياشار " نهبط، فالدمية المتحدثة تنادينا .
سلما على الطاووس ثم طار، وهبطا ، وكان الطاووس لايزال رافعاً ذيله ، ولم يتحرك من مكانه حتى لا تظهر ساقاه القبيحتان ، وعندما رأى أن الطفلين يرغبان فى الذهاب ، قال لهما : - مرحباً بكما ، أتمنى منكما ألا تنسيا أن تمتدحا جمالى فى أى مكان تذهبان إليه .

التعرف على " سارة " والدمى الأخرى :

مسحت االدمية المتحدثة بيدها على رأسى " أولدوز " و " ياشار " ووجهيهما وأخرجتهما من جلد الحمام ، وكانت دمية صغيرة يبلغ طولها شبراً قد جلست على حجر ، وقالت الدمية المتحدثة : - يا سارة : - " أولدوز " و " ياشار " أصدقائى .
فألقى " ياشار " و " أولدوز " السلام ، فنهضت " سارة " واقفة فانحنى الطفلان وصافحاها .
قالت " سارة " : - مرحباً بكما فى حفلنا ، فأنا أرحب بكما نيابة عن كل الدمى .
قال " ياشار " : - ونحن أيضاً نفتخر كثيرا بأننا قد استطعنا اكتساب حب الدمية
المتحدثة ، ونحن سعداء بحضورنا ، وسعداء أيضاً لأنكم تعاملونا مثل أصدقائكم ونشكركم جميعاً .

قالت " سارة " : - فى البداية أوجه الشكر لكما لأنكما استطعتما بأخلاقكما وسلوككما الحسن أن تجعلا دميتكما تتحدث ، ولأنكما أتيتما إلى هذه الغابة .
بعد ذلك يممت وجهها نحو الدمية المتحدثة وقالت : - خذى الطفلين وعرفيهما بالدمى الأخرى ، وأخبرى الجميع بأن يحضروا عندى حتى نتكلم قليلاً ثم نبدأ الرقص .
وبمجرد أن سمعت الدمى أن الدمية المتحدثة اصطحبت أصدقاءها ، أخذت الدمى تتقدم مجموعة مجموعة ، وأخذت تلتف حول الطفلين وبدأت فى الترحيب والملاطفة وتجاذب أطراف الحديث .

كيف يكون شكل المغرورين ؟!!

كان إصبع " ياشار " يؤلمه بشدة فأمسك بيد الدمية ، وقال : - إصبعى يؤلمنى بشدة، إفعلى شيئاً !!
قالت الدمية : - حقاً ، لقد ذكرتنى ، كان ذلك قد راح عن بالى تماماً .
وتقدمت دمية كبيرة وقالت : هل جُرحت يا " ياشار " ؟!
قال " ياشار " : - نعم يا سيدتى الدمية ، لقد قطعت السكين إبهامى .
وأضافت " أولدوز " قائلا : فى مصنع نسيج السجاد .
قالت الدمية الكبيرة : - هيا نذهب للغابة ، فإنى أعرف

مرهماً سيشفى جرحك بعد ساعات قليلة ، هيا !!
بعد ذلك أمسكت بيد " ياشار " وذهبت به .
قالت الدمية المتحدثة : - إذهب يا " ياشار " إنها دمية عطوف تعرف دواءً ممتازاً من العشب .
ثم مر الإثنان من وسط الدمى حتى وصلا إلى أسفل الأشجار، وافسحت حيوانات الغابة لهما الطريق ، وكان هناك أرنب أبيض يلوك ساق نبات ،فقالت له الدمية : - يا رفيقى الأرنب : هل تستطيع أن تذهب إلى الغابة ، وتحضر لنا ورقة
عريضة أو ورقتين من هذا العشب ؟!
قال الأرنب : - من الذى ستعالجين جرحه هذه المرة ؟
قالت الدمية : - سوف أعالج جُرح " ياشار " وسنظل جالسين هنا تحت شجرة السرو.
لم يقل الأرنب شيئاً ، بل قفز وغاب وراء إنحناءات الغابة ، وجمعت الدمية عدة أصناف من أوراق الأشجار والأعشاب ، ثم جلست تحت شجرة السنار، ووضعت حجرا عريضا وأخذت تدق ورق الأشجار والأعشاب .
كانت الدمى الأخرى لاتُشاهد من هذا المكان ، كانت تشاهد فحسب بشكل أو بآخر وسط أعواد الأشجار وأوراقها .
قال " ياشار " : - سيدتى الدمية : أتعرفين الطاووس ؟!!

قالت الدمية : - أعرفه جيداً ، فهو نفاج دائماً ومغرم بالتظاهر.

قال " ياشار " : - أخذتنا الدمية المتحدثة أمامه لكى نتحدث ، ولكنه تحدث عن نفسه طوال الوقت .

قالت الدمية : - لقد أخذتكما الدمية المتحدثة أمامه لكى تريا بأعينكما كيف يكون شكل المتكبرين .

قال " ياشار " : - لقد قلت له أن يعطينى ريشة أو ريشتين من ريشه لأحفظهما فى طيات كتبى ، ولكنه لم يعطنى ، وقال أن ريشاته ليست رخيصة كما أعتقد .

قالت الدمية الكبيرة - والتى كانت لا تزال تدق أوراق الشجر والأعشاب - : إنه يتحدث بلا معنى ، ففى هذه الأيام يتساقط ريشه ، وتستطيع أن تأخذ منه كيفما شئت .

قال " ياشار " : - أحقاً ؟!

قالت الدمية : - فى مثل هذه الأيام من كل عام يتساقط ريش الطاووس .

قال " ياشار ": - تُرى كيف يصير شكله فى ذلك الوقت ؟!!

قالت الدمية : - عبارة عن شئ قبيح ، ومنظر مُنفر ، خاصة وهو لا يستطيع أن يخفى رجليه القبيحتين .

ليالي الغابة المظلمة...
و يراعة الليل المضيئة

بينما كان " ياشار " ينظر فى ظلمة الغابة وقعت عيناه فجأة على ضوء ضعيف يقترب منهما من وسط الأعشاب ببطء شديد ، فقال للدمية : - سيدتى الدمية من أين ينبعث هذا الضوء ؟!!

نظرت الدمية و قالت : - هذه هي اليراعة المضيئة ، إنها فراشة طيبة ، وهى ترسل ضوءاً خافتاً فى الظلام ، وأظن أنها تأتى نحونا ، إنها لا تحب أن تبقى فى الظلام .

إنتظر " ياشار " والدمية حتى وصلت اليراعة وألقت عليهما السلام ، قالت الدمية : - سلاما أيتها اليراعة ، إلى أين تريدين الذهاب ؟

قالت اليراعة : كنت أتجول في الغابة المظلمة ، وعندما سمعت صوتكما قلت لنفسى ، عندى ضوء قليل ، فلماذا لاآتى ؟؟؟

فشكرتها الدمية وأشارت إلى " ياشار " وقالت : - إننى أعد مرهماً لجرح " ياشار " إنه ولد طيب ، فلتتعرفى عليه .

وأخذ " ياشار " واليراعة يتحدثان وقد أخبرها " ياشار " عن المدرسة ونسج السجاد ، وأمه وأبيه . وحدثته هي أيضاً عن الغابة والحيوانات والأشجار وليالى الغابة المظلمة ، بينما أعدت الدمية الكبيرة المرهم وجهزته ، ثم ذهبت بعد

ذلك إلى إحدى الأشجار الضخمة وقطعت إحدى ثمارها وأحضرتها ، ثم عصرت الثمرة وأخذت ماءها وغسلت به جرح " ياشار " ونظفته .

أي نور ولو كان ضئيلاً ...

فهو أيضاً نور ...

رقع فوق ركبة " ياشار " :

بعد عدة دقائق وصل الأرنب ، وكان يمسك بين أسنانه ورقتين ناعمتين عريضتين ، فأعطاهما للدمية ، وعندما رأى اليراعة سلم عليها وقال : - يا له من مجلس ودى عجيب .

قالت اليراعة المضيئة : - يا رفيقى الأرنب : أنا دائما أسعى لإضاءة مجلس الآخرين المظلم ، إننى أضيء الغابة ، ومع ذلك هناك بعض الحيوانات فى الغابة يسخرون منى ويقولون : أيكون الربيع بوردة واحدة ، فأنت تسعين بلافائدة ، كيف بنورك الضئيل تضيئين الغابة المظلمة ؟

قال الأرنب : - هذا كلام القدماء ، ولكن نحن نقول : إن أى نور مهما كان ضئيلا، فإنه يضيء أيضاً .

دهنت الدمية الجرح بالمرهم ، ووضعت عليه ورقة الشجرة ، وسألها الأرنب : - سيدتى الدمية : هل تحتاجيننى مرة أخرى ؟

قالت الدمية:- لى طلب واحد عندك ، ذلك الطاووس الجالس على شجرة لسان العصفوربجوار البركة ، فى هذه الأيام يتساقط ريشه ، فلتذهب وتصنع معه أى شئ ليهتز فتسقط منه ريشة أو ريشتان وعندئذ خذها وأحضرها لنعطلها ل"ياشار"،فإنه يرغب فى وضعها بين طيات كتبه.
ذهب الأرنب ، وقالت اليراعة : هل هو نفس الطاووس المغرور ؟
قالت الدمية : - نعم !!
وقال " ياشار " : - نعم ، إنه يدل بريشه جداً .
قالت اليراعة : يا رفيقى " ياشار " أنظر للسيدة الدمية : إنها ترتدى ثياباً ملونة ، كم هي جميلة !! إنها أجمل من الطاووس ، ولكن ليس لديها ذرة واحدة من غرور أو تكبر ، لذلك فإنها إذا خلعت ملابسها ، وألقت بها بعيداً سنظل نحبها أيضاً ، كما انها لن تصبح قبيحة المنظر ، فهى بثيابها مثلما هي بدونها .
لم تكن الظلمة دامسة وسط الأشجار ، وأخذ " ياشار " يتحسس الرقعة الموجودة على ركبته ، ثم نظر لأكمامه الممزقة،وقدميه الحافيتين وكعبيه المتشققين،ولم يقل شيئا.
قالت الدمية : - " ياشار " ، لا تعتقد أننى مثل الطاووس أسيرة لثيابى الملونة ، فقد ألبسونى إياها في البيت ، فأنا أعيش فى بيت أناس أغنياء والدمية المتحدثة تعرف بيتنا جيداً .

وقطعت الدمية قطعة من طرف قميصها وربطت بها يد " ياشار " ، وعندما نهضوا لكى يذهبوا ، قالت اليراعة : - سأبقى هنا حتى يعود صديقنا الأرنب ، لأرسله وراءكما .

كانت الدمية و " ياشار " لا يزالان فى وسط الأشجار ، حتى وصل إليهما الأرنب، وكان فى فمه ريشتان جميلتان للطاووس ، فأخذ " ياشار " الريشتين ومضوا فى طريقهم.

أجمل رقصات العالم :

كانت " سارة " كبيرة الدمى تتحدث بجوار البركة ، والدمى الأخرى صامتة منصته ، وكانت " أولدوز " تقف فى أحد الأركان .

وكانت " سارة " تقول : - لن أزعجكم أكثر من ذلك ، وسوف نرى بعضنا مرة أخرى فى الخلوة الصغيرة ، وفى نهاية حديثى أوجه شكرى مرة أخرى للضيفين العزيزين ، لأنهما استطاعا بعطفهما وإخلاصهما أن يجعلا دميتهما تتحدث ، فجميعنا نعرف أنه لا يوجد طفل حتى الآن استطاع بسلوكه الحسن أن يجعل دميته تتكلم ، لذا أتمنى أن تدوم صداقة " أولدوز " و " ياشار " ودميتهما ، والآن ترحيباً وافتخاراً بضيوفنا الأعزاء ، فلنرقص رقصة الوردة الحمراء .

صفـق الجميـع لـ " سـارة " وتفرقـوا ، وأجلسـت الدميـة المتحدثة الأطفـال على صخـرة مرتفعـة وقـالت : - إجلسـا هنـا وتفرجـا علـى رقصـة الـوردة الحمـراء ، أفضـل رقصـات الدنيا .

رقصة الوردة الحمراء

نشيد الوردة الحمراء :

خـلا الميـدان للحظـة، وكـانت الحيوانـات ملتفـة حـول الأشجار والطيور من فـوق الأشـجار، ولم يكـن هنـاك شئ يشاهد أكثر من ذلك . ثم انبعث صوت الموسيقى الحالمة الجميلة ، ودخلـت الميدان عشرة أو عشرون دميـة ترتديـن الملابس البنفسجية وتعزفن ، ومشين ببطء شديد ، ثم وقفن فـى زاويـة ، بعـد ذلك طفـا مـن قـاع البركـة قـارب أبيـض عجيب بلون الثلج ، يهتز على أنغام الموسيقى وهو يتقدم ، وكـانت دمى كثيرة ذات ثياب بيضـاء تقفن فى صمت على القـارب ، وصوت خرير الماء ينبعث من البركـة كـالهمس ، وكـان الكثير من البط والبجع يتجمع أمـام القـارب وخلفـه ويدفعونـه ، وكذلـك الأسمـاك الحمـراء الصغـيرة والكبـيرة كانت تلتف حول الدمى البيضـاء وهى تنزلق إلى الأمـام ، وكـان ضوء القمر منعكساً فى المـاء ، وعندما وصل القـارب إلى حافـة المـاء ، نزلـت الدمـى البيضـاء علـى الأرض وهـن

يرقصن ، واصطف البط والبجع والأسماك على حافة الماء ، وأخذت الدمى تهز أجسادها وأيديها ، وترقص بهدوء ، وكانت أذيال قمصانها تصل إلى الأرض ، وهن يرقصن ، وتقترب كل منهن من الأخرى ، ويبتسمن ، وكنَّ يرقصن اثنتين اثنيتن، وثلاثة ثلاثة ، وبدأت واحدة أو اثنتان في الغناء ، وبعد قليل إلتحقت الأخريات بهن ، وملأت الموسيقى والألحان فضاء الغابة .

وأخذت العرائس تغنى هكذا :

كان ياما كان

على حافة هذه المياه الزرقاء

نبتت وردة حمراء

كبيرة

جميلة

كثيرة الأوراق

وهبت الريح

تساقطت الأمطار

حلت العاصفة الثلجية

هبت العاصفة

اقتلعت الوردة الحمراء من مكانها

تساقطت أوراقها

اين ذهبت ؟!!

ماذا فعلوا بها ؟!!

هل هي حية ؟!! هل هي ميتة ؟!!
لا أحد يعرف !!!
وآسفاه !! كم كانت وردة ... وردة حمراء جميلة ...
تجمعت الدمى البيضاء مغنيات وراقصات ، ووقفن بجوار الدمى البنفسجية ، وبعد قليل ظهرت دمية صغيرة حمراء من خلف الأشجار وأخذت ترقص .
بدأت الدمى البيضاء بالغناء :
نحن نعرفها
أوراق الوردة الحمراء
من أين تأتى ؟
إلى أين تذهب ؟
لا أحد يعرف !!
أخذت الدمية تتجول هنا وهناك ، ثم خرجت من زاوية أخرى ، بعد ذلك دخلت دمية حمراء أخرى .
وعاودت الدمى البيضاء الغناء :
ورقة حمراء أخرى
من أين أتت ؟
إلى أين تذهب ؟
لا أحد يعرف !!
وأخذت الدمية الحمراء تتجول قليلاً هنا وهناك ، وأرادت الخروج من الزاوية، ولكنها اصطدمت بدمية حمراء أخرى . وأخذتا كل منهما تنظر إلى الأخرى للحظة ، ثم

أمسكت كل منهما بيد الأخرى ، وأخذتا ترقصان بأقصى سرعة وبفرحة ، رقصتا لفترة قصيرة ، ثم لحقت بهما دمية حمراء أخرى ، ثم أخرى، وأخرى ، حتى دخلت مئات الدمى الكبيرة والصغيرة الحمراء في الرقصة ، وأخذن يشكلن حلقة كل مجموعة على حدة ، وشرعن في الرقص .
إزداد الرقص سرعة وبهجة ، وكان القمر بدراً فوق رؤوسهن تماماً ، في الوقت الذى خمدت فيه النار.
صار صوت الموسيقى أكثر إرتفاعاً ، وتركت الدمى أيدى بعضهن ، وتفرقن ثم اختلطن ، وتجمعن على حافة البركة .
كانت " أولدوز " و " ياشار " مازالا جالسين على الحجر، وكانا مشدوهين من رقص الدمى لدرجة لا يمكن وصفها ، حتى أنه كان قد نسى ريش الطاووس ، وفجأة رأيا وردة حمراء نمت على حافة البركة ، وكانت كبيرة ، جميلة كثيرة الأوراق ، وبدأت تتمايل وترقص ، ثم تحركت الدمى البيضاء والتفت حول الوردة الحمراء ، وشرعت هي الأخرى في الرقص والتمايل .
وأخذت نغمات الرقص تزداد حدة وسرعة شيئاً فشيئاً ، ومن شدة انفعال الطفلين بالرقص نهضا وأمسكا بأيدى بعضهما البعض ، وقاما واندسا في وسط الدمى، واندمجت معهما أيضا الحيوانات والطيور والأشجار.
وأخذت الدمى ترقص وترقص ، ولما حان الوقت تفرقن

جميعاً ، وعاد الميدان خالياً ، وبعد لحظة ظهرت الدمى بملابسها الأولى .
وحان وقت الذهاب ، وبدأ ضوء القمر يتلاشى قليلاً قليلاً .

ذهاب ومجئ الحمام

اللغز الذى لا تستطيع زوجة الأب حله :

كان الفجر على وشك البزوغ ، فتحت زوجة الأب عينيها ، فرأت ثلاث حمامات يجلسن على شجرة التوت ، وكانت كل منهن تنظر للأخرى ، ثم طارت إحداهن ، وذهبت إلى بيت " ياشار " وخلت الإثنتان الأخريان من النافذة . وظلت زوجة الأب تنتظر خروجهما ، ولكنهما لم يخرجا ، فطار النوم من عينيها، ونهضت وذهبت لتنظر من النافذة فرأت " أولدوز " ودميتها نائمتين ولا يوجد شئ آخر فى الحجرة، فتعجبت تعجباً شديداً وانتابها الخوف لدرجة أنها لم تستطع دخول الحجرة، ووقفت لعدة دقائق . وبعد ذلك دخلت تحت غطائها وهى حائرة، وكانت عينها مثبتتين على النافذة ، وأذنها كانت تتصنت . وبعد قليل وصل إلى أذنها صوت غريب ينبعث من الحجرة ، وبعد ذلك أجاب هذا الصوت صوت آخر همسا، وكأن هناك شخصين يتحدثان . وأخذ العرق يتصبب من زوجة الأب خوفاً، فثبتت عينها على النافذة ، ووصل همس شخص فى

أذنها مرة أخرى ، وفى هذه المرة سمعت زوجة الأب اسمها يتردد ، فازداد خوفها ، وأيقظت زوجها ، وقالت له : - إنهض ، وانظر ماذا فى الغرفة ، فإننى خائفة !!

قال الأب : - نامى يا إمرأة .. من يأتى فى الصباح ليسرق من بيوت الناس ؟

قالت زوجة الأب : - إنه ليس لصاً ، إنه شئ آخر ، فهناك حمامتان قد دخلتا الغرفة، ولم تخرجا بعد !!

ونهض الأب من أجل زوجته وذهب ، ونظر من النافذة فرأى " أولدوز" نائمة وتحتضن دميتها ، فعاد إلى زوجته وقال : - أرأيت يا إمرأة ؟ ماذا أصاب عقلك حتى ترى الحمام فى الحلم ، إنهضى وأشعلى السماور ،وأبعدى هذه الأفكار الصبيانية عن رأسك .

فنهضت زوجة الأب ، وذهبت إلى المطبخ لتشعل النار وذهب الأب إلى الخلاء وأخذ معه الإبريق ، وكانت "برى" لا تزال نائمة ، ولو أنها كانت مستيقظة لكانت قد رأت حمامة بيضاء وهى تطير من بيت " ياشار" وتدخل من نافذة بيتهم ، وبعد ذلك ازداد الهمس ارتفاعاً .

وكانت زوجة الأب تمسك بيدها منقدا ، وأخذت تعبر الدهليز ولكنها سمعت صوت الحديث : قال صوت : إنهضى أيتها الدمية المتحدثة ، وإخلعى عنى جلد الحمام ثم عاودى النوم .

قال صوت آخر : - حسناً فعلت بمجيئك لأننى كنت قد نسيت أنك ذهبت إلى بيتك وأنت داخل جلد الحمام ، تعالى لأخرجك من جلدك .
قال الصوت الأول : لابد أن نذهب إلى بيتنا ... فهنا لا ينفع
قال الصوت الثانى : - نعم ، طرّ واذهب ، فلا يجب أن يراك أحد هنا .
وكادت زوجة الأب أن تجن ، وصرخت من الخوف ، وأسرعت إلى الفناء ، وكان الأب جالسا على حافة الحوض يغسل يديه ووجهه فرأى حمامتين بيضاوين ناشرتين أجنحتهما ، تطيران خارجتين من النافذة ، وأخذتا تطيران هنا وهناك قليلاً ، ثم حطتا فى فناء البيت المجاور من جهة اليسار. وأخذ الأب ينظرإلى الحمام وقال لزوجته : لماذا لم تكفى عن مثل هذه الحركات الجنونية ؟ ألم تكونى خائفة من الحمامتين ؟ هاهما قد طارتا وذهبتا.
استيقظت " برى " على الضوضاء وجلست ، وكانت زوجة الأب تقف بجوار الحائط ، تدور كاللهب ، وقالت : - إنهم أيضاً كانوا يتحدثون ، إنهما من الجان .
كانت " برى " تقف حائرة ، وكان الأب وزوجته يتشاجران، فلم يلتفتا إلى أن هناك حمامة بيضاء تختفى خلف سياج السطح ، وتريد أن تدخل خفية ، كانت هذه الحمامة هي الدمية المتحدثة نفسها ، وكانت عائدة من عند " ياشار " ، وعندما رأت إنه ليس هنا أحد يراها

دخلت من النافذة . وعندما رفعت زوجة الأب رأسها على صوت حركة جناح الحمامة رأتها فصرخت وصاحت قائلة : - أنظر! هذه واحدة أخرى دلفت إلى الداخل .
جرى الأب صوب النافذة فرأى الحمامة تدخل المخزن ، فذهب الأب بنفسه إلى المخزن ولكنه لم ير شيئاً ، فوقف مذهولاً لا يتحرك لأنه لا يعرف أين اختبأت هذه الحمامة الملعونة !! وفجأة وقعت عيناه على الدمية المتحدثة واقفة خلف الباب .
كانت " أولدوز" لا تزال نائمة ، وكأنها لم تنم منذ عدة أيام ، ولذلك لم يكن يبدو عليها أنها تريد أن تستيقظ ، نظر لها الأب ورفع الغطاء عنها فوجدها بمفردها ، وداهمته فكرة : فمن الذى حمل الدمية ووضعها فى المخزن وراء الباب ؟! وكانت " برى " وزوجة الأب واقفتين أمام النافذة تحملقان فى الأب . قالت زوجة الأب : - ماذا حدث لدمية البنت ؟ فعندما جئت كانت بجوارها .
قال الأب : - إنها فى المخزن ، ولايوجد حمام أيضاً .
قالت زوجة الأب : - على ما أعتقد أن هذه الدمية بها شئ ، أخشى أن تكون سبباً فى بلايا تحل بنا .
وقرأت زوجة الأب الأدعية وعوذّت نفسها ، وبعد ذلك قالت : - الآن ! أيقظ هذه البنت !!
هز الأب بطرف رجله " أولدوز" وقال : - انهضى يا بنت

"ياشار" كان قد صار مشمولا ببركة الأئمة :

عادت أم " ياشار" ظهرا لبيتها ، فرأت " ياشار" لا يزال نائما . وكانت كلثوم منذ الصباح وحتى الظهر عند زوجة أب " أولدوز" ، تغسل الملابس وتنظف المكان من لحم البقرة العفن ، وحملته وألقت به إلى كلاب الطريق .

كان الجو حارا ، وكان " ياشار" يتصبب عرقا ، لذلك ألقى بغطائه بعيدا ، وكان ينام على جانبه الأيسر وقد رفع بركبته حتى بطنه . ونظرت أمه إليه فرأت أن قطعة القماش التى ربط بها جرحه قد تبدلت ، فلم تكن هي نفس القطعة التى ربطت بها الجرح، لقد كانت قطعة قماش حريرية زرقاء اللون ، هزت " ياشار" ففتح عينيه وقال : - يا أمى ! اتركينى أنام قليلاً

قالت أمه : - إنهض يا بنى ، فقد صار الوقت ظهراً ، منذ متى وأنت كسول هكذا ؟ من أين أحضرت قطعة القماش الزرقاء هذه وربطت بها جرحك .

نظر " ياشار" بتركيز شديد لإبهامه ، وفجأة تذكر كل شئ وظل - للحظة - حائرا مترددا ، وجلست أمه أعلى رأسه ، وأخذت تجفف عرقه بعباءتها وقالت : - لم تقل يا بنى من أين أتيت بقطعة القماش النظيفة هذه ؟

قال " ياشار" : - رأيت فى الحلم أن رجلا نورانيا جاء وجلس بجانبى وقال لى : - يا بنى ! أتريد أن أشفى جرحك؟ قلت : - ولم لا أريد يا سيدى ! فأخرج الرجل النورانى مرهما من جيبه وربط جرحى مرة اخرى وقال

لى:- عندما تستيقظ ستجد أن جرحك قد تحسن .
صمت " ياشار " برهة ، ثم قال مرة أخرى : - لقد كان رجلا طيبا جدا ، ولم أستطع أن أصف لكِ كم كان نورانيا ، فعندما ربط جرحي قال لى : - أنظر ما الذى يقف خلف رأسك ، فنظرت خلفى ولم أر شيئاً وعندما أدرت رأسى للأمام لم أر شيئا ، كان الرجل قد إختفى .
اخذت أم " ياشار " تنظر إليه وهى حائرة ، وكانت تجلس صامتة ، فخاف " ياشار " فى بادئ الأمر، لكنه بعد ذلك فهم أنها اقتنعت بكلامه .
قالت أمه : - أقلت أن وجهه كان نورانياً ؟!
قال " ياشار " : - نعم يا أمى ! مثل نفس اليوم الذى قلتِ أنه قد جاء لجدتى فى الحلم وأبرأ قدمها المشلولة . أنظرى! لم يعد جرحي يؤلمنى مرة أخرى .
غلب البكاء أم " ياشار " فأخذت تبكى سروراً وحنيناً . واحتضنت إبنها ، وقبلت رأسه ووجهه وقالت : - لقد صرتِ مشمولاً ببركة الأئمة يا بنى ، إنهم سعداء بك ، مسرورون منك ، آه لو يعرف أبوك ، أقلت إن إصبعك لم يعد يؤلمك ؟!!
قال " ياشار " : - أصبح مثل الأصابع الأخرى ، وأستطيع ان أعمل مرة أخرى من الغد .
رفع " ياشار " الرباط من جرحه ، ورفع ورق الشجر ومرهم العشب وأراه لأمه ، وكان مكان الجرح أبيض وليس به أى

صديد أو تلوث ، ثم ربط الجرح مرة أخرى ولملم " ياشار " غطاءه وحشيته ووسادته ووضعهم فى أماكنهم وقال : -
الجو اليوم حار يا أمى ، فلننم اليوم فوق السطح .
بهتت أمه ، ولم تقل شيئا ، فتركها " ياشار " وذهب إلى الفناء ليغسل يديه ووجهه . ودخلت " كلثوم " إلى الغرفة ، وأخذت تقرأ الدعاء وتشكر ربها ، وتذكر " ياشار " لتوه أنه نسى ريش الطاووس فى الغابة .

النمل الفارسي :

كان " ياشار " يقف على حافة البركة يقضى حاجته ، فوقعت عيناه على كارع البقرة ملقاة بجوار الحائط ، وكانت هناك قطة سوداء تتشمم في الأرض ، لم يفهم " ياشار " شيئا من وجود كارع البقرة ، ولكنه سرعان ما تذكر ما قالته " أولدوز " والدمية له بالأمس .
بالأمس عندما عادوا من الغابة كانت " أولدوز " قد قالت له : - ستأتى أمك فى الصباح إلى منزلنا ، وسوف أرسل معها كارع البقرة فلتحافظ عليها جيداً .
فقال لها " ياشار " : - ولماذا أحافظ عليها ؟!
فأجابته الدمية : هذه البقرة لم تكن عادية ، فلتحافظ على كارعها ، إنها من الممكن أن تنفعنا ، فعندما نصادف مشكلة نستطيع أن نطلب منها المساعدة .
وأثناء استغراق " ياشار " فى التفكير علا صياح " أولدوز "

وصراخها، وسمعها تقول أثناء صياحها : - لا تفعلى يا أمى !! لن أفعل بعد ذلك ، ساعدينى يا خالتى " برى " !! آه سأموت !

كان " ياشار " يقف على حافة الجدول وهو مذهول ، لايعرف ماذا يجب عليه أن يفعل . فأسرع وتوجه نحو كارع البقرة وحملها وهمس لها قائلاً : ستقتل زوجة الأب " أولدوز " ، ماذا نفعل الآن ؟

سمع " ياشار " صوتاً ضعيفاً يقوله له : - إلق بى فوق السطح ، وانتبه للقطة السوداء .

ضرب " ياشار " القطة السوداء وأبعدها عن البيت ثم ألقى بكارع البقرة على السطح ، فأحدثت صوتاً عند ارتطامها بالسطح ، فصاحت أمه من الغرفة قائلة : - " ياشار " ! ما الذى ارتطم بالسطح الآن ؟

قال " ياشار " : - لا شئ ! كارع البقرة التى كنتِ قد أحضرتها لى ، ألقيت بها فوق السطح ليتيبس

قالت أمه : أهى التى أعطتها لى " أولدوز " ، ليس واضحا ماذا تريد أن تفعل بكارع البقرة ؟!

قال " ياشار " : - يا أمى ! أظن أن زوجة الأب تضرب " أولدوز " أليس من الأفضل أن تطلى عليهم !!

قالت أمه : - الموضوع لا يخصنا يا بنى ، فكل شخص يعرف مصلحته أكثر من الآخرين .

قال " ياشار " : - فى النهاية يا أمى !!!

قالت أمه : - أسرع واغسل يديك ووجهك ، وتعال لتناول الغداء .

لم يتلكأ " ياشار " بل صعد على السلم الموصل للسطح ، فقال له كارع البقرة : - لقد أرسلت عشرة أو عشرين نملة من أتباعي ليحاسبوا زوجة الأب ، فلتحتط من القطة السوداء ، فأنا أخاف أن تخطفني ذات يوم وتأكلني .

أخذ " ياشار " يتلفت حوله فرأى القطة السوداء تتسلل، فالتقط حجرا وقذفها به ففرت هارية .

أي مذاق للفلفل ؟!

النمل الفارسي يصل لنجدة " أولدوز " :

﴿ الآن نرى ماذا حل بـ " أولدوز " ... فلنعد إلى الوراء قليلا ، ولنذهب إلى " أولدوز " وزوجة أبيها ﴾ .

كان بيت أبى " أولدوز " عبارة عن غرفتين قبليتين ، وممر فى الوسط وغرفة جلوس بها صندرة أيضاً ، وغرفة أخرى للضيوف ، وغرفة استقبال . وكان هناك مطبخ صغير فى نهاية الممر ، وفى الجهة الأخرى من الفناء دورة المياه ، ومكان آخر مثل الغرفة به الفرن ، فوقه أيضاً فتحة بالسقف، وهناك سلم يمر من جانب حجرة الإستقبال ويوصل إلى السطح .

وفى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه أم " ياشار " إلى بيتهم ، كانت زوجة الأب جالسة فى المطبخ تعد لنفسها عجة ، وقد تركت " برى " خلف باب الحجرة لتتلصص على " أولدوز " وتكتشف سرها ، فكانت زوجة الأب قد أحست منذ الصباح أن هناك سراً أكيداً بين " أولدوز " والدمية .

كانت " برى " تقف خلف الباب تتصنت وتراقب " أولدوز " من ثقب الباب ، ولم يكن الأب قد عاد من عمله عندئذ .

وحتى هذه اللحظة لم تكن " أولدوز " قد وجدت فرصة للتحدث مع الدمية ، وكان الأب وزوجته يجتهدان ليجبراها على الكلام ، ولكنهما لم يستطيعا ، وكانت " أولدوز " تتظاهر بأنها لا تعرف ، وعندما اطمأن قلبها بأنه ليس هناك أحد يراها ، ذهبت إلى دميتها وقالت لها:- أصبحت زوجة أبى عيناً ترى وأذناً تسمع فقط ، وأتصور أنها قد عرفت قصتنا .

قالت الدمية المتحدثة : - من الأفضل أن نبتعد عن بعضنا لعدة أيام .

قالت " أولدوز " : - خالتى " برى " ليست سيئة ، أما زوجة أبى أعوذ بالله منها ! فإنها إذا عرفت أن لدى دمية تتكلم ، فإنها لن تصبر ولو حتى دقيقة واحدة ، فسوف تشعل الفرن ، وتلقى بك داخل النار ، فتحترقين وتصبحين رماداً .

أثناء المحادثة نهضت " برى " وذهبت إلى زوجة الأب وأخبرتها ، فألقت زوجة
الأب بالجاروف الذى كان فى يدها ، ووقفت خلف الباب ولكن الصوت انقطع ، فرأت " أولدوز " من ثقب باب المخزن - الذى - أحكمت " أولدوز " غلقه وقد ذهبت وجلست بجوار الحائط ، وأخذت تعد أصابعها وتلهو بها ، وفتحت زوجة الأب الباب وقالت لها : - مع من كنتِ تتحدثين ؟ قولى بسرعة ؟ وإلا وخزت يدك بالإبرة ، يا قليلة الحياء!!

خافت " أولدوز " ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها أخذت تتلعثم من شدة الخوف ، فسحبت زوجة الأب إبرة من ياقتها ووخزت " أولدوز " فى يدها ، فأخذت " أولدوز " تصرخ وتبكى ، وكررت زوجة الأب نفس العمل ، وحاولت " أولدوز " أن تخلص نفسها ، ولكن " برى " أمسكت بها وأوقفتها أمام زوجة الأب التى أخذت توخز يدها الأخرى وتقول لها : - الآن لا تستطعين الكذب ... فأنا لست أباك الذى تستطعين الضحك عليه فقولى ما هي حكاية دميتك الممسوخة تلك ؟ أتقولين ؟ أم أملأ فمك بالفلفل ؟!

قالت " أولدوز " وهى تبكى : - أنا لا أعرف شيئاً يا أمى ... لا أعرف شيئاً ؟!

التفتت زوجة الأب إلى " برى " وقالت لها : - برى !! إذهبى واحضرى زجاجة الفلفل بسرعة ، الفلفل يستطيع

جيداً أن يجعل هذه تتحدث .
أسرعت " برى " وأحضرت زجاجة الفلفل ، ووضعت زوجة الأب مقداراً من الفلفل بكف يدها ، وأرادت أن تمسك بـ " أولدوز " ولكنها فرت من يديها واحتمت بجوار الحائط ، فقالت زوجة الأب لـ " برى " : - تعالى وامسكى يديها لابد أن أعرفها اليوم ما معنى زوجة الأب .
طرحت " برى " وزوجة الأب " أولدوز " على ظهرها ، وجلست زوجة الأب على رجليها ، و" برى " أعلى رأسها ، وأمسكت يدى " أولدوز " بإحكام ، ثم فتحت زوجة الأب فم " أولدوز " وأرادت أن تضع الفلفل في فمها ، فعلا صياح اولدوز، وأخذت تبكى حتى أن بكاءها وصل إلى البيوت المجاورة وأخذت " أولدوز " تصيح وتقول: - تبْت ، ساعدينى يا خالتى " برى " !!
ولم تقل " برى " شيئاً ، وقالت زوجة الأب : - ما لم تقولى الصدق ، فلن تستطيعى أن تخرجى سالمة من يدى .
قالت " أولدوز " باكية : - أنا لا أعرف شيئاً ! اتركونى ... آه سأموت .
حاولت " أولدوز " تخليص نفسها ، ولكن زوجة الأب ملأت فمها بالفلفل وقالت : - الآن كلى الفلفل ، وأنظرى أى مذاق له .
أصاب " أولدوز " سعال فبصقت فى وجه زوجة الأب ، فدخل الفلفل في عينها ، وفزعت " برى " ونهضت من

مكانها ، ووضعت يدها على قفاها ، فقد لدغتها نملة فارسية بكل قوتها ، ولدغت نملة أخرى قدم زوجة الأب ، وثالثة لدغت ساعد " برى " ورابعة لدغت ظهر زوجة الأب ، فهرعت الإثنتان إلى الفناء بعد أن سحقتا النمل بأحذيتهما ، ولكن مكان لدغة النمل ظل يؤلمهما حتى أن " برى " أخذت تبكى بحرقة ، وكانت " أولدوز " ملقاة على وجهها فى وسط الغرفة وهى تضع يدها على فمها وتتألم .
وانبعثت رائحة احتراق الطعام من المطبخ .

ضيوف زوجة الأب و " برى " :

كان المغرب على الأبواب ، وكان " ياشار " قد ترك مكانه فوق السطح ، ثم جاء وجلس على حافته ، وأرجله تتدلى ، وأخذ يشاهد غروب الشمس ، الشمس الذهبية والألوان المتداخلة فى الأفق ، والسحب التى تبدو وكأنها مشاعل للغروب ، كانت تبدو له دائماً جميلة ، وحل الليل ، وسطعت النجوم ، وتناثرت هنا وهناك ، وبدأت تشع بنورها وتتلألأ وتومض .
وفزعه صوت " برى " من مكانه ، وكانت " برى " تقف أمام النافذة وتقول لأمه : - كلثوم ، انهضى وتعالى لبيتنا ، فلك رسالة من زوجك .
بعد دقائق كان " ياشار " وأمه جالسين عند أبى " أولدوز " وكانت عيونهم مركزة على فمه، وكانت " برى " وزوجة

الأب أيضاً فى الغرفة ، ولم تكن " أولدوز " موجودة .
كان أبو " ياشار " قد أرسل الرسالة على عنوان أبى " أولدوز " وكان قد كتب فى الرسالة أنه متوعك ، ولا يستطيع مواصلة العمل ، وسيعود خلال أيام إلى زوجته وطفله .
وفى نهاية قراءة الرسالة دق الباب - فقد أتى بعض الضيوف - كان أخو زوجة الأب وزوجته ، وابنهما الصغير " بهرام " قد أتوا من مكان بعيد . وجلسوا ، ودار بينهم أطراف الحديث ، وأبقت زوجة الأب " كلثوم " معها لتعد العشاء .
كان " ياشار " أحياناً يذهب إلى أمه فى المطبخ ، وأحياناً أخرى يجلس أسفل النافذة . ولكن لم يكن لديه ما يقول . ومما لا شك فيه أنه لديه كلام كثير ، أما الرغبة فى القول فليست لديه ، وكان يتمنى ألا يكونون فى حاجة إليه ويتركونه يذهب إلى " أولدوز " .
وأثناء الكلام والضحك إلتفتت زوجة الأخ إلى زوجة الأب وقالت لها : - جئنا لنأخذك أنت و " برى " فلنتحرك فى الصباح !
قالت زوجة الأب : - هل عاد خطيب " برى " ؟
أجابت زوجة الأخ : - نعم ، وزفافها غداً
وفى ذلك الوقت نظرت زوجة الأخ إلى " برى " وضحكت .

هل سيأتي اليوم الذي يعرف فيه أحد ماذا فعلت زوجة الأب بـ " أولدوز " ؟!!

بعد أن تناولوا العشاء نهضت زوجة الأب ، وبدأت في جمع حاجيات السفر من ملابس وأشياء أخرى كانت تلزمها ، ولما فتح باب المخزن وقعت عينا " ياشار " على " أولدوز " التى كانت نائمة على ظهرها ، وكانوا قد ربطوا فمها بقطعة من القماش .

قالت أم " ياشار " : - ماذا حل بهذه البنت ؟ إنها لم تتناول العشاء أيضاً .

قالت زوجة الأب : إنها مريضة ، ومن الأفضل ألا تتناول شيئاً .

قالت كلثوم : - ماذا بها ؟

قالت زوجة الأب : - إن فمها ملتهب .

كانت كلثوم و زوجة الأب تتحدثان في المخزن ، وكان أخو زوجة الأب جالساً بجوار باب المخزن ، فسمع كلامهما ، وكان الباب مفتوحاً إلى نصفه ، فرأى " أولدوز " فالتفت إلى الأب وقالت : - مازالت هذه البنت لديكم ! كنت أظن...

فقاطعه الأب قائلاً : نعم ، مازالت عندنا إلى الآن !

نظر الأخ إلى زوجته ونظرت هي الأخرى إليه ولم يقولا شيئاً .

من الذى يخاف من الظلمة ؟

كيف يكون الليل فوق السطح !

حل الليل ، وكانت كلثوم تغسل الأوانى فى المطبخ ، وكان الآخرون يتحدثون ، فقال " بهرام " لأمه : - أمى ! أريد أن أقضى حاجة .

أجابته أمه قائلة : - إذهب بمفردك يا عزيزى .

قال بهرام : - لا ، إنى خائف .

إلتفتت زوجة الأب إلى " ياشار " وقالت له : - إنهض واذهب مع بهرام

كان " ياشار " نفسه يريد أن يقضى حاجته ولكن كسله كان قد ألصقه بمكانه وجعله لا يستطيع أن ينهض ويذهب ليقضى حاجته ، ونهض الإثنان وخرجا ، ووقفا على حافة الجدول يقضيان حاجتهما ، وقال " بهرام " : - أتذهب أنت أيضاً إلى المدرسة ؟ أنا فى الصف الرابع

قال " ياشار " : - وأنا أيضاً .

وعاد الصمت مرة أخرى، إذ لم يكن لدى " ياشار " الرغبة فى الكلام ، ثم قال بهرام : - أنا التلميذ الأول على الفصل ، وقد قال أبى أنه سيشترى لى دراجة ، وأنت كيف حالك ؟

قال " ياشار " : - أنا .. لا !

وعندما أراد العودة وقعت عينا " بهرام " على الدرج ، فسأل: - لماذا هذا الدرج ؟

قال " ياشار " : - إنه يؤدى إلى السطح ، أترغب فى الصعود إلى أعلى لتنظر ؟
قال بهرام : - أنا أخاف من الظلام ، فلنذهب إلى الداخل.
قال " ياشار " : - سأصعد أنا أولاً ، ثم اتبعنى .
وقف بهرام متحيراً وقال : - ألا تخاف من الظلمة ؟!
قال " ياشار " : - لا ... فأنا أنام بمفردى ليلاً فوق السطح ولا أخاف .
قال بهرام : - كيف يكون الليل فوق السطح ؟!!
قال " ياشار " : - إذا صعدت للسطح ، سترى بنفسك .
قال " ياشار " هذا وكانت قدمه على الدرج ، وسريعاً صعدإلى أعلى ، ووقف بهرام قليلاً وهو حائر ، ثم أخذ يصعد ببطء شديد ، وأخذ " ياشار " بيده وأتى به إلى وسط السطح ، كانت النجوم ساطعة ومتلألئة ، وعددها كان يبلغ ملايين الملايين لدرجة أنه لم يكن هناك شبر خالٍ فى السماء .
قال " ياشار " : - أترى ؟
وهبط نجم إلى ما فوق رأسيهما وصنع قوساً بالسماء ، ثم وقع إلى أسفل ، وانفجر نجم آخر بعيداً عنهم ، وأخذت الكلاب تنبح فى سكون الليل ، ثم ابتعدت ، وكان هناك فراشة تمضى نحو رأس الحارة ، ومر خفاش - سريعا - من أمامهما واصطاد الفراشة وتاه فى الظلام ، وهبط نجم

آخر كان يتبعه خط مضىء ، ورائحة الحظيرة تهب من عدة بيوت .
وأشار " ياشار " إلى طريق مكة فوق رأسيهما وقال : - أترى هذا الضوء العريض المرسوم فى السماء ؟!
قال بهرام : - نعم
قال " ياشار " : - إنهم يطلقون عليه طريق مكة .
قال بهرام : هل الحجاج يذهبون إلى مكة من هذا الطريق؟
ضحك " ياشار " وقال : - لا يا أخى إن الجهلاء هم الذين يطلقون عليه طريق مكة ، فهذه النجوم الصغيرة والكبيرة المتراصة بجانب بعضها لا تتخيل أنها ملتصقة ببعضها ، فبينها مسافات بعيدة وشكلها يبدو هكذا من بعيد .
قال بهرام : - لكن لماذا يطلق الناس عليه طريق مكة ؟
قال " ياشار " : - من المعروف أن القدامى لم يكن لديهم علم ، ولذلك فقد كانوا يحيكون الخرافات حول الأشياء التى لا يعرفونها ، وهذه أيضاً إحدى الخرافات .
قال بهرام بتردد : - ألا تختلق هذا الكلام ؟!
قال " ياشار " : - لقد تعلمته من مدرسنا ، ألم يقل لكم معلمكم مثل هذا الكلام ؟
قال بهرام : - لا ، نحن نقرأ درسنا فقط .
قال " ياشار " : - أليس هذا الكلام درساً ؟
وكان هناك نجم يتلألأ فى أحد أركان السماء ، ويتقدم

بسرعة ، فقال بهرام دون أن يجيب عليه " ياشار " : - أنظر إلى ذلك النجم ، إلى أين هو ذاهب ؟

قال " ياشار " : - هذا ليس بنجم ، إنه قمر صناعى أرسلوه من الأرض إلى السماء .

قال بهرام : - إلى أين هو ذاهب ؟

قال " ياشار " : - يظل يدور حول الأرض هكذا .

قال بهرام : - لا تخدعنى ، أنت تختلق هذا الكلام .

قال " ياشار " : - هل أختلق الكلام ؟ لقد قاله المعلم لنا ، تستطيع أنت أيضاً أن تسأل معلمك .

قال بهرام : - معلمنا لا يقول مثل هذه الأشياء .

قال " ياشار " : - لابد أنه لا يعرفها ليقولها .

قال بهرام : - لا ، معلمنا يعرف كل شئ - هو يقول ذلك - إنك تكذب .

وبينما كان سوق الكلام يحتد ،إرتفع فجأة صوت زوجة الأب من الفناء قائلة : أين أنت يا بهرام ؟

فقفز الطفلان من مكانهما ، وتذكر بهرام مرة أخرى ظلمة الليل ، وأراد أن يبكى ، فأخذ " ياشار " يده وقال له : لاتخف يا ولد ، فأنا واقف بجوارك .

عرفت زوجة الأب صوت " ياشار " وصاحت قائلة : - ياعجل ! لماذا أخذت الطفل فوق السطح ؟

ثم صعدت فوق السطح سريعاً ولم تتلكأ وأخذت بهرام من يد"ياشار"،وأنزلته وقالت له:فلتذهب إلى الجحيم يامتشرد

فقال لها " ياشار " : يا فاجـرة
فاستشاطت زوجة الأب غضبـاً ، وصفعـت " ياشـار " على وجهه صفعة شديدة ، ثم أخذت بهرام من يده ونزلا . وقف " ياشار " لحظة وكاد ينفجر من شدة الغيظ وأخذ يبكى ، وعاد إلى سطح بيتهم ، وألقى بنفسه وتمدد على وجهه فى فراشه .

القطة فعلت ما تريد :

استيقظ " ياشـار " فـى الصبـاح علـى جلبـة المسـافرين ، وكانت الشمس قد سطعت
وراء السطح بحرارة مقبولة ، وكانت أمه قد حملت حقيبة زوجة الأب ، وكـانت آخر مـن خـرج مـن البـاب ، وخـلا البيتان فتثاءب " ياشار " ونهض ونزل على الدرج وذهب إلى " أولدوز " وكـانت " أولدوز " قـد رفعت قطعـة القمـاش من على فمها ، وأخـذت تبحـث فـى كـل زوايـا المخـزن وأركانه ، فنـادى عليها " ياشـار " : - " أولـدوز " ، عـن أى شئ تبحثين !؟
رفعت " أولدوز " رأسها وقالت : - أهذا أنت يا " ياشار " ؟
قال " ياشار " : - نعم ! ماذا حل بالدمية ؟
قالت " أولدوز " : - لا أعرف ! لم أجدها .
وأوجزت " أولدوز " لـ " ياشار " ما حدث لها بـالأمس فى عدة كلمـات ، و أيضـاً قص هـو عليها قصة كـارع البقـرة

ونملها ، ثم شرعا فى البحث فى كل مكان ولكنهما لم يجدا شيئا ، قال " ياشار " : - مصيبة أن تكون زوجة الأب قد سرقتها منا !!

قالت " أولدوز " : - ماذا نستطيع أن نفعل ؟

قال " ياشار " : - النمل يستطيع أن يجدها لنا، حتى ولو كانت تحت الأرض فإنه يستطيع إحضارها والإتيان بها .

قالت " أولدوز " : - أسرع وأحضر لنا كارع البقرة .

ذهب " ياشار " مسرعا فرأى القطة السوداء فوق السطح وبين أسنانها شئ ، وتبتعد مسرعة ، نزل " ياشار " وذهب إلى كوخ الكلب الذى في زاوية الفناء ، وكان قد أخفى كارع البقرة هناك ، وكان الكوخ خالياً ، وعاد مسرعاً إلى السطح ولكنه لم يجد القطة السوداء ، فنزل مرة أخرى ، ثم عاود الكرة ، وأخذ يكرر هذا العمل عدة مرات بلا فائدة ، ولم يعرف مطلقاً ماذا يجب عليه أن يفعل . وفى النهاية انتبه على صوت أمه وهى تنادى عليه . وكانت أمه عند حافة الجدول تغسل يدى " أولدوز " ووجهها ، فذهب " ياشار " إليهما فقالت أمه له : - " ياشار " ! إذا كان إصبعك لم يعد يؤلمك فمن الأفضل ان تذهب إلى عملك .

فقال " ياشار " : - ألن تذهبى يا أمى لغسل الملابس ؟

قالت كلثوم : - قال لى أبو " أولدوز " أن أبقى في البيت لرعاية " أولدوز " وأعد الغداء لها أيضاً .

قال " ياشار " : - هل سيأتى أبى اليوم ؟

قالت أمه : - إذا جاء ، سأخبره .

دمية بطول " أولدوز " :

أغنية أطفال النسيج :

وصل أبو" ياشار" بعد يومين أو ثلاثة تقريباً ، وكان مريضاً لدرجة أنه كان ينام من الصباح حتى المساء وهو يتألم ، أحضرت كلثوم و" ياشار" الطبيب له واشتريا له الدواء ، ولذلك لم تستطع أم " ياشار" أن تذهب إلى العمل ومكثت فى البيت لترعى زوجها و" أولدوز"، وأحياناً كانت تصنع دهان الوجه ، وكانت جاراتها يأتين إليها ، ويشترين منها أوتذهب هي لتبيعه فى الحمامات .

كان " ياشار" يعمل نساجاً ، وكانت أغلب نفقات المنزل على كاهله ، وفى الوقت الذى لا يعمل فيه كان يذهب دائماً إلى " أولدوز" وظل عدة أيام فى حزن وحسرة على الدمية ، وبحثا عنها كثيراً بلا فائدة ، ولكنهما فى النهاية قررا أن يصنعا دمية أخرى، وأسرعا فى العمل .

تعلمت " أولدوز" من أم " ياشار" لضم الإبرة ، والقص والحياكة ، وأخذت هى و " ياشار" يجمعان قطع القماش المختلفة من هنا وهناك ، وانشغلا فى العمل ، وأحضر " ياشار" بقايا الصوف من المصنع ليحشو بها يدي الدمية ورجليها. وأرادا أن يصنعا دمية بطول " أولدوز" ، وقررا أيضاً أن يرسم "ياشار" وجهها . وكانا صنعا قدأعضاء

الدمية عضواً عضواً ، ويضعاها جانباً ثم يحيكانها ببعضها بعد ذلك ، أما بالنسبة لصنع رأسها فقد استفادا من كرة بلاستيكية قديمة ، وغلّفاها بقماش أبيض . وجلس " ياشار " فى يوم الجمعة حتى العصر ، يرسم عينيها وفمها وبقية ملامحها .

ومضى عشرون يوماً حتى وقفت الدمية على قدميها ، وكانت بطول " أولدوز " ولكنها كانت عابسة لم تكن سعيدة . وجلس الطفلان يفكران ماذا أصاب دميتهما ؟!! لماذا هي عابسة لا تضحك ؟ فتوصلا فى النهاية إلى أنها تريد ثوباً .

ولم يكن من السهل إعداد ثوب لدمية كبيرة فذلك يحتاج إلى قماش كثير ، كذلك فإن القص والحياكة عمل صعب . وظل الطفلان على هذا الحال يومين أو ثلاثة ، ولم يصل تفكيرهما إلى شئ .

فى بداية الأسبوع كان " ياشار " يحضر أجره ويعطيه لأمه ، وكان يأخذ منها قرشاً كل يوم ، وقال " ياشار " لـ " أولدوز " ذات يوم : - سوف أدخر مصروفى لأشترى ثوباً للدمية . وعندما حسبا التكلفة ، وجدا أنهما إذا جمعا النقود لعدة أشهر فهى لا تكفى لشراء ثوب لدمية كبيرة ، ومضت عدة أيام وهما على نفس الحال . وظلت الدمية الكبيرة تقف عارية عابسة وأخذ الطفلان يتحدثان إليها وهى لا تجيب .

وذات يوم كان " ياشار " جالساً خلف النول يمشط الخيوط ، فطرأت له فكرة . فقد فكر فى أن الدمية بطول " أولدوز " وبناء على ذلك فمن الممكن أن تلبس من ملابس " أولدوز " فسُر من هذه الفكرة وبدأ فى الغناء من شعر النساجين ، ثم وضع المشط بالأرض ، وأخذ السكين ، وأخذ يغنى على ضربات السكين وهو سعيد وبعد عدة دقائق شاركه الأطفال الغناء وأمتلأ فضاء المصنع نصف المضئ والملئ بالغبار بغناء الأطفال النساجين فكانوا يقولون :

ذهبت أشترى سكر نبات

ألقى به فى الكوب

لم يكن فى جيبى حتى مليم واحد

ثم دللّت نفسى فبدأت فى حركات سخيفة

حمل البقال سنجة

وضرب رأسى فشجها

لم يتوقف الدم من رأسى

ثم ناديت على أخى

عودة زوجة الأب :

عندما عاد " ياشار " عصراً إلى البيت قالت له أمه:- عادت زوجة الأب مع أخيها ، فتغير وجه " ياشار " ، ومن أجل ألا تفهم شيئا ، جرى وذهب إلى الشارع ولم يستطع فى تلك الليلة أن يرى " أولدوز " ونام ليلاً فوق

السطح ، أما أمه فكانت تنام فى الغرفة مع زوجها المريض ، وفى منتصف الليل استيقظ " ياشار " فرأى شيئاً يتصاعد منه الدخان فى وسط جدول جيرانه ويحترق . وكانت زوجة الأب تقف بجوار النار وبيدها صفيحة كيروسين ، وأخذ " ياشار " ينظر لفترة وهو حائر ، ولكنه بعد ذلك غلبه النعاس ، وفى الصباح نهض وذهب إلى العمل .

وا أسفاه أيتها الدمية الكبيرة ...
لماذا أحرقوك ؟ ولم يقولوا مطلقاً أن الأطفال ...
كانوا قد صنعوك بآلاف الأمنيات ؟؟!!

﴿ والأن فلنرجع إلى الوراء قليلاً ، ونرى ماذا فعلت زوجة الأب - عندما عادت - بـ " أولدوز " ودميتها الكبيرة ﴾

كانت " أولدوز " دائماً عندما لا تحتاج إلى العروسة تحملها وتخفيها خلف الحشايا بالمخزن ، وعندما ظهرت زوجة الأب فجأة لم تر شيئاً إلا " أولدوز " وهى تجلس على حافة الجدول وهى تعد أصابعها ، و كلثوم تكنس الفناء . وكان الأب في الغرفة يكوى سرواله ، وعاد أخو زوجة الأب فى عصر نفس اليوم ، ولكنه قبل ذهابه تحدث قليلاً مع الأب . وفهمت " أولدوز " القليل من حديثهما ، فقد كان يتحدثان عنها ، وكأن زوجة الأب كانت قد شكت من " أولدوز " للأب ولأخيها .

وفى الليل عندما حان وقت النوم حدث شئ سيئ . فعندما ذهبت زوجة الأب لتحمل فراشها رأت شيئا كبيرا سيئ التركيب موجودا خلف الحشايا ، وعلى الفور حدثت جلبة واتضح أن هذا الشئ الكبير السيئ التركيب هو دمية " أولدوز " تلك الدمية التى صنعتها بنفسها . وألقت زوجة الأب الدمية الكبيرة من النافذة وسط الحديقة ، وأخذت تصرخ بـ " أولدوز " قائلة : - إن شاء الله تقعين فوق مغسلة الميت ، مع هذه الدمية التى صنعتيها خوفتينى ! سأريكى كيف تعاندينى هكذا ؟ لتوى خلصت نفسى من شر دميتك الأولى أترغبين فى فتح الطريق أمام الجن مرة أخرى إلى البيت ، أتريدين !!

كان الأب واقفاً بلا حراك ، وهو يفكر من أين أتت دمية كبيرة بهذا الحجم ولم يكن يصدق مطلقا أن " أولدوز " هي التى صنعتها ، فقال : - يا بنت : متى صنعتِ هذه الدمية وأنا لا أدرى ؟!!

ولم تستطع " أولدوز " أن تفتح فمها لتتكلم ، وقالت زوجة الأب : - إذهبى وادعى ربك ، إنى لا أرغب فى أن أكون عصبية من هذا الموضوع وإلا لكنت ضربتك ضرباً مبرحاً يجعلك تفرين من هذا البيت .

قال الأب لزوجته : - نعم ! لا يجب أن تعكرى دمك من أجل طفلة ، فهذا ضرر عليك .

أشارت زوجة الأب إلى زوجها وقالت : - بناء على كلام

أبيك فإني أرعاك في هذا البيت ، ولكن أبي وأخي لم يرسلاني لأعمل في خدمتك .

قال الأب : - كفي يا إمرأة ! على كل فهي طفلة ... لا تفهم شيئاً .

قالت زوجة الأب : - مهما كانت ، فأنا لا أقدر على تحملها، فلماذا تجلس وتصنع دمية لتؤذيني ؟

وفجأة أجهشت " أولدوز " بالبكاء وارتفع صوتها وفي وسط البكاء قالت بصوت مرتفع:- أنا .. أنا ... أريد دميتي المتحدثة ...!..!

وكانت زوجة الأب تزداد عصبية لمجرد ذكر اسم الدمية المتحدثة ، فأمسكت بشعر " أولدوز " وكورته وأخذت تنهرها قائلة : - ليس لكِ الحق في ذكر هذا الإسم القذر أمامي ، أفهمتِ ؟ لا أريد أن يصاب طفلي الذي في بطني بشئ ، فمثل هذه الأشياء سواء الحسن منها أو السيئ تفتح طريقاً لهم في بيتنا ، الجن ، أفهمتِ ؟ أم لابد أن أفهمك بلكماتي وعصاي .

وفجأة خلصت " أولدوز " نفسها من يد زوجة الأب ونهضت وذهبت إلى الباب حيث تستطيع أن تأخذ دميتها الكبيرة التي كانت قد وقعت في وسط الحديقة ، ولكن زوجة الأب لم تعطها الفرصة لأن تمر من عتبة الباب إلى الطرف الآخر.

وبعد عدة دقائق كانت " أولدوز " تجلس القرفصاء في

المخزن وهى تبكى بحرقة ، وكان الباب مغلقاً ، وكانت زوجة الأب تقف فى وسط الحديقة وبيدها صفيحة من الكيروسين ، تشاهد حريق الدمية الكبيرة ، والدخان يتصاعد منها ، والأب ما زال يفكر من أين أتت دمية كبيرة بهذا الحجم إلى منزله ؟!!

فى وحدة وحزن ...

أمنية ليلة الخلوة الصغيرة :

تعاقبت الأيام ، وكان أبو" ياشار" طوال الصيف مريضاً ويتناول الدواء ، وكان الطفلان لا يريان بعضهما إلا نادراً ، وكانا فى حزن ووحدة شديدة من أجل دميتيهما ، وخاصة حزنهما على دميتهما المتحدثة ، ولم يكن مسموحاً لـ " أولدوز" أن تتلفظ حتى باسمها أمام زوجة الأب ، وإذا حدث ؟ فهل من الممكن أن تفكر فى دميتها المتحدثة ؟ ومهما حدث فهل من الممكن أن تنسى تلك الليلة العجيبة ؟ ليلة الغابة ، تلك الغابة المليئة بالأسرار ، وإذا حدث فهل من الممكن ألا تفكر فى ليلة الخلوة الصغيرة ، فجميع العرائس تتجمع فى ليلة الخلوة الصغيرة فى الغابة ، ولكن لم يعد لدى " أولدوز" و " ياشار" دمية تحملهما إلى الغابة .

وا أسفاه أيتها الدمية المتحدثة ...

فمع عمرك القصير مع الأطفال ، فقد أثرتِ فى قلوبهم لدرجة أنهم لن ينسوكِ حتى آخر العمر...

مرت الأيام والأسابيع والشهور ، وكانت " أولدوز " تحسب بالدقيقة موعد ليلة الخلوة الصغيرة وكانت موقنة بأن الدمية المتحدثة ستحاول فى تلك الليلة أن تصل إليها .

وأخذت بطن زوجة الأب تزداد فى الإنتفاخ ، وكانت فخوره جداً بطفلها القادم ، وكانت تعنف " أولدوز " على أى عمل صغير يبدر منها .

أمل بلا فائدة :

ماذا حدث للأفراح :

ذات يوم أحضر الأب الكهربائى ، وكانت الكهرباء قد أدخلت إلى بيته ، واشترى الأب أيضاً مذياعاً ، وكانوا يشعلون المصباح الكهربائى في البيت ، وأخذ صوت المذياع يملأ كل مكان .

وكانت الأمانى فى ليلة الخلوة الصغيرة بلا فائدة ، وكأن الدمية المتحدثة كانت قد فقدت إلى الأبد . وبعد ليلة الخلوة الصغيرة كانت " أولدوز " قد نسيت جميع الأفراح والأحاديث واللسان الطلق الحلو ، وانزوت طفلة صامتة بلا حديث ولا حراك .

كان " ياشار " يذهب إلى المدرسة ، وكان الطفلان يريان بعضهما نادراً ، وخاصة أن زوجة الأب لم تكن تسمح لـــ

" ياشار " أن يأتي الى بيتهم ، وكانت تقول : - هذا الولد الفاسد العاطل ، سيفسد أخلاق البنت أكثر.

لم تصل قصتنا إلى نهايتها

" أولدوزوالغريان "

لابد أن تنظروا لتروا إلام تطورت قصة الدمية والأطفال ، فإذا لم يظهر موضوع الغربان لكانت " أولدوز" ستموت حتماً من شدة الحزن وتضيع من يدنا . لكن ظهور أم الغراب ، وصداقة الأطفال مع الغربان ، قد غيرا كل شئ ، وجددا حماس " أولدوز" و" ياشار" مرة أخرى ، ومحاولتهما الصعبة لكي يستطيعا السفر إلى مدينة الغربان .

وهكذا قرأتم وعرفتم موضوع الغربان ، هي نفس القصة الأخرى التي كتبت في كتاب " أولدوزوالغربان " ، وبالفعل انتهت قصة " الدمية المتحدثة " .

٢- " أولدوز" والغربان

جلست " أولدوز " وحيدة في غرفتها ، وقد تعلقت عيناها بالخارج بعد أن أغلقت زوجة أبيها الباب ، ونبهت عليها بعدم مغادرة الشرفة وإلا أتت وأنزلت بها أشد العقاب ، ثم ذهبت إلى الحمام . وظلت " أولدوز " جالسة في الغرفة تحملق وتفكر مثل العجائز، لا تحرك ساكناً وذلك لخوفها الشديد من زوجة أبيها . وشرعت تفكر في دميتها الكبيرة التي ضاعت منها لتوها ، وقد أحزنها ذلك كثيراً .

وعدت أصابعها عدة مرات ، ثم تحركت ببطء إلى النافذة ، فقد كان صبرها قد نفد . وفجأة نسيت " أولدوز " وحدتها ، وسرى عن قلبها ، إذ رأت غراباً أسود يقف على حافة الحوض ليشرب . ورفع الغراب رأسه فلمح " أولدوز " ، عندئذ خاف وهم بالطيران ، ولكنه عندما رأى " أولدوز " لا شأن لها به ، توقف وفتح منقاره قليلاً . فرحت " أولدوز " ، فقد اعتقدت أن الغراب يضحك ، وقالت له : - سيدي الغراب ، إن ماء الحوض قذر ، وإذا شربت منه مرضت .

ضحك الغراب مرة أخرى وقفز نحوها وقال : - لا يا عزيزتي ، بالنسبة للغربان ... فإنه لا فرق ، فنحن نشرب ماء أسوأ من هذا ، ولايحدث لنا شئ ... أولاً لا تقولي لي " سيدي الغراب " ، فأنا سيدة وعندي أربعة صغار ، فناديني ب " أم الغراب " .

لم تكن " أولدوز " تفهم أي جزء في الغراب هذا الذي يجعله أنثى وأرادت " أولدوز " أن تحتضنها وتقبلها . فكم هي رحيمة !! .... حقا إن الغراب لم يكن جميلا فقد كان قبيحاً ودميماً ، ولكنه ذو قلب رحيم ، ولو اقتربت " أم الغراب " قليلاً لأمسكتها " أولدوز " وقبلتها .

قالت " أم الغراب " وهى تقرقر: ما اسمك ؟
فقالت " أولدوز " – اسمى أولدوز . ثم سألتها " أم الغراب " : – وماذا تفعلين بالداخل ؟
قالت " أولدوز " : لا شئ فقد تركتنى زوجة أبى هنا وذهبت إلى الحمام ، وأمرتنى بعدم الحركة .
فقالت " أم الغراب " : – إنك تفكرين مثل الكبار فى كل الأمور. لماذا لا تلعبين ؟ .
تذكرت " أولدوز" عروستها الكبيرة فحزنت وتنهدت ، وفتحت النافذة ليصل صوتها إلى " أم الغراب " : – ليس لدى ما ألعب به ، فقد ضاعت عروستى الكبيرة التى كانت تتكلم .
فجففت " أم الغراب " دموعها بطرف جناحها، ثم قفزت وحطت على حافة النافذة . وخافت " أولدوز" فى بادئ الأمر وتراجعت ، فقالت لها " أم الغراب " : – أليس لديك صديق تلعبين معه ؟ .
فرحت " أولدوز" فرحاً شديداً ، واقتربت منها .
قالت " أولدوز" لها : – يا شار... ولكنى قليلا ما أراه ... قليلا جداً ... فهو يذهب إلى المدرسة .
فقالت لها " أم الغراب " : – هيا نلعب سوياً .
أخذت " أولدوز" " أم الغراب " واحتضنتها وقبلت رأسها ووجهها . وكان ريشها خشنا . وضمت " أم الغراب " رجليها حتى لا تلوث ملابس " أولدوز" فقبلتها " أولدوز" فى منقارها الذى كان يفوح برائحة الصابون وقالت : – هل تحبين الصابون إلى هذه الدرجة ؟
قالت " أم الغراب " : – نعم ! أموت من أجله .

قالت " أولدوز " : - لولا أن زوجة أبى تستاء من هذا الأمر لأحضرت لك قطعة لتأكلينها .

قالت " أم الغراب " - أحضريها خفية ، ولن تشم زوجة أبيك خبرا .

قالت " أولدوز " : - ألن تخبريها .

قالت " أم الغراب " : - أنا ؟ أنا لا أنم عن كلام أحد لأحد .

قالت " أولدوز " : - ولكن زوجة أبى تقول لى " أى شئ تفعلينه يأتى إلىّ الغراب ويخبرنى به ".

ضحكت " أم الغراب " من أعماق قلبها وقالت : - إنها تكذب ياعزيزتى ... أقسم برأسى السوداء هذه بأننى لا أنقل الكلام ، ولكنى أحضر إلى هنا بحجة شرب الماء ... وأقف على حافة الحوض ، ثم أسرق الصابون والسمك وأهرب .

قالت " أولدوز " : - لماذا تسرقين ؟ هذا حرام ؟!!

قالت " أم الغراب " : - لاتكونى ساذجة يا عزيزتى ... ما الحرام ؟! ... الحرام إن لم أسرق ، سأموت جوعا أنا وصغارى . هل هذا ذنب يا عزيزتى ؟!! ... الذنب هو ألا أملأ بطنى ... هذا هو الحرام ... أيكون الصابون تحت قدمى وأبقى جائعة ؟! ... لقد عشت كثيرا بحيث أعرف هذه الأمور ، وأيضاً لابد أن تعرفى أنت بدورك أن هذه النصائح الواهية لا تمنع من السرقة . إلى أن يكون لكل إنسان عمل فى هذه الدنيا ... ستبقى السرقة .

أرادت " أولدوز " أن تذهب وتسرق قطعة من الصابون وتحضرها لـ " أم الغراب " . فتذكرت أن زوجة أبيها تضع المواد الغذائية فى دولاب وتغلقه ، ولكنها تترك الصابون خارجه . فتركت " أم الغراب "

على حافة النافذة وذهبت بمفردها إلى غرفة الكرار وأحضرت قطعة من الصابون صنع " مراغة " .

أيها الأطفال ، لا أراكم الله يوما سيئا !! . عندما عادت " أولدوز " وجدت " أم الغراب " قد هربت ، وزوجة الأب تقف بجوار النافذة حاملة بقجة الحمام تحت إبطها ووجهها أحمر كالبنجر. وأصبحت " أولدوز " فى مأزق شديد . وأدخلت زوجة الأب رأسها من النافذة وصاحت : - يا أولدوز! ماذا حدث ؟ ... ما الذى جعلك تقلبين البيت هكذا ؟ ألم أقل لك لا تبرحى مكانك ؟! .

لم تجد " أولدوز " جوابا ، وتحركت زوجة الأب إلى الباب وفتحت القفل ودخلت ، فأسرعت " أولدوز " بإخفاء الصابونة تحت قميصها، وقبعت القرفصاء فى زاوية من البيت ، ووصلت إليها زوجة الأب وهى تصيح : - ألن تقولى عما كنت تبحثين .

قالت " أولدوز " - يا أمى ... لا تضربينى !! لقد كنت أبحث عن عروستى الكبيرة .

أمسكت زوجة الأب بأذن " أولدوز " وعركتها . فقد كانت تكره عروستها - وقالت لها : - ألم أقل لك أكثر من مرة أن تمحى فكرة العروسة المشئومة هذه من رأسك ! ألا تفهمين ؟

بعد ذلك ذهبت زوجة الأب إلى غرفة الكرار لتعد لنفسها الشاى ، وتذرعت " أولدوز " بأنها ستذهب إلى الحمام، وتوجهت إلى الفناء وأخذت تحملق بعينيها هنا وهناك باحثة عن " أم الغراب " ، فوجدتها جالسة على حافة السطح ونظراتها حائرة ، فوضعت " أولدوز " الصابونة تحت أشجار الورد ، وغمزت " لأم الغراب " حتى

تحضر وتأخذ الصابون . نزلت " أم الغراب " صوب أشجار الورد ودخلت فيها ببطء شديد ، وسألتها " أولدوز " : - ألن تحضرى أحد صغارك لألعب معه ؟

أجابت " أم الغراب " بصوت منخفض : - انتظرينى بعد الغداء فإذا وافق زوجي ، سأحضره .

عندئذ حملت الصابونة وطارت .

ظلت " أولدوز " تحملق فى " أم الغراب " وهى تبتعد فى السماء ، ثم أخذت تتقافز وترقص من شدة فرحها ، وكأنها عثرت على عروستها المتكلمة . وفجأة صرخت فيها زوجة أبيها : - لماذا ترقصين يا بنت ؟ أدخلى وإلا أصابتك ضربة شمس . لاوقت لدى ولا صبر عندى .

دخلت " أولدوز " وجلست فى الغرفة ، وحان وقت الغداء ، وبعد دقائق ، عاد أبوها من عمله متجهماً ، وكأن رئيس الإدارة قد تشاجر معه ، لذا لم يرد التحية على " أولدوز " وشرع فى الأكل دون أن يغسل يديه .

كانت " أولدوز " تحب البطاطس المقلية ، وكانت الرائحة المنبعثة من طبق أبيها تكاد تصيبها بالإغماء ، وظلت تبتلع ريقها عدة مرات ، لكنها لم تأخذ منه شيئاً ، فقد كانت تعلم أنه على الصغار أن ينتظروا حتى يضع لهم الكبار الطعام فى أطباقهم كما تقول زوجة أبيها .

لنتعرف على السيد غراب :

كان ذلك فى شهر أغسطس ، وقد تناولوا طعام الغداء ، ثم غلب النعاس على الأب وزوجته فناما ، ونامت " أولدوز " أيضاً مجبرة

حتى لا يوبخها أبوها ، ويصرخ فى وجهها : - لابد أن ينام الطفل بعد تناول الغذاء . ولم تستطع " أولدوز " أن تفهم لماذا يتحتم عليها أن تنام ؟! وقالت لنفسها : - لا أستطيع أن أنام اليوم لأن " أم الغراب " ستأتى وإن لم تجدنى ، ستأخذ صغيرها مرة أخرى .

تمددت على عتبة الباب وتظاهرت بالنوم حتى نام أبوها وزوجته ثم خرجت ببطء شديد وذهبت إلى الفناء ، وجلست تحت ظل شجرة التوت ، وعدت أصابعها ثلاث مرات حتى وصلت " أم الغراب " .

وحطت بادئ الأمر على حافة السطح ، وأخذت تنظر إلى " أولدوز " فأشارت لها " أولدوز " حتى تستطيع النزول ، فنزلت " أم الغراب " وجلست بجانبها وقد أحضرت معها غرابا صغيراً لطيفا ، وقالت : - لقد كنت خائفة أن تكونى نائمة .

قالت " أولدوز " : - إنى أنام كل يوم ، ولكنى اليوم تركت أبى وزوجته ينامان ولم أنم

قالت " أم الغراب " : - أحسنتِ ... فهناك وقت كثير للنوم ، فإذا نمتِ ظهرا فماذا ستفعلين ليلا ؟

قالت " أولدوز " : - فلتقولى هذا لزوجة أبى ... هل أحضرتِ لى الغراب الصغير؟ آه ... كم هو لطيف !

وضعت " أم الغراب " صغيرها فى يد " أولدوز " ، وكان لطيفا جداً .

فجأة تنهدت " أولدوز " ، فقالت : " أم الغراب " : - لماذا تتنهدين ؟

قالت " أولدوز " : - تذكرت عروستى . ليتها كانت بجانبى حتى نلعب نحن الثلاثة .

قالت " أم الغراب " : - لا تحزنى ... الأبنة الكبرى إحدى حفيداتى

ستضع بيضاً بعد عدة أيام ، وعندما يفقس صغارا سوف أحضر لك واحدا منهم فتصبحون ثلاثة .

قالت " أولدوز " : - ألديك صغير آخر ؟

قالت " أم الغراب " : - لماذا ؟ لدى ثلاثة آخرون

قالت " أولدوز " : - أحضريهم .

فقالت " أم الغراب " : - عند ذلك سأبقى وحيدة ، كذلك فإن أبا الغراب لن يسمح لى أن أحضرهم لكِ ،وأعلمى أن هذا الصغير الذى أحضرته لك لا يستطيع الكلام ولا الطيران حتى الآن ، وبعد أسبوع يستطيع النعيق، ثم بعد أسبوعين يستطيع الطيران ، فانتبهى لذلك فانه فى نهاية الأسبوعين إذا لم يستطع الطيران ، فإنه لن يقدر أن يطير بعد ذلك أبدا ، فلتتذكرى ذلك .

قالت " أولدوز " : - إن لم يستطع الطيران ، ماذا يحدث ؟

قالت " أم الغراب " : عند ذلك يموت ... أتعرفين ماذا تطعمينه ؟

قالت " أولدوز " : - لا ، لا أعرف .

قالت " أم الغراب " : - فى صباح كل يوم قطعة صابون وقليل من اللحم إن أمكن ، وفى بعض الأحيان سمكة صغيرة ... فلديكم منه الكثير فى الحوض ، وأيضاً يأكل الدود والجبن .

قالت " أولدوز " : - حسنا جداً .

قالت " أم الغراب " : - هل تسمح زوجة أبيك برعايتك له ؟

قالت " أولدوز " : - لا ، فهى لا تحب رؤية هذه الأشياء ... لابد أن أخفيه .

وضعت " أولدوز " الغراب الصغير فى طرف تنورتها ، فأخذ يتحرك

يمينا ويساراً وهو يلاعبها بالتقاط يدها بمنقاره وتركها . وكان ينبعث من عينيه الصغيرة بريق ، وكانت أرجلاه رفيعة مثل إصبع " أولدوز " الصغير، وكم كانت أجنحته ناعمة ملساء فهى ليست خشنة مثل أجنحة أمه ، فهو أكثر جمالاً .

قالت " أم الغراب " : - حسنا ... أين تخفينه ؟

لم تكن " أولدوز " قد فكرت فى هذا ، ومن ثم استغرقت فى التفكير.

فى أى مكان ؟ ليس هناك مكان .

قالت : - أخفيه داخل شجيرات الورد .

قالت " أم الغراب " : - لا يمكن !! ... ستراه زوجة أبيك ، وعلاوة على هذا عندما تسقى الورد سيبتل صغيرى ويأخذ برداً .

قالت " أولدوز " : - ولكن أين أخفيه ؟!

قالت " أم الغراب " : - بعد أن نظرت هنا وهناك : - تحت السلم ... فهذا أفضل مكان ، السلم يوصل للسطح - وتنتشر مثل هذه السلالم فى المدن الصغيرة والقرى - وكان يوجد تحت السلم كن قديم به مخلفات، فوضعتا الغراب الصغير فيه وأحكمتا إغلاق الباب حتى لاتأتى القطة وتأكله ، وكذلك حتى لا تشم زوجة الأب خبرا عنه . وكان هناك ثقب صغير أسفل الكن حتى يستطيع الغراب الصغير التنفس منه .

قالت " أولدوز " : - لـ " أم الغراب " : - ما اسمه ؟

قالت " أم الغراب " : - قولى له السيد غراب .

قالت " أولدوز " : - هل هو ذكر ؟

قالت " أم الغراب " : - نعم .

قالت " أولدوز " : - كيف عرفتِ أنه ذكر ؟ فالغربان كلها شكل واحد !!

قالت " أم الغراب " : - أنت تعتقدين ذلك ... لو أمعنتِ النظر فى الوجه والرأس ستعرفين الفرق بين الذكر والأنثى . فشكلهما يدل عليهما .

دارت بينهما الأحاديث ، ثم ودع كل منهما الآخر.. وذهبت " أولدوز " إلى الغرفة وتمددت وأغلقت عينيها . وعندما استيقظت زوجة الأب وجدت " أولدوز " لا تزال نائمة ، ولكنها لم تكن فى الحقيقة نائمة ، ولم يغلبها النعاس ، بل كانت مستغرقة فى التفكير فى غرابها ، وتختلس النظر إلى زوجة أبيها وتضحك فى سرها .

العناكب لذيذة الطعم :

مضت عدة أيام وكانت " أولدوز " فى قمة سعادتها ، وكان الأب وزوجته فى عجب .

قالت الزوجة للأب ليلا : - لا أدرى ماذا حل بالطفلة ! ... فدائماً تضحك وترقص وكأنه لا شئ يهمها ، ولابد أن أعرف ما هو السر !

سمعت " أولدوز " هذا الحديث ، وقالت لنفسها : لابد أن أحتاط أكثر.

كانت " أولدوز " تذهب إلى الغراب الصغير مرة أو مرتين فى اليوم ، وعندما يكون البيت خالياً كانت تخرجه من عشه لتلعب معه ، وتعلمه الكلام . وفى بعض الأحيان كانت " أم الغراب " تأتى وتحضر لصغيرها قطعة لحم أو صابون ، وأشياء من هذا القبيل ، وقد أحضرت معها ذات مرة عنكبوتين ، وقد كانت العناكب معلقة بمنقار

" أم الغراب " تتملص ، ولا تستطيع تخليص نفسها . وكم كانت أرجلها طويلة . خافت " أولدوز " منها ، فقالت " أم الغراب " : – لا تخافي ياعزيزتي وانظرى كيف يأكلها صغيرى .
حقا ابتلعها السيد غراب بشهية ، ثم أخذ يمسح منقاره بالأرض عدة مرات يمينا ويسارا ، وقال :
– يا أمي العزيزة أحضري لي مرة أخرى من هذا ، لقد كان لذيذاً جداً .
فقالت أمه : – حسناً جداً .
قالت"أولدوز":–لدينا الكثير منها في مطبخنا وسوف أحضر لك منها.
ابتلع الغراب لعابه وشكرها .
ومن ذلك الحين كانت " أولدوز " تبحث هنا وهناك ، وتصطاد العناكب وتضعها في جيب قميصها ، وتقفل أزرارها عليها حتى لاتهرب . وعندما تسنح الفرصة تقدمها للغراب الذى يعدها نوعاً من الحلوى أو الديك المصنوع من السكر ، أو النُقل ، ولا يعتبرها وجبات أساسية ، وكانت " أم الغراب " قد قالت : – إذا لم يأكل الحي يموت ، فليس هناك كائن حي يستطيع أن يحيا دون الطعام ، لا شئ ... لاشئ يحفظه حيا إلا الطعام .
ذات يوم وأثناء الغداء رأت زوجة الأب عدة عناكب مكسورة الأرجل تتحرك على مائدة الطعام . وأدركت " أولدوز " أن هذه العناكب قد خرجت من جيبها فدق قلبها بشدة ، وأرادت أن تلتقطها وتضعها في جيبها ولكن بعد تفكير أدركت أنه من الأفضل أن تتجاهل الأمر ، وأمسكت بها زوجة الأب من أرجلها وألقت بها خارجاً ، ومر الأمر بسلام .

بعد الغداء ذهبت " أولدوز" إلى الغراب الصغير في عشه بما تبقى من العناكب كما أنها وجدت اثنين آخرين كانا بزاوية الفناء . وأمسكت إحداهما بيدها ووضعته داخل منقار الغراب كما تعلمت من "أم الغراب" عندما كانت تضع الطعام بمنقارها داخل منقاره الصغير.

مد الغراب منقاره ليأخذ العنكبوت ، ولكنه تراجع برأسه للخلف باشمئزاز وقال : – لن آكل يا عزيزتي أولدوز.

قالت " أولدوز" : – لماذا يا غرابي الصغير ؟

قال " الغراب " : – أنظري إلى أظافرك وشكلها !

قالت " أولدوز" : – ماذا بشكلها ؟!

قال الغراب : – طويلة ، قذرة ، سوداء ! أنا آسف يا آنستي أولدوز إنني أتطفل . ولكنني لن أستطيع أن أتناول طعامي ... أتفهمين يا آنستي ؟

قالت " أولدوز" : – فهمت ، أشكرك كثيرا لأنك بينت لي عيوبي ، فأنا نفْسي بعد هذا لن أستطيع تناول طعامي بهذه الأظافر القذرة ... صدقني !!

المشاجرة على السمك والحكم بإعدام أمّ الغراب :

في حوض السمك ... كانت هناك أسماك حمراء وصغيرة . في اليوم السادس أو السابع من حضور الغراب ذهبت " أولدوز" إلى حوض السمك وأمسكت بواحدة من الأسماك الحمراء الصغيرة الموجودة بالحوض ووضعتها في طبق صغير وأعطتها للغراب فابتلعها

علـى الفـور، فقـد كـانت أول سمكـة يأكلهـا منـذ أن أخبرتهـا " أم الغـراب " أن صيـد السمك وابتلاعـه لـه مـذاق جميـل . لكنهـا لم تعرف كيف ... لم تكن " أم الغراب " مثل زوجة أب " أولدوز " . لقد كانت تعرف أشياء كثيرة . فهى تعرف ما هو الشىء المفيد لابنها ، وما هو الشىء الضار. فإذا أراد الغراب شيئاً ضاراً ، أو صدر منه تصرف خطأ لم تكن تصرخ فى وجهه ، ولكنها كانت تقول له : – يا صغيرى العزيز: لن أحضر لك هذا الشىء ... إنه ضار عليك إذا أكلته يحتبس صوتك ولا تستطيع النعيق !! ...

كانت تعلل كل شئ بعكس زوجة الأب التى كانت تقول بغضب : أولدوز لا تفعلى هذا الشىء ، لا تأكلى هذا الشىء ، لا تذهبى إلى هذا المكان ، لا تفعلى هذا ولا ذاك ، اجلسى معتدلة ، لا ترفعى صوتك ، لماذا تهمسين ، وأشياء كثيرة من هذا القبيل ، مع إنها لم تقل لى أبدا ، لماذا لا أرفع صوتى ؟ لماذا يجب أن أنام ظهرا ؟ ... كانت " أولدوز " فى بادئ الأمر تعتقد أن كل الأمهات مثل زوجة أبيها ، ولكنها غيرت رأيها بعد أن تعرفت بأم الغراب وصادقتها .

وفى اليوم التالى عرفت زوجة الأب أن هناك سمكة ناقصة فظلت تصيح بصوت عال وصل إلى عنان السماء ... وعندما حضر زوجها قالت أثناء الغداء : – إن الذى فعل ذلك هو نفس الغراب الذى يقف على حافة الحوض ويسرق الصابون ، إنه وقح جداً ، وإن أمسكته سأشنقه ... سأعدمه .

وأخذت تسب " أم الغراب " بأقبح الألفاظ . سكتت " أولدوز " لأنها إذا قالت شيئا ستعرف زوجة أبيها أن هناك علاقة وطيدة بينها

وبين الغراب ، خاصة بعد أن رأتها منذ عدة أيام بجوار الحوض تكاد تمسك برسغها .
قال الأب : - الغربان أصلا طيور قذرة وسارقة للأشياء التافهة ، ولم أر فى حياتى غراباً واحداً مؤدباً ، انتبهى له ! وإلا فإنه لن يترك سمكة واحدة باقية فى الحوض .
قالت زوجة الأب : - نعم ، لابد أن آخذ حذرى ، فإن الأسماك لذيذة تحت أسنانه الآن ، ولابد أنه يرغب فى أكلها كلها .
ضحكت " أولدوز " من جهل زوجة أبيها لأن الغراب ليس له أسنان كما قالت لها " أم الغراب " .

" أم الغراب " تعرف أشياء كثيرة ولا تخاف الموت :

جاءت " أم الغراب " ظهرا والجميع نيام ، فجلست هي و"أولدوز" تحت ظل شجرة التوت ، وقصت " أولدوز " عليها ما حدث.
قالت " أم الغراب " : - لا تهتمى ... إذا أرادت زوجة الأب أن تمسك بى سأقتلع عينيها .
بعد ذلك أخرجنا الغراب الصغير من العش ، فقد كان يستطيع الكلام عندئذ ولكنه لم يكن مثل " أولدوز " وأمه ، فقط كان مستواه فى الكلام جيدا بالنسبة لسنه ، وكان يقفز قفزات صغيرة بين الشجيرات والورود ، ويتجول هنا وهناك ، رفرف بجناحيه ثم عاد وجلس بجانب أمه فعلمته كيف يلتقط القمل من جسمه بمنقاره ويقتله .
كان لدى " أم الغراب " جرح قديم تحت جناحها الأيسر ، فأرته لـ " أولدوز " ولصغيرها ، وقالت : - إن هذا الجرح منذ خمسين أو ستين

سنة . فقد كنت ذاهبة لسرقة الصابون ، فضربني صانع الصابون بعصاه وظل جرحي لمدة خمس أو ست سنوات حتى عثرت على فاكهة صحراوية وأكلتها فشفى جرحي تماماً .

أعجبت " أولدوز" بخبرة " أم الغراب " ومعرفتها ، وتمنت أن تكون لها أم مثلها ، فهي لم تكن تتذكر أمها ، وكل ما تتذكره أنها سمعت زوجة الأب ذات مرة أثناء مشاحناتها مع الأب تقول له : - خذ ابنتك إلى أمها وأتركها هنالك ، فإنني اليوم أو غدا سأكون أما لطفل، ولن أخدمها .

والحقيقة ، لقد كانت بطن زوجة الأب ترتفع أمامها ، وكان موعد وضعها قد اقترب .

وبين الحين والآخر كان عم " أولدوز" يحضر من قريته إلى المدينة ويطل عليها ، كانت " أولدوز" تعرف فحسب أن أمها تعيش في القرية وأنها تحبها .

ذلك اليوم قبلت " أم الغراب " " أولدوز"، وقبلت صغيرها وطارت، وجلست الأم على حافة السطح لتذهب إلى مدينة الغربان ، وودعتها " أولدوز" وقالت لها : - سلمي على أولادك الآخرين وعلى أبيهم .

ثم تذكرت أن عليها أن ترسل هدية للصغار، واختارت بزازة كانت في جيب قميصها - كانت زوجة الأب قد أشترتها لها - فأحضرتها وصعدت على السلم المؤدى إلى السطح ... وأعطتها لـ " أم الغراب " لتعطيها لصغارها ، ثم حلقت " أم الغراب " ، وحطت فوق إحدى أشجار الحور الأبيض ، واستدارت تجاه " أولدوز" ونعقت ، وطارت حتى غابت عن عينيها .

زيارة قصيرة لـ " ياشار " :

ظلت " أولدوز " واقفة على السطح تحملق فى الأفق البعيد ، ثم تذكرت أنها لم تخبر زوجة أبيها بأنها ستصعد للسطح فخافت قليلا ، وقررت النزول بسرعة ، وألقت نظرة على ما حولها ، ثم حدَّثت نفسها قائلة : - كم هو جميل ذلك السطح !! وأخذت تنظر إلى فناء الجيران من جهة اليسار حيث بيت " ياشار " ولمحته " أولدوز " يخرج فجأة إلى الفناء بهدوء ، ويذهب فيجلس أمام كوخ الكلب الذى كان خاليا دائماً . وكان " ياشار " يكبر " أولدوز " بثلاث سنوات ، وكان ذكيا عطوفا . وحاولت " أولدوز " أن تلفت نظره ، ولكنها لم تستطع أن ترفع صوتها أكثر ، وعندما كانت على وشك أن تيأس رفع " ياشار " رأسه فرآها وتعجب عندما رآها ، ثم جاء مسرورا ووقف بجانب السور وقال : - ماذا تفعلين هنا يا أولدوز ؟

قالت " أولدوز " : - شعرت بضيق فصعدت للسطح أنظر لما حولى هنا وهناك .

قال " ياشار " : - أين زوجة أبيك ؟

كانت " أولدوز " قد نسيت كل شئ ، ولكنها عندما سمعت ذلك تذكرت أنها نسيت الغراب الصغير فى وسط الفناء ، ومن الممكن أن تستيقظ زوجة الأب وتراه ... وكم سيكون الأمر سيئا ! ... تركت " أولدوز " " ياشار " ونزلت مسرعة ، وأدخلت الغراب الصغير عشه ، وبينما هى تغلق الباب سمعت زوجة الأب تصيح عليها قائلة : - فى أى قبر تختبئين ؟ لماذا لا تجيبين ؟

كاد قلب " أولدوز " ان يتوقف من شدة الخوف ، ولم تستطع أن ترد

فى بادئ الأمر ولكنها استجمعت شجاعتها بعد قليل وقالت : - أنا هنا يا أماه ، إننى أقضى حاجة .
ولم تعقب زوجة الأب ومر الأمر بسلام .

إعدام أم الغراب :

فى اليوم التالى استيقظت " أولدوز " فزعة على نعيق " أم الغراب " تطلب النجدة وكأنهم يقتلون أحدا وهو يصرخ ، جرت " أولدوز " إلى الفناء مسرعة تستطلع الأمر ، فوجدت زوجة الأب واقفة تحت شجرة التوت ، وفى وجهها جرح تتساقط منه الدماء ، وفى يدها عصا تضرب بها " أم الغراب " المسكينة المعلقة بالشجرة من أرجلها وهى تسبها ، بينما كانت المسكينة تنعق وترفرف بجناحيها .
ولم تدر " أولدوز " نفسها متى اندفعت نحو زوجة الأب ، وأمسكت بأرجلها وعضتها فصرخت زوجة الأب ، ودفعت " أولدوز " بعيدا عنها ،، ثم لطمتها بشدة أسفل أذنها فسقطت على الأرض ، وارتطم رأسها بحجر ففقدت وعيها وراحت فى غيبوبة ولم تفهم شيئا بعدها .

نوم " أولدوز " المتقطع :

فتحت " أولدوز " عينيها ظهرا فوجدت بجوارها بعض الجيران، وكانت زوجة الأب تجلس بجوار رأسها ، وقد أمسكت بملعقة بها دواء تعطيه لها ، ولكن شيئا فشيئا اتضحت الرؤية وتعرفت بوضوح على من بالغرفة ، ورأت " ياشار " يحملق فيها وقد جلس بجوار أمه .

عندما رأت زوجة الأب " أولدوز " تفتح عينيها قالت مندفعة ، - شكر لله ، لقد فتحت عينيها ... إنها لن تموت ، تكلمى يا " أولدوز " ... تكلمى ... لم تكن " أولدوز " تستطيع الكلام ، وحولت رأسها ناحية زوجة الأب . وفجأة تصاعد فى الغرفة نعيق " أم الغراب " ، وبدون أن تشعر " أولدوز " أمسكت بشعر زوجة الأب كالمجنونة وظلت تصرخ . لكن رأسها كانت تؤلمها فنزلت يداها دون إرادة منها ، وانقطع صوتها ، ثم انخرطت فى بكاء مر وظلت تردد : أين " أم الغراب " ؟ ... أين ؟ أين " أم الغراب " ؟ ماذا حدث للغراب الصغير ؟ ... الأم ! ... الأم ...

أسرع " ياشار " إليها وجلس بجانبها قبل الجميع ، وظل كل واحد يتحدث إليها محاولاً تهدئتها ، لكن " أولدوز " استمرت فى البكاء ، وتظاهرت زوجة الأب بالحنان لتهدئ من روعها قائلة : - لا تبكى يا عزيزتى " أولدوز " خذى دواءك وستتحسنين سريعا .

وفى النهاية تعبت " أولدوز " من كثرة البكاء ، فغلبها النعاس ، ورأت فى الحلم " أم الغراب " معلقة فى شجرة التوت وتقول : - " أولدوز " ! ... لقد ذهبت ، لا تنسى كلامى ... ولا تخافى . فاندفعت " أولدوز " إلى الشجرة وهى تجرى ، وعندما اقتربت خرجت لها زوجة الأب من وراء الشجرة تريد أن تركلها بقدمها ، ففزعت " أولدوز " من الحلم وأجهشت بالبكاء ، ولم تجد حولها سوى الأب وزوجته هذه المرة فى الغرفة فغلبها النعاس مرة أخرى ، ورأت نفس الحلم ، وظلت هكذا تستيقظ تارة ، وتارة تنام وتحلم ... وعندما تمالكت نفسها وجدت أن الليل قد حل ، وأن الطبيب يكشف عليها ، ثم يقول للأب : - جرحها

بسيط وسيشفى سريعا ، ولكن هذه الطفلة خائفة جداً ، ترتعد ، هناك شئ ما قد أوصلها إلى حالة من الخوف الشديد ، وسأعطيها حقنة مهدئة حتى تنام .

قالت " أولدوز " : أنا جائعة .

فأحضرت لها زوجة الأب حليبا فشربته ، وأعطاها الطبيب حقنة وأخذ حقيبته وانصرف .

أخذت " أولدوز " تحملق فى السقف ولم تتكلم ، وأرادت أن تستمع للحديث الدائر بين الأب وزوجته ، ولكن سرعان ما غلبها النعاس ، ولم تستمع المزيد .

حُزن الغراب وتأمله وفقده لأمه وكيف أُسرت " أم الغراب ":

فى صباح اليوم التالى تذكرت " أولدوز " الغراب الصغير فارتعشت يدها وانسكب الشاى على الغطاء فنظرت لها زوجة الأب نظرة حادة ، ولكنها لم تقل شيئا ، أما الأب فكان مشغولا بارتداء ملابسه ليذهب إلى العمل . حاولت " أولدوز " أن تنهض حتى تذهب إلى الغراب غير أن ذلك كان يبدو عملا جنونيا ولم تكن تعرف ماذا حل بالغراب الصغير ولاكيف وقعت " أم الغراب " فى يد زوجة الأب، وكانت زوجة الأب قد نزعت فى الصباح الباكر ذلك المنديل الذى تربط به عينها وعلى حاجبها وجبهتها تبدو آثار منقار " أم الغراب ".

وبعد خروج الأب قالت الزوجة : - أنا ذاهبة إلى أم " ياشار " ، وسأعود سريعا ، فلم أذهب للحمام منذ وقت طويل ، هذه المرة لاأستطيع اصطحابك معى ، وسأرى إذا كانت أم " ياشار " تستطيع الذهاب معى إلى الحمام .

حقا كانت زوجة الأب تتكلم بحنان وعطف ، ولم يسبق أن تحدثت بهذه اللهجة من قبل مع " أولدوز " ولكن " أولدوز " لم تكن لديها الرغبة فى محادثتها لأنها تكرهها ، وخطرت لها فكرة فقالت لها : - أمى ، الآن تذهبين للحمام ، قولى لـ " ياشار " أن يأتى إلى هنا حتى لاأملّ من الوحدة .
قطبت زوجة الأب جبينها وقالت : - " ياشار " يذهب إلى مدرسته .
لم ترد " أولدوز " عليها فخرجت زوجة الأب وأسرعت " أولدوز " ونهضت وذهبت إلى عش الغراب الصغير فوجدت المسكين قابعاً وسط المخلفات وهو يبكى وما أن رأى " أولدوز " حتى قال : - أخيرا حضرتِ ...!!
قالت " أولدوز " : - أعذرنى لأنى تركتك وحيدا .
قال الغراب : - الآن إحضرى لى شيئا آكله فأنا جوعان جداً وعطشان ، ثم نتحدث بعد ذلك .
ذهبت " أولدوز " وأحضرت له طعاما وجاءت ، فأكل الغراب لقيمات ثم قال : - لقد اعتقدت أنك ذهبتِ أيضاً كما ذهبت أمى .
قالت " أولدوز " : - وأين ذهبت أمك ؟
قال الغراب : - لم تذهب إلى مكان قط ، ظلت زوجة أبيك تضربها حتى ماتت ، ثم ألقت بها فى صندوق القمامة .
سأمسكت " أولدوز " نفسها عن البكاء وقالت : - أى نهاية هذى !! الآن نهشت الكلاب لحمها وأكلته .
قال الغراب : - لا ، فلحمنا مر المذاق والكلاب لا تجرؤ على أن تمسه

بأنيابها ، فمن يموت منا يظل ملقى حتى يتعفن ويتبعثر، وستظل أمي في صندوق القمامة أوفي مكان آخر آخذة في التعفن .
لم تستطع " أولدوز" السيطرة على نفسها فبكت وبكى الغراب أيضاً ، وأثناء البكاء قالت " أولدوز" : - الآن ستحضر زوجة أبي وترانا ، سأذهب الآن ، وعندما تذهب زوجة أبي إلى الحمام سآتي إليك مرة أخرى .
وأغلقت " أولدوز" عش الغراب وأسرعت تنام متدثرة باللحاف ، وحضرت زوجة الأب وأخذت ملابسها في بقجة وذهبت، فهدأت بذلك نفس " أولدوز" وذهبت إلى غرابها وأخرجته من العش ، وتركت الباب مفتوحا حتى تدخل الشمس ساطعة مشرقة .
رفرف الغراب بجناحيه وأخذ يمسح منقاره بالأرض يمينا ويسارا ثم قال : - حقا يا عزيزتي " أولدوز" ، الحرية شئ جميل .
تنهدت " أولدوز" وقالت : - أتعرف لماذا جاءت أمك في الصباح ؟
قال الغراب : أعرف .
قالت " أولدوز" : - أتستطيع أن تخبرني ؟
قال الغراب : - جاءت لتحملني وتعلمني الطيران ، فقد سطعت الشمس وجاءت أمي مبكرا وقالت : اليوم يوم مناسب للطيران ، وسآخذ إخوتك وأخواتك لأعلمهم الطيران ، وأنت أيضاً لابد أن تأتي، ثم أعيدك بعد ذلك ، فقلت لها : وماذا عن " أولدوز" ؟ ألم تخبريها ؟ فقالت أمي سأخبرها . ثم وضعتني في العش ، وذهبت لتخبرك ، وبعد مدة لم تخرجي أنت . وبينما كنت بالعش سمعت صوت أمي تصرخ بألم ، وخفق قلبي ، وصراخ أمي يصل إليّ وهي تقول : - أليس لنا حق

الحياة فى هذه المدينة ؟! ... لماذا لا ينبغى لنا أن نصادق من نريد علانية ؟ نظرت من ثقب بباب العش فوجدت زوجة الأب وقد أمسكت بأمي ووضعتها تحت الغربال ، ومن الواضح أنها لم تفهم أى كلمة من كلام أمي .

فرغ صبر " أولدوز " فسألته بسرعة : - وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال الغراب : - ثم قيدت أمى بعد ذلك بحبل وعلقتها فى شجرة التوت ، فقفزت أمى فجأة ونقرتها فى جبهتها وحاجبها ، وضربتها بجناحيها وجرحت وجهها بمنقارها فتأجج غضبها وأخذت تضرب أمي بعصا غليظة .

قالت " أولدوز " : - ألم تقل أمك شيئا آخر ؟

قال الغراب : - قالت أمى : يا زوجة الأب الجاهلة أتعتقدين أن الغربان تسعد بالسرقة ؟ لو كان لدىَّ طعام أستطيع أن أشبع به نفسى وأولادى فلن أسرق ، لأنى لو سرقت حينذاك فمعنى ذلك أنى مريضة ! إنكم تشبعون أنفسكم وتعتقدون أن الجميع على شبع ...!

صمت الغراب ، ومنعت " أولدوز " نفسها من البكاء وسألته : - وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال الغراب : - بعد ذلك خرجتِ أنتِ بقميص نومك والباقى تعرفينه أنتِ .

خيمَّ الصمت عليهما للحظة ، ثم قالت " أولدوز " : - على العموم لقد رحلت أمك ، الآن ماذا ستفعل ؟

قال الغراب : - لابد أن أتعلم الطيران.

قالت " أولدوز " : - حقا ، فأنا دائمة التفكير فى نفسى فحسب.

قال الغراب: - يا ليت أبى وأخوتي وأخواتى وجدتي يعرفون أين أنا.
قالت " أولدوز" : - نعم ، لكانوا عاونونا .
قال الغراب : - أتتذكرين أن أمى قالت : إن لم أتعلم الطيران بعد عدة أيام سأموت ؟
قالت " أولدوز" : - أتذكر ذلك .
قال الغراب : - أتعرفين حساب الأيام بدقة ؟
عدت " أولدوز" على أصابعها وقالت : - ليس لدينا أكثر من ستة أيام .
قال الغراب : أتعرفين ماذا يجب علينا أن نفعل ؟
قالت " أولدوز" : - ما رأيك أعطيك لياشار ليحملك إلى الخلاء ويعلمك الطيران ؟
قال الغراب : - من هو" ياشار" ؟
قالت " أولدوز" : جارى الذى يسكن جهة اليسار.
قال الغراب : إذا كان ولدا طيبا فلن أعترض !
قالت " أولدوز" : إنه فعلا ولد طيب وأمين على الأسرار ، ولكن كيف أخبره ؟
قال الغراب : - الآن اصعدى للسطح ، وقولى له أن يحضر ليأخذنى .
قالت " أولدوز" : ليس من الممكن الآن ، إنه فى المدرسة .
قال الغراب : مدرسة ؟!! لقد بدأت العطلة الصيفية منذ أيام .
قالت " أولدوز" : - أنت على حق ، فقد خدعتنى زوجة أبى ، فالمدارس الآن فى عطلة ، سأصعد إلى السطح ، وانتظر أنت هنا .
كانت " أولدوز" عند الدرجة الثانية من السلم عندما سمعت صوت

أقدام تأتى من الخارج ، فأسرعت إلى الغراب ووضعته فى العش وأغلقت الباب عليه ، وذهبت إلى غرفتها ونامت تحت اللحاف ، وثبتت عينها على الفناء .

أصبح البيت مكانا خالياً موحشاً :

تناهى إلى سمع " أولدوز " نباح كلب وصر الباب ، ثم دخل الأب وبعده العم ، أخوه الأصغر واندفع وراءهما كلب أسود مربوط بحبل يمسك به العم .

قال الأب : - الآن لا يستطيع أى غراب أن يأتي إلى هنا.

قال العم : - عندما يأتى الشتاء سآتى لآخذه .

قال الأب : - ليس هناك مشكلة ، فعندما يحل الشتاء لن نكون بحاجة إليه .

قال العم : - أين " أولدوز " ؟ هل ذهبت بصحبة زوجة أبيها ؟

قال الأب : - لا ، إنها مريضة ونائمة .

وربطا الكلب بشجرة التوت وعادا إلى الغرفة . وكانت " أولدوز " تحب عمها كثيرا لأنه كان يأتى من قرية أمها .

ظل العم يسأل عن أحوال " أولدوز " ، ولكنه لم يقل شيئا عن أمها لأن الأب كان يضيق صدرا عندما يتحدث أحد عن زوجته الأولى .

قال العم للأب : - ألن تعود إلى عملك ؟

قال الأب : لا ، لقد أخذت اليوم أجازة ، ثم إن الوقت قد مضى .

وعاد للحديث عن الكلاب والغربان مرة أخرى وقال الأب وهو يسب الغربان قائلاً : - لصوص أقذار وجبناء ، يأتون ليسرقوا ، وإذا رأوا شخصا ينحنى ليلتقط حجرا أو شيئا من الأرض فروا هاربين بسرعة.
وصلت زوجة الأب بعد أن انقضت ساعة على آذان الظهر، فنبح الكلب ، وأخرج العم رأسه من النافذة ، وصرخ فيه فسكت إلى جوارها وطأطأ رأسه.
دخلت زوجة الأب وأطرقت بوجهها أمام العم ، وكذلك كان العم يفعل حتى أنه لم يكن ينظر قط إلى وجه زوجة أخيه الأكبر، وكانت " أولدوز " تجلس صامتة تحملق فى وجه عمها وفجأة قالت له : - عمى ، هل تستطيع أن تأخذ كلبك معك ؟
تعجب الأب من كلامها ، وانتقل العم إلى جوار " أولدوز " وسألها : - لماذا آخذه معى؟
تلعثمت " أولدوز " وحارت جوابا ، وفى النهاية قالت : - أنا ... أنا خائفة .
قال الأب : - دعك من هذا يا بنت لا تتظاهرى .
قال العم: - لا تخافى يا عزيزتى ، فالكلب أليف وسأقول له ألا يؤذيك.
قال الأب : لا تعبأ بها ، لقد أصبحت لا تفهم كلام الآدميين ، بل أصبحت أسوأ من الكلب نفسه ، فهى تعض الجميع ، ودائما تدافع عن الغربان اللصوص بدون سبب ، ولا أدرى أى خير رأته من هذه الطيور القذرة .
لم تقل " أولدوز " شيئا آخر وسحبت اللحاف على رأسها ونامت . وعندما استيقظت وجدت عمها قد ذهب ، والكلب ينبح في الفناء

ويخيف الغربان ويبعدها منذ ذلك اليوم أصبح البيت خاليا ، ولم يستطع أى غراب الاقتراب منه ، حتى " أولدوز " كانت تذهب للفناء وهى خائفة ومرتعدة ، وذات مرة كانت تحمل قطعة لحم ضأن للغراب فهجم الكلب الأسود عليها ، وخطفها من يدها ، فصرخت " أولدوز " وجرت إلى الداخل .

أيام كلها قلق وحيرة وجوع وخوف :

نهضت " أولدوز " من فراشها ، والتأم جرح جبهة زوجة الأب سريعا، أما جرح رأس " أولدوز " فقد استغرق وقتا طويلا حتى شفى !!! ولقد تغير سلوك زوجة الأب فأصبحت أسوأ من ذى قبل . وكانت آثار أسنان " أولدوز " ما زالت واضحة فى لحم فخذها .

وأصبح وضع الغراب سيئا ، فهو دائما جوعان ، وبالرغم من أن " أولدوز " كانت تبذل قصارى جهدها ، إلا أنها لم تستطع توصيل الطعام والماء له فى ميعاده . وكأنه كان للكلب الأسود أربع عيون يراقب بها المكان وينبح على كل صوت يسمعه ولايعرفه . وكان " ياشار " هو الأمل الوحيد لـ " أولدوز " والغراب ، فإن هو ساعدهما لصارت الأمور على ما يرام ، ولكنهما لا يعرفان كيف يخبرانه !! ومن شدة خوف " أولدوز " من الكلب لم تكن تستطع الصعود إلى السطح، فالكلب الأسود لم يكن يعطيها فرصة ، فكان يثير ضجة ، وكان من الممكن أن يعضها فهو دائما يتجول في الفناء ويتشمم .

وكانت أم " ياشار " أحيانا تأتى لزيارتهم ، ولكن لم يكن يصح أن تقول لها شيئا ، فمن أين تعلم أنها ليست صديقة حميمة لزوجة

الأب ، ثم إن زوجة الأب لا تتركها تجلس بمفردها مع شخص ما .
وتعاقبت الأيام - ومضت خمسة أيام كلها قلق وحيرة و... وكانت " أولدوز " تعلم أنه لابد للغراب أن يتعلم الطيران اليوم ، وإذا لم يتعلم فسوق يموت . أما كيف يتعلم الطيران ؟ فإنها لا تدرى !!
وفى النهاية حانت الفرصة ، واستطاعت أن ترى " ياشار " ، ففى نفس اليوم أرادت زوجة أبيها أن تذهب إلى عرس ، فقالت لها " أولدوز " : - يا أمى أخاف من الكلب ، ولا أستطيع أن أبقى فى البيت بمفردى .
عبست زوجة أبيها ، وأخذتها من يدها وتركتها عند أم " ياشار " .
وفرحت " أولدوز " من أعماق قلبها ، ولكنها لم تجد " ياشار " في البيت ، فسألت أمه : - أين " ياشار "؟
قالت الأم : - لقد ذهب إلى المدرسة يا عزيزتى ، فقد فتحت المدارس أبوابها بالأمس .
فجلست " أولدوز " تنتظر " ياشار " .

خطة لتحرير الغراب :

حان وقت الظهيرة ، وجاء " ياشار " راكضا ، وعندما رأى " أولدوز " إحمر وجهه وسلم عليها ، فردت " أولدوز " عليه السلام - وكان لـ " ياشار " أخت رضيعة ، كانت أمها ترضعها كى تنام - بعد ذلك توجه " ياشار " و " أولدوز " إلى الفناء .
وقالت " أولدوز " بهدوء وحزن : - " ياشار " أتعلم ماذا حدث ؟
قال " ياشار " :- لا !

قالت " أولدوز " : - سيموت غرابي !!
قال " ياشار " : - أي غراب ؟
قالت " أولدوز " : - غرابي ، غرابي ... يا أخي
قال " ياشار " : - أكان لديك غراب ؟
قالت " أولدوز " : - نعم لديَّ ، والآن ماذا نفعل ؟
سألها " ياشار " بلهفة : من أين حصلت عليه ؟
قالت " أولدوز " : - سأخبرك فيما بعد ، الآن قل لي ماذا نفعل ؟
قال " ياشار " : - هل سيموت من الجوع ؟
قالت " أولدوز " : - لا
قال " ياشار " : - إذن لماذا سيموت ؟!
قالت " أولدوز " : - لا يستطيع الطيران ، وإذا لم يستطع الغراب الطيران فإنه حتما سيموت .
قال " ياشار " : - أعطه لي ، وسأعلمه .
قالت " أولدوز " : - لقد أخفيته تحت السلم .
قال " ياشار " : - هل تعرف زوجة أبيك ؟
قالت " أولدوز " : - إذا علمت قتلته .
قال " ياشار " : - لابد من حيلة !!
قالت" أولدوز " : - أولا: لابد أن نتخلص من الكلب ، ألا تسمع صوته؟
قال " ياشار " : - أسمعه ، ولن يتركنا نحمل الغراب خارجا ، أمهليني يوما أو اثنين لأفكر وأرسم خطة وأدبر أمره .
قالت " أولدوز " : - ليس لدينا فرصة ، لابد أن نأخذ الغراب اليوم ، وإن لم نستطع سيموت ، هكذا أخبرتني " أم الغراب " .

كان " ياشار " يشعر بانفعال ، وبأن هناك أشياء كثيرة مجهولة ، فسأل متسرعا : - من " أم الغراب " هي الأخرى ؟
قالت " أولدوز " : - هي أم الغراب الصغير، وسأحدثك عنها فيما بعد، ولكن الآن لابد أن نفعل شيئاً حتى لا يموت الغراب .
قال " ياشار " : لن أذهب إلى المدرسة بعد الظهر، ونذهب سرا ونحضر الغراب .
تناولت أسرة " ياشار " طعام الغداء جبنا وخبزا وخضرا ، وبعد الغداء ذهب أبو " ياشار " لعمله ، وذهبت أمه بأخته الرضيعة لتنام .
قال " ياشار " : - لن أنام أنا و " أولدوز " ، فلابد من عمل الواجب .
كان " ياشار " يلقى بهذه الأكاذيب بين الآن والآخرليترك بمفرده .

القتل تخليصاً للغراب من سجنه :

بعد قليل خرج " ياشار " و "اولدوز" وصعدا إلى السطح عن طريق السلم ، وأخذا ينظران هنا وهناك ، فلاحظا أن الكلب الأسود طليق يربض أمام باب الغراب .
قال ياشار : سأنزل وأحضر الغراب .
قالت اولدوز : ألا ترى ؟، الكلب رابض أمام الباب ؟
قال ياشار : حقا ؟ يا للغراب المسكين ، ترى إلى أى حال قد وصل ؟
قالت اولدوز : لا أعتقد أنه شديد الخوف الآن ، فغرابي شجاع ..
قال ياشار : ماذا سنفعل الآن ؟
قالت اولدوز : نفكر، وندبر خطة .
قال ياشار : سأفكر الآن وأدبر خطة .

وكان هناك برميل خل خاص بزوجة الأب في ركن بالسطح ، وقد ثبت بأحجار وضعت من حوله حتى لا يقع ، وعندما وقعت عينا " ياشار " على الأحجار، برقت في رأسه فكرة فقال:

- هيا نقتل الكلب. ردت اولدوز بدهشة :

- نقتل ؟ !

قال ياشار : نعم بالطبع نقتل ، حتى نتخلص من شره إلى الأبد .

فقالت اولدوز : أنا خائفة .

قال ياشار : سأقتله أنا .

قالت اولدوز : أليس ذلك حراما ؟

قال ياشار : حرام ؟ لا أعلم إن كان حراما أم لا ، لكن ليست هناك طريقة أخرى، نحن أيضا لم نسيء لأحد حتى يكون حراما ..

قالت اولدوز : الكلب مُلك لعمي.

قال ياشار : ليكن ، لماذا أحضر عمك كلبه وربطه هنا ؟ بالطبع ليخيفك ، وليسجن الغراب ، أليس كذلك ؟

لم تستطع اولدوز الرد ، فذهب ياشار بهدوء ، ورفع حجرا كبيرا وسأل اولدوز :

- هل يوجد أحد في المنزل ؟

قالت اولدوز: ذهبت أمي إلى عرس ، ولا أعلم أين أبي ، إني أشفق على الكلب ..

قال ياشار : هل تعتقدين أني سعيد بقتل الكلب ؟ ولكن ليست لدينا طريقة أخرى..

نزل ياشار درجة واحدة من السلم حتى يقترب من رأس الكلب تماما، ثم رفع الحجر إلى أعلى ، وتركه يسقط فجأة على رأس الكلب ، فزام الكلب بصوت مختنق، ثم بدأ يفلفص بيديه وقدميه ..فجأة، سمعا صوت والد اولدوز فانسحبا مسرعين ، وخرج الأب ، ورأى الكلب وهو يحتضر، فهمس ياشار في أذن اولدوز قائلا : هيا نهرب ، لأنه سيرى الحجر فيصعد إلى السطح .

قالت اولدوز: أتترك الغراب ؟

قال ياشار: بعد ذلك سآتي إليه .

نزل كل منهما بهدوء ، وجلسا في الغرفة ، وبعثرا كتب ياشار أمامهما، حتى إذا حضر أى شخص يعتقد أنهما يستذكران دروسهما . لكنهما كانا يرتعدان بشدة ، وقد شحب وجهاهما . وتعالى صوت أقدام الأب على السطح ، ثم خفت وانقطع . وصعد ياشار بمفرده إلى السطح ، وكان والد اولدوز قد إرتدى ثيابه ، ووقف بجوار جثة الكلب ، ثم تركه وخرج إلى الدرب .

وتذكر ياشار ذلك اليوم الذي ألقى فيه حجرا على زجاج منزل اولدوز فكسره ، فأحضر الأب الشرطة ، وأحدث ضجة .. نزل ياشار مسرعا عندما تذكر كل هذا ، وأخرج الغراب ، وقال له : أنا ياشار، وقد قتلت الكلب لأخلصك ..

قال الغراب وهو يلهث : شكرا ، ولكن فات الوقت ..

قال ياشار: لماذا ؟

قال الغراب : لقد قالت أمي أن الموعد حتى ظهر اليوم ، بالإضافة إلى أنني جوعان وليست لدي القدرة على الطيران .

قال ياشار بحزن وهو على وشك البكاء : ألن تأتي معي الآن لأعلمك الطيران ؟

قال الغراب : قلت فات الوقت ، قل لأولدوز أن تنتزع عدة ريشات من جناحي وتحتفظ بها ، فسوف يأتي الغربان ويسألون عني ..

أنهى الغراب كلامه ، ثم أغلق منقاره ، وبرد جسمه ، ومات . فبكى ياشار ، ثم خطرت له فكرة شيطانية ، ولمعت عيناه وابتسم ، وأسرع وحمل جثة الغراب ووضعها على السلم ، وألقى حجرا في وسط المطبخ، ووضع جثة الكلب تحت شجرة التوت ، ثم أحضر دلو ماء ، وغسل الدم المتناثر على النافذة وأسفل الدرج ، ثم ترك الدلو مقلوبا وسط الغرفة ، و حمل الغراب وخرج ، وتذكر السطح ، إذ يجب عدم ترك أى أثر هناك ، فصعد وأزال كل أثـر.

كانت اولدوز تبكي وهى حزينة جدا ،ولكن ما حدث قد حدث ، وليس في إستطاعتها عمل أى شيء. وظل ياشار يواسيها ، ثم قال لها : إذا أردت ألا تحدث أشياء أسوأ من ذلك ، لا بد أن تسكتى حتى لا يصل الخبر إلى أحد، وسيحل البلاء والمصائب بهم بحيث يشغلون بها ، لقد تعلمت اليوم شيئا جديدا من المعلم ، وسوف أخوف زوجة الأب والأب بحيث يخافا من ظلهما !!

ثم قص على اولدوز كل ما قاله الغراب وفعله ، عند ذلك إستعادت اولدوز شيئا من تماسكها ، ونزعت عدة ريشات من ريش الغراب الصغير، ووضعتها في جيبها ، وحمل ياشار جثة الغراب ، وأخفاها ، حتى يدفناها بعد ذلك .

أطفال عقلاء يتلاعبون بالآباء والأمهات :

جلس الطفلان ينتظران ، وفجأة تعالت أصوات ، وكان أبو اولدوز يصيح ويصرخ ، وكانت هناك أصوات أخرى تشاركه الصياح . إستيقظت أم ياشار واندفعت تجرى إلى الفناء ، ثم تنبهت وعادت فوضعت العباءة على رأسها ، وصعدت إلى السطح فوجدت والد اولدوز يصرخ كالمجنون ، ويدق على رأسه ، ويقول : -واحسرتاه .. واحسرتاه .. أنا مسكين.. لقد عرفوا الطريق إلى بيتي .. العفاريت .. لن أستطيع أن أمكث هنا ثانية ، لقد عرفوا الطريق إلى بيتي ... العفاريت !!

وتحلق الشرطي وعدة رجال آخرون حوله يريدون تهدئته ، لكن والد اولدوز أشار إلى جثة الكلب ، وصرخ قائلا :

- أنظروا ، من الذى أحضره وألقى به هنا ؟ من الذي رفع الحجر من هنا ؟ من غسل الدماء ؟ العفاريت .. جاءوا أولا وقتلوا الكلب .. ثم .. واحسرتاه .. واحسرتاه !!

وقفت اولدوز وياشار أسفل الدرج يسترقان السمع بعد أن منعتهم أم ياشار من الصعود إلى السطح ، وأخذ كل منهما يغمز للآخر ، ويضحكان من جهل الأب وبقية الأشخاص ، وكانا سعيدين لأن كل هؤلاء الناس صدقوا ما فعلاه سخرية بالآخرين.

سحب الجميع الأب إلى الغرفة ، لكنهم فجأة صرخوا جميعا صرخة خوف ، ثم تضرعوا قائلين :أدركنا يا الله .. العفاريت !!

جرى الأب مـرة أخـرى إلى الفنـــاء ، وأخـذ يصـرخ كالمجـانين وهـو يركض هنـا وهنـاك ، وكـان منظـر الدلـوا المقلوب قـد أدخـل الرعـب في قلوب الجميع .

قـال شيـخ: عرفـوا الطريـق إلى البيـت .. العفـاريت ، فتشـوا البيـت ، وليذهـب أحدكـم ، وليحضـر صـارف الجـن ، وليذهـب آخـر وليحضـر كاتب الدعاء . وصرخ الأب :

- ساعدونـــي ، لقد خرب بيتي .

ذهب أحدهم لإحضـار السيد قلي صـارف الجن ، وذهب آخر لإحضـار " ميرزا ولي " كـاتب الدعـاء . وأسـرعت عجـوز إلى منزلهـا ، وأحضـرت إطـارا قديمـا كتب في داخله بخط متشابك " بسم الله " لتصرف بهـا الجن ، وأخذ رجلان الإطار قائلين " بسم الله " ، وشرعا يبحثان في كل أركـان المنزل ، وفجأة نظرا فوجدا حجـرا كبيرا ملطخـا بـالدم وسـط المطبخ ، فحملاه بخوف وذهبا به إلى الفنـــاء . وعندمـا رآه الأب ، عـاد إلى الصراخ قائلا :

- واحسرتـاه .. واحسرتـاه .. لماذا الحجـر هنـاك ؟ من وضعـــه هنـاك ؟ العفاريت ؟ لقد وقعوا في ... يريدون أذاي .. أى ذنب اقترفت ؟

استمعت اولدوز وياشار إلى كل مـا دار من أحـاديث من حيث وقفـا تحت السور وأخذا يضحكـان ، ثـم دخلا الغرفة بسرعة حتى لا يراهم من على السطح . وقال ياشار:

- الآن سـوف تحضـر زوجـة أبيك فـانظري أي مصيبـة ستحل بهـا ،، سينقلب العرس الذي كانت فيه سما بالنسبة لهـا .

وضحكا بصوت عال من كل قلبيهما ، وأسرع ياشار ، فوضع يده على

فم اولدوز حتى لايسمع أحد صوتـهـا .

وأخبر أحدهم زوجة الأب ، فأسرعت إلى المنزل ، وعندما رأت منظر زوجها ، أغشي عليها وسقطت وسط الفنـاء ، فحملنها النسـاء إلى منزل الجيران الأيمن . وقالت العجـوز :
– لابد أن تحضروا صارف الجن وكاتب الدعاء أولا ليصرفوا الجن ، حتى تستطيع المرأة الحامل العودة إلى البيت .
وبعد نصف ساعة ، وصل صارف الجن وكاتب الدعاء . ووضع صارف الجن طستا مقلوبا أمامه ، وقرأ عليه كلاما عجيبا غريبا ، ثم طلب مرآة فخرجت أصوات عجيبة وغريبة من الرجل ومن تحت الطست ، وفي النهاية قال :
– يا من أنتم أفضل منا ، أستحلفكم بملككم ، إبتعدوا عن بيت هذا الرجل المسلم ، ولا تؤذوه !!
ثم أخذ يحملق في المرآة ويتصنت، ثم قال لوالد اولدوز :
– اليوم لم يستفتحوا ، أعطهم خمسين تومانا ليذهبوا إلى حالهم .
ساومه والد اولدوز، وفي النهاية دفع ثلاثين تومانا ، فأخذها صارف الجن ، وحمل الطست وخرج وهو يكرر : – يامن أنتم أفضل منا ، إبتعدوا عن منزل هذا الرجل
المسلم ولا تؤذوه ... بحق سلطان الجن عليكم ..
وبعد قليل نهض ضاحكا وقال للأب :
–من حسن حظك أنهم ابتعدوا وانصرفوا سريعا ، ولن يعودوا ثانية بشرط أن ترضيني .

عند ذلك تنهد الأب ، وأعطى لصارف الجن ثلاثين تومانا أخرى وصرفه . ثم جاء دور كاتب الدعاء ، فكتب أشياء بخط معوج بمداد أسود وبرتقالي ، ثم أخفى الورقة في زاوية من زوايا البيت ، وأخذ عشرين تومانا وذهب .

وأحضروا زوجة الأب . ولم يعلم أحد متى إنصرف الشرطي .

حل الليل ، وأخذت أم ياشار اولدوز إلى منزلها ، ومن شدة خوف الأب وزوجته ، لم يفكرا في اولدوز طوال ذلك الوقت .

ثلج وبرد وعطلة وانتظار :

جاء الخريف ومعه الثلج والبرد ، وبعده حل الشتاء ، وازداد الثلج والبرد إلى حد كبير ، وجاء العم يبحث عن كلبه ، فعلم بما حدث ، فتشاجر مع الأب بسبب ما حدث لكلبه ، ثم عاد غاضبا خالى الوفاض .

ظلت زوجة الأب خائفة ، وملأت باب المطبخ والحائط بالأدعية المطبوعة والمكتوبة باليد ، ومن شدة خوفها فلم تكن تخرج بمفردها ليلا ، فكانت تأخذ " أولدوز " لترافقها فى الطريق ، أما " أولدوز " فلم يعرف الخوف طريقا إلى قلبها ، فكانت تخرج بمفردها وهى سعيدة فى قرارة نفسها على ما أصاب زوجة أبيها . وكانت " أولدوز " قد أخفت ريش الغراب فى صندوق المذياع . ولم تكن ترى " ياشار "وكان " ياشار " قد دفن جثة الغراب فى مكان خفى ، وانتظم فى ذهابه إلى المدرسة ، واستذكار دروسه .

وأحيانا كان يضيع منه قلمه الرصاص فتتشاجر معه أمه الغاضبة

التى كانت تقول له :- أنت لا تفكر كيف أن أباك يتعب فى إحضار النقود لتشترى بها الأقلام.

وكانت معالم التقدم فى الحمل تزداد وضوحا على زوجة الأب ، وقد قالت لها جارتها : - باقي لك أسبوع أو إثنان وتلدين .

فكانت ترد عليهم : - من المحتمل أن يكون قبل ذلك .

فقالت جاراتها : - إن شاء الله سيعيش هذه المرة .

فردت زوجة الأب : - إن شاء الله سأنذر نذراً ، ومن المؤكد أنه سيعيش .

كان أبو " ياشار " عاطلاً فى أغلب الأحيان يذهب للعمل مع الفعلة ، وكان ثلج الشتاء يتساقط بشدة، فإذا إستيقظت مبكرا ونظرت إلى الخارج وجدت الثلج قد غطى النوافذ حتى نصفها ، حتى إن العصافير كانت تتجمد من شدة البرودة ، فتتساقط مثل أوراق الشجر فى الخريف .

وذات صباح رأى الأب غرابين على حافة السطح فأحضر هراوة وصعد إليهما وضربهما ، فأسقطهما، ووجدهما متجمدين من شدة البرودة ، وحزنت " أولدوز" حزنا شديداً . وبعد عدة أيام عرف " ياشار " الخبر من أمه ، فقال لنفسه : - لعلهما كانا يسألان عن الغراب الصغير ، مسكينان !

وكانت أم " ياشار " تأتى كل صباح لتساعد زوجة أبى " أولدوز " وتغسل لها الأوانى ، وتنظف لها المنزل ، ثم تعود إلى منزلها ظهرا ، فكانت خادمة باليوم ، وكانت " أولدوز" تحبها فهى امرأة طيبة . وأحياناً كانت زوجة الأب تذهب وتتركها ، فتنتهز " أولدوز" الفرصة

وتتحدث معها ، وتسألها عن أحوال " ياشار " وتحملها السلام له ، وأيضاً كانت الجارات الأخريات يترددن على البيت ، ولكن " أولدوز " كانت تحب أم " ياشار " أكثر من الجميع ، ورغم ذلك لم تحدثها عن أسرارها ، بل كانت تنتظر الغربان بمفردها ، وهى على يقين أنهم سيأتون يوماً .

ظل الأب منتظما فى الذهاب إلى عمله والعودة إلى المنزل ، وذات ليلة قال لزوجته : - أنا فى أشد الشوق إلى الطفل ، فإذا عاش هذه المرة فسأرسل " أولدوز " الى مكان آخر حتى تستريحى ، أما إذا توفى فلن أستطيع إبعاد " أولدوز " عنى .

وكانت زوجة الأب متفائلة هذه المرة بأن الطفل سيأتى إلى الدنيا حيا، لأنها نذرت نذراً كبيراً ، أما " أولدوز " فكانت تغار من هذا الطفل الذى لم يولد بعد وتتمنى من كل قلبها أن يولد ميتا !!

النذور لا تمنع قدرا

ذكرى من أم الغراب :

أخيرا وضعت زوجة الأب وليدها ، وكان طفلا حيا ، فوفّوا بالنذر ، وكتبوا أدعية وأحجبة كثيرة ، ونحروا الذبائح إتقاء للحسد ، وأشعلوا الشموع ، وأحضروا المنشد لينشد لهم روضة " على الأصغر " ، وأضافوا نذورا كثيرة من أجل ألا يموت الوليد ، ولكن فى نهاية الأسبوع الأول أوشك الطفل على الهلاك ، وعندما حضر الطبيب قال :

- إن الطفل لم يكتمل فى بطن أمه ، ولذا من الصعب أن يعيش الطفل وأنه لا يستطيع عمل شئ من أجله . ومات الطفل فى اليوم التالى .

مرضت زوجة الأب من الهم والغم ، وكانت تردد ليلا ونهارا : - لقد خنق العفاريت طفلى ، انهم حتى الآن لم ينصرفوا من عندنا ، فلتعمَ عين الحسود التى حسدته فقتلته !!

وكانت أم " ياشار " لا تفارق زوجة الأب طوال النهار ، وتظل جالسة بجوارها ، وأحيانا كان " ياشار " يأتى ليتناول الغداء عند أمه فيتحدث قليلا مع " أولدوز " ، ولكنه لم يكن يعرف أى شئ عن الغربان ، وأحياناً كان يلمح غراباً يطير بمفرده فى السماء ، وأحياناً أخرى كان يسمع نعيق غراب ، إلا أنه سرعان ما كان يصمت . أما أشجار الحور الأبيض فقد نفضت كل أوراقها وبدت عارية ، فتذكرت " أولدوز " أم الغراب ، وكيف كانت تجلس على الأغصان الرقيقة وتنعق وتهتز ، وكيف كانت تطير وتذهب !!

ويمضى الشتاء ببرده القارس :

كان الشتاء يمضى قارسا بصعوبة شديد البرودة ، فيتكدس الثلج سريعا فى وسط الفناء بإرتفاع الأسوار . ويندر وجود الفحم والكيروسين ، وترتفع الأسعار إلى ثلاثة أضعاف . وكان أبو " ياشار " دائماً عاطلا، وأمه تنتقل من بيت إلى آخر لكى تعمل وتغسل الملابس، وأحيانا كانت تحمل أخباراً لاتصدق ، فمثلا كانت تقول أن هناك عائلة فقيرة تجمدت بالأمس من شدة البرد . وذات يوم جاءت باكية

وقالت لزوجة الأب : - ابنتى تجمدت من شدة البرد أسفل الكرسى " المدفأة الإيرانية " وماتت.
وحزن " ياشار " على أخته حزنا شديداً ، وكاد إحساسه بموتها أن يذهب بعقله ، فكان يبكى أمام " أولدوز " ويقول: - لم يبق إلا القليل وأتجمد أنا أيضا من شدة البرد لأن كرسينا بارد فى أغلب الأحيان لعدم وجود الفحم .
فتمسح " أولدوز " دموعه وقالت : - لا تبك وإلا بكيت أنا أيضا
وذات مرة سكت " ياشار " ثم قال : - لقد قال أبى لأمى هذا الصباح : فى هذه المخروبة ما من أحد يقول : لماذا يبقى أناس بدون فحم !!
قالت " أولدوز " : - هل أبوك يعمل ؟
قال " ياشار " : - لا ، إنه دائماً جالس بالبيت يفكر، وأحيانا يذهب لكسح الثلوج .
قالت " أولدوز " : - لماذا لا يذهب ويبحث عن عمل ؟
قال " ياشار " : - دائما يقول إنه لا يوجد عمل .
قالت " أولدوز " : - لماذا لا يوجد عمل ؟. فلم يجب " ياشار " .

رائحة الربيع :

قلت الثلوج ، وأعلن الربيع عن مجيئه ، فجرت المياه ، وتنفست الخضرة ، وتفتحت الزهور، وذهب الشتاء بقسوته ، بعد أن أزهق الكثير من الأرواح ، وعاش بقية الناس بصعوبة بالغة .
حزمت أم " ياشار " كرسيها البارد الخالى ، وفتحت النافذة ، وذهب أبو " ياشار " مع عشرة أو عشرين شخصا إلى طهران ليعمل فى

قمائن الطوب . ويبقى " ياشار " وأمه فى البيت بمفردهما مثل السنوات الماضية .

وأخيرا تحسنت صحة زوجة الأب التى لم تكن تحب أن ترى " أولدوز "، فكانت " أولدوز " تقضى أغلب وقتها فى بيت " ياشار " .

ولم تحاول زوجة الأب أن تمنعها وكان أبو" أولدوز " يتظاهر بالعطف عليها، لكنها كانت تستاء منه أيضا ، وكان الأب يقول لها : - هذا العام سوف أرسلك إلى المدرسة .

من يعرف لغة الغربان :

حل شهر " خرداد " " مايو ويونيه " ، وانشغل " ياشار " بامتحانات نهاية العام. وقال لـ " أولدوز " فى ذلك اليوم : - بالأمس رأيت غرابين يحومان حول المدرسة .

فقفزت " أولدوز " من مكانها وقالت : - حقا ، وماذا بعد ذلك ؟

قال " ياشار " : - بعد ذلك ذهبت إلى المدرسة سريعا كى أؤدى اختبار مادة الحساب ، وعندما خرجت لم أجدهما .

جلست " أولدوز " فى مكانها بهدوء ، وقال لها " ياشار " : - لاتحزنى ، إذا كان الغرابان من أصدقائنا فإنهما سيعودان .

قالت " أولدوز " : - أتحدثت معهما ؟

قال " ياشار " : - لم أجد فرصة ، ثم إننى لا أعرف لغة الغربان .

قالت " أولدوز " : - بل تعرف .

قال " ياشار " : - من أين تعرفين..؟

قال " أولدوز " : - لإنك عطوف ، وقلبك صاف ، كما أنك لست

أنانياً ، ولست كزوجة أبي .
قال " ياشار " : - أين تعلمتِ هذا ؟
قالت " أولدوز " : - كل الأطفال الطيبين يعرفون لغة الغربان ، هذا ما قالته أم الغراب ، ولم أختلقه من نفسي .
سُر " ياشار " من هذا الخبر ، ومن شدة سعادته أمسك بيد " أولدوز " وضغط عليها وقال : - لا أعرف لماذا لم أستطع الحديث مع الغراب في هذا اليوم ، ولا أتذكر كيف حدث ذلك ؟!

عودة الغربان :

مضى يومان أو ثلاثة ، وأصبح الصيف أكثر اقترابا ، فازدادت حرارة الجو ، لذلك كان الكبار يحبون النوم ظهرا خاصة بعد تناول الغداء ويجبرون الأطفال أيضاً على النوم .
وذات يوم كان " ياشار " عائدا إلى منزله بعد أن أنهى اليوم الأخير من الإمتحانات وأثناء سيره في طريق العودة إلى المنزل سمع " ياشار " صوتا يصيح باسمه من خلف شجرة التوت الموجودة أمام المسجد القريب من المدرسة . وكان الوقت ظهرا ، تلفت " ياشار " حوله فلم يجد أحدا ، فقد كان الشارع خاليا . وعندما هم باستئناف السير سمع مرة أخرى ذات الصوت يصيح من خلفه: " ياشار " .
فعاد " ياشار " الى الخلف يبحث عمن يناديه ، فوقع نظره على غرابين يحطان فوق شجرة التوت ويبتسمان . إهتز قلب " ياشار " وأخذ يدق بسرعة وقال : - أيها الغرابان ، كيف تعرفتما عليَّ ؟
قال أحدهما بصوت رقيق : - يا سيد " ياشار " ، ألست صديق " أولدوز " ؟

قال " ياشار " : - بلى ، لماذا تسأل ؟
قال الغراب الآخر بصوت أجش : - حقيقة إن أمنا لم ترك ، ولكن " أولدوز " كانت قد وصفتك لها، ولذلك أخذنا وقتا طويلا فى البحث عنك فى المدرسة لكى نجدك ، ولأننا فى البداية لم نكن نرغب فى رؤية " أولدوز " لأن جدتنا كانت قد أوصتنا بذلك، فكيف حالها ؟
قال " ياشار " : - إنها تخشى أن تكونا قد نسيتموها يا سيدى الغراب .
قال الغراب ذو الصوت الأجش : - فلتسمح لنا أن نقدم لك أنفسنا ، أنا أخو الغراب الذى كان لديكما ومات ، وهذه أختى الآنسة غرابة .
قالت الآنسة غرابة : - كان لدينا أخ آخر تجمد من شدة البرد ومات ، وكذلك مات أبونا حزنا على أمنا .
قال " ياشار " : - البقية فى حياتكما .
قال الغرابان : - نشكرك .
فكر " ياشار " وقال : - ليس من المناسب أن نتحدث هنا فتعاليا معى إلى المنزل فلا يوجد هناك أحد .
قبل الغرابان الدعوة ، ثم حلقا فوق رأسه وهو يسير فى طريقه ولايستطيع أحد أن يصف حال " ياشار " ، فكم كان فخورا بنفسه ، كان ينظر للسماء ، وأحيانا ينظر إلى الغرابين ، ويبتسم ، ثم يواصل السير مرة أخرى ، وفى النهاية وصلوا إلى البيت . وأحضر " ياشار " المفتاح من الجيران لأن أمه لم تكن قد حضرت إلى البيت ظهرا .
دخل " ياشار " وهبط الغرابان وجلسا على الدرج ، فقال لهما " ياشار " : - ألا ترغبان فى رؤية " أولدوز " ؟

فى نفس اللحظة تصاعد صوت بكاء " أولدوز " من الناحية المقابلة للحائط ، فصمت ثلاثتهم ، وبعد لحظة قالت الآنسة غرابة : - لايمكن أن نرى " أولدوز " فلا تتعجل .

وقال السيد غراب : - نعم ، فلنذهب إلى مدينة الغربان ونخبرهم ثم نعود بعد ذلك لنراها ، سنعود فى نفس اليوم ، هلا بلغت " أولدوز " سلامنا !!

عندما أصبح " ياشار " بمفرده ، صعد إلى السطح متوقعا حدوث شئ ما ، ولم تخرج " أولدوز " إلى الفناء ، فنزل من أعلى السطح ، وتناول الغداء المكون من الخبز والجبن الذى تركته له أمه ، ثم صعد مرة أخرى . وكان الجو شديد الحرارة فخلع قميصه وتمدد على ظهره حتى يستطيع التأمل فى السماء ، ووجدها صافية زرقاء بها عدة طيور وكأنها تنزلق لا تطير.

إتفاق الفرار

الفرار من أجل العودة :

كانت المائدة معدة لطعام الغداء ، وقد أجلس الأب " أولدوز " وعيناها دامعتان - إلى جانبه ، ومع ذلك استمرت تبكى بحرقة ، فقالت لها زوجة الأب : - تشتهى علقة ، فهيأت مقدماتها ، كفاكِ لقد أحدثت جلبة .

قال الأب : - ابنتى العزيزة ، كنت طفلة مطيعة ، ماذا تريدين ؟

لم تقل " أولدوز " شيئا ، وأخذت تبكى بحرقة ، فقالت زوجة الأب : -

تقول أنها ستموت كمدا من الوحدة ولابد أن تتركها تذهب وتلعب مع " ياشار " .

وأسرعت " أولدوز " بالقول : - نعم ، أريد رفيقا للعب وأنا أتضايق من الوحدة .

وبعد أن دار حديث قصير بينهم قرر الأب أن تذهب " أولدوز " إلى " ياشار " فى بعض الأحيان على أن تعود بسرعة ، ففرحت " أولدوز " بذلك فرحا شديدا ، وذهب الأب وزوجته للنوم بعد تناول الغداء ، ولكن " أولدوز " صعدت إلى السطح وركزت كل تفكيرها فى لقاء الغربان والجلوس على السطح . وفجأة وضعت عينيها على " ياشار " وكان نائما باستمتاع ، وكانت الشمس ساطعة شديدة الحرارة ، ذهبت " أولدوز " وجلست بالقرب من رأس " ياشار " وأخذت تمسح بيدها على شعره ، ففتح " ياشار " عينيه وضحك ، وضحكت " أولدوز " أيضا ، فاعتدل " ياشار " جالسا وارتدى قميصه وقال : - أتعرفين يا " أولدوز " أى حلم رأيت ؟

قالت " أولدوز " : - لا .

فقال " ياشار " : - رأيت فى الحلم أن كلا منا يمسك بيد الآخر وقد جلسنا فوق السحاب ، ونحن ذاهبان لعرس الآنسة غرابه ، وباقى الغربان تطير وراءنا .

أحمر وجه " أولدوز " ثم سألت : من هي الآنسة غرابة ؟

قال " ياشار " : - ألم أخبرك !!

قالت " أولدوز " : - لا

قال " ياشار " : - رأيت الغربان وتحدثت معهم.

قالت " أولدوز " : - متى ؟
قال " ياشار " : - أثناء عودتى من المدرسة قابلت أخا الغراب وأخته واتفقنا على أنهما سيأتيان .
قالت" أولدوز " : - هل الآنسة غرابه هي أخت الغراب الصغير نفسه؟
قال " ياشار " : نعم
قالت " أولدوز " : ما أخبار الغراب الأب ؟
قال " ياشار " : - يقولون أنه مات حزنا على زوجته .
أثناء الحديث ظهر الغرابان من وراء الأشجار، واستمرا فى التحليق حتى وصلا إلى السطح ، ثم حطا على الأرض، وسلما على " أولدوز " و" ياشار " فحملت " أولدوز " أحدهما وقبلته ووضعته فى حجرها وتعرفت عليه وسألته عن أحواله ، قال السيد غراب : - " أولدوز " إن جميع الغربان يقولون أنه لابد أن تأتى إلينا .
قالت " أولدوز " : - معنى ذلك أن أهرب من البيت ؟
قال الغراب : - نعم لابد أن تهربى وتأتى عندنا ، فإن جلوسك هنا معناه موتك حزنا ، فنحن نعلم أن زوجة أبيك تؤذيك أذى شديدا .
قالت " أولدوز " : - كيف أستطيع أن أهرب ؟ إن أبى وزوجته لن يسمحا بذلك ، حتى عمى لم يأت إلى منزلنا منذ أن قتل كلبه ؟
قالت الآنسة غرابه : - إذا أردت الحضور فالغربان سيرشدونك إلى الهروب .
وحتى تلك اللحظة لم يكن " ياشار " قد اشترك فى الحديث ، ولكنه قاطعهما ،وقال : - معنى ذلك أن تذهب " أولدوز " ولا تعود ؟
قالت الآنسة غرابة :- هذا حسب رغبتها هى ، فيم تفكر يا"ياشار " ؟

قال " ياشار " : - إننى أوافقك الرأى على إنها إذا بقيت هنا ستنتهى ولن تستطيع عمل شئ ، أما إذا ذهبت الى مدينة الغربان ... فلا أدرى كيف سيكون حالها .

قال الغراب : - سنأتى غدا لمواصلة الحديث ، وأيضا تكون " أولدوز " قد فكرت .... إلى الغد ....

ذهب الغرابان ، وسألت " أولدوز " : - هل تعتقد أنه يجب على أن أذهب ؟

قال " ياشار " : - نعم ، إذهبى ، ولكن عودى مرة أخرى ، أتعديننى بأن تعودى ؟

قالت " أولدوز " : - أعدك يا " ياشار " .

الجدة وحديث عن الهرب وأسلوبه :

ظهر اليوم حضر الغرابان وبصحبتهما غراب عجوز قدمته الآنسة غرابه بقولها : - هذه هي الجدة .

تحركت الجدة حتى صارت إلى جوار " ياشار " و " أولدوز " ، ثم جلست فى مواجهتهما ، وقالت : - جميع الغربان سعداء لعثورنا عليكما ، فقد أثنت عليكما ابنتى كثيرا .

قالت " أولدوز " : - هل كانت أم الغراب ابنتك ؟

قالت الجدة : - نعم ، كانت ممتازة !!

تنهدت " أولدوز " وهى تقول : - لقد قُتلت من أجلى .

قالت الجدة : - عدد الغربان ليس واحدا أو اثنين ، ولن ينقرضوا بالموت أو القتل ، فعندما يموت واحد منهم يأتى للدنيا إثنان .

قال " ياشار " : - " أولدوز " ترغب فى الذهاب إليكم .
قالت الجدة : - حسنا جداً ، إذن لابد أن نبدأ العمل .
قالت " أولدوز " : - هل يمكننى العودة فى أى وقت أريد ؟
قالت الجدة : - بالطبع لابد أن تعودى ، فنحن الغربان لا نحب الشخص الذى يترك بيته وحياته وأصدقاءه ويهرب لكى يعيش فى راحة بدون معرفة أى شئ عن الآخرين .
قالت " أولدوز " : - كيف سآتى إليكم ؟
قالت الجدة : - أولاً وقبل كل شئ لابد من وجود شبكة متينة ، لذلك لابد أن تنسجيها .
قالت " أولدوز " : - شبكة !! فى أى شئ ستفيدنا ؟
قالت الجدة : - الفائدة الأولى لها أن يعرف الغربان أنك لست كسولة وأنك تعملين وتتحملين المشاق من أجل سعادتك ، والفائدة الثانية أنك ستجلسين عليها وتحملك الغربان وتطير بك إلى مدينتنا .
وفى خلال الحديث تدخل " ياشار " قائلا : - أنصتى لى أيتها الجدة ، من أين نحضر الخيط والصوف ؟
قالت الجدة : - نحن الغربان على استعداد دائم لمساعدة الأشخاص الطيبين ، سنحضر نحن الصوف ، أما أنتما فاغزلاه وانسجا الشبكة .
وعلى السطح كان يوجد عدة أحجار كبيرة جمعتها زوجة الأب بعيدا عن جرة الخل ، فقالت الجدة : - سنجمع الصوف ونضعه وسط هذه الأحجار.
تحدثوا قليلا عن موضوعات متعددة ثم ذهب الغربان .

قالت " أولدوز " : - " ياشار " ، أنا لا أعرف كيف أنسج الخيط والشبكة . قال " ياشار " : - أنا أعرف ، فقد تعلمت من أبي .

الغربان يحاولون

الأطفال يجتهدون

العمل يتقدم :

كانت مدرسة " ياشار " في عطلة ، وكانت اللغة الفارسية عنده قد تحسنت ، وأصبح يستطيع أن يقرأ خطابات أبيه ، ثم يشرح معناها لأمه ، وأيضا كان يستطيع قراءة الكتب . وكانت أم " ياشار " لا تزال تذهب لغسل الملابس ، وأبوه يعمل في قمائن الطوب بطهران . وكانت الغربان تتردد كثيرا على بيتهم ، وكثيرا ما كانت تلحظهم زوجة الأب حين تنظر للسماء ، فيسيطر الخوف عليها من كثرتهم . أما " أولدوز " فكانت تحتفظ بوجهها خاليا من أي تعبير . وكثيرا ما كانت زوجة الأب تتضايق من هذا فتقول أمامها : - لا ينبغي أن يكون للمرء علاقة مع الغربان . ولكن مظهر " أولدوز " الهادئ البريء لم يكن يدل على ذلك .

تقدم العمل في غزل الخيط في بيت " ياشار " ، وتوفرت له الخبرة ، وأخذ يغزل بالمغزل مثل الكبار ، بينما أخذت " أولدوز " تفتل الخيوط بيدها ، وأيضا كانت تعد الخيوط الغليظة . وكان في الفناء عش صغير ظل خاليا . فأخفيا فيه الحبال .

وفي بعض الأحيان كانت الجدة تأتي لتسأل عما وصل إليه العمل .

فكان " ياشار " يعرض عليها الخيوط المغزولة فتضحك وتقول : - حسنا ، أنتما طفلان ممتازان لا تجعلا أحدا يعرف ، وأخفيا عملكما ، وافتحا عيونكما وآذانكما .

قال " ياشار " و " أولدوز " : - لا تخافى أيتها الجدة ، حقا إننا صغار السن ولكن عقولنا كبيرة ، ونستطيع أن ندرك أنه لا يجب على الإنسان أن يظهر كل عمل من أعماله ولكن عليه أن يظهر بعض الأعمال ويخفى بعضها .

أخذت الجدة تمسح منقارها المعوج بالتراب وقالت : - أنا سعيدة بكما ، لأنه هناك فرقا كبيرا بينكما وبين آبائكما وأمهاتكما . عفارم ! عفارم ! أنتما الآن طفلان ولم تنضجا بعد ، ويجب أن تتعلما أشياء كثيرة وسيكون تفكيركما أفضل من ذلك .

وأحيانا كانت الآنسة غرابة تأتى مع أخيها ، ويجلسان فى مواجهتهما ويتحدثان معهما عن مدينتهما ، عن أشجار الحور الأبيض ، عن السحاب والرياح والجبال ، وأخذا يثنيان على الوادى والصحراء والبركة، وقد تعرف " ياشار " و " أولدوز " على خمسين أو ستين غرابا آخرين . وقالت الآنسة غرابة : إن مدينة الغربان يعيش فيها أكثر من مليون غراب ، ولقد بعث هذا الحديث السرور فى وجدان الطفلين ، فكم هو جميل أن يعيش مليون غراب فى مكان واحد دون أن تكون هناك مشاجرات بينهم .

رفيق سفر " أولدوز " :

ذات يوم كان " ياشار " و " أولدوز " يغزلان ، فرفعت " أولدوز "

رأسها فرأت " ياشار " ينظر إليها وهو ساكن لا يتحرك ، فقالت : - لماذا تحملق فىَّ هكذا يا " ياشار " ؟ ماذا هناك ؟

قال " ياشار " : كنت أفكر.

قالت " أولدوز " : - فيم تفكر ؟

قال " ياشار " : آه ، يعنى على هذا النحو.

قالت " أولدوز " : - لابد أن تخبرنى .

قال " ياشار " : - حسنا ، سأقول لك ، إنى أفكر فى أنك عندما ترحلين ستقتلنى الوحدة .

قالت " أولدوز " : - كنت أفكر أنا أيضا فى ذلك بالأمس ، ليتنا نسافر معا ، فالسفر بمفردى لن يكون مسليا .

قال " ياشار " : - هل ترغبين فى أن أرافقك ؟

قالت " أولدوز " : - أريد ذلك من كل قلبى ، ولابد أن نقول ذلك للجدة .

قال " ياشار " : - سأخبرها بنفسى .

فى اليوم التالى جاءت الجدة فقال لها " ياشار " : - أيتها الجدة ، هل أستطيع مرافقة " أولدوز " فى المجىء إليكم ؟

قالت الجدة : - تستطيع بالطبع ، ولكن ألن تتألم لفراق أمك ؟ إنها سيدة طيبة ولاينبغى أن تتركها وتهرب !

قال " ياشار " : - لقد فكرت فى ذلك ، وسأخبرها قبل سفرى بيوم .

قالت الجدة : - إذا وافقتك أمك فليس هناك مشكلة ، سنحملك أنت الآخر .

زاد هذا الكلام من حماس "ياشار"و"أولدوز" وأقبلا على العمل بجد وسرعة .

سارقو السمك ، سارقو الصوف :

لا أثر للأدعيـــــة :

نجح " ياشار " فى الامتحان ، وفى اليوم التالى الذى أحضر فيه شهادته إلى البيت ، كتب رسالة إلى أبيه ، وكان يقضى معظم الوقت مع " أولدوز " ، وكان هذا يوافق زوجة الأب التى تريد إبعاد " أولدوز " عنها ، لذلك لم تكن تضايقهما كثيرا ، وعلى كل كانت دائماً قلقة من الغربان ، فكثير من الغربان تأتى وتذهب ، وهذا ماجعلها قلقة دائما ، وخائفة من أن تحل البلايا على رأسها فى النهاية .

والأب ايضاً لم يكن مرتاحا لهذه الظاهرة خاصة بعد ما ذهب إلى حوض السمك فلم يجد فيه شيئا ، وكانت الآنسة غرابة وأخوها قد أخذا سمكتين لهما وواحدة للجدة والباقى للغربان الآخرين ، لذلك عندما كان الأب وزوجته يريان غرابا فى أى مكان ، كانا يسبانه بأقبح الألفاظ ويقذفانه بالحجارة .

وذات يوم اشترى الأب زبيبا ، وأعطاه لزوجته لكى تصنع منه خلا ، وحملت زوجة الأب الجرة إلى السطح ، وثبتتها بالحجارة ، وفجأة عثرت على مقدار كبير من الصوف بين الأحجار ، فأحضرته لدى زوجها وقالت : - أنظر ! إن الجن كان يهزأ بنا ، حتى الآن لم يرفعوا أيديهم عنا ، من الذى جمع هذه الأشياء ووضعها وسط الأحجار ؟

قال الأب : - لابد أن أمنعهم .

قالت زوجة الأب : - غدا أذهب لكاتب الدعاء لآخذ منه دعاء قويا يخيف الجن ويجعلهم يفرون .

وفى اليوم التالى قابلت " أولدوز " " ياشار " وقصت عليه ما حدث فضحك وقال : - لابد أن نسرقه وإلا تعطل عملنا لعدة أيام ، وسرقت " اولدوز" الصوف وأحضرته ، فوضعاه في كوخ الكلب الخالي ، ونظر ياشار إلى الصوف فوجد أنه كاف ، فأخبرا الغربان بألا يحضروا صوفا آخر. ذهبت زوجة الأب إلى كاتب الدعاء وأحضرت دعاء ذا تأثير قوى ، ولكنها عندما رأت أن الصوف قد اختفى زاد اضطرابها أكثر من ذى قبل .

" ياشار " يحصل على موافقة أمه

قصة الكلب الذى يفهم معنى الكلام :

بدأ الطفلان منذ ذلك اليوم فى نسج الشبكة ، ففى البداية قاما بإصلاح الحبال الغليظة ، ثم بعد ذلك عقدا بعضها ببعض .

كان لدى أم " ياشار " حبل غسيل من السلك ، وكان " ياشار " يريد أن يأخذه من أمه ويضعه على الحبال حتى تصبح الشبكة أكثر متانة وقوة .

وذات ليلة ، قال " ياشار " لأمه وهما يتناولان طعام العشاء : - أمى! إذا سافرت لعدة أيام هل تحزنين ؟

اعتقدت أم " ياشار " أنه يمزح .

فعاود " ياشار " سؤاله : - أمى ! هل تسمحين لى بالسفر لعدة أيام ؟ وأعدك أن أعود بسرعة .

قالت أمه : - قل لى أولا من أين ستحضر نقودا للسفر ؟

قال " ياشار " : - لست فى حاجة إلى النقود .
قالت أمه : - حسنا ، مع من ستذهب ؟
قال " ياشار " : - لا أستطيع أن أقول لك الآن ، ولكن ستعرفين وقت السفر.
قالت الأم : - حسنا ، إلى أين ستسافر؟
قال " ياشار " : - سأخبرك عن هذا أيضا وقت السفر.
قالت أمه : - وأنا أيضا سأسمح لك وقت السفر.
أعتقدت الأم أن " ياشار " يمزح معها ويريد أن يتحدث عن مثل هذه الأشياء الكبيرة جدا التى أصبحت توافق سنه ، لأنه منذ عدة سنوات عندما كان صغيرا فى الصف الأول الابتدائى كان يتحدث بمثل هذه الأحاديث العظيمة بكثرة ، فكان يجلس على وسادة ويقول : - أريد أن أذهب إلى السماء وأقطف عدة نجوم صغيرة وأحضرها وأعمل منها أزرارا لسترتى .
ولم يكن " ياشار " وقتها يعلم أن كل واحدة من هذه النجوم هي أكبر منه بمئات الملايين من المرات ، وأن بعضها أكثر حرارة آلاف المرات من نار كرسى التدفئة .
كذلك عندما عاد فى يوم من الأيام إلى المنزل وقت الغداء ، وقد سحب وراءه كلبا شريدا ، سأله أبوه وأمه : - يا ولد ، لماذا أحضرت هذا الحيوان القذر إلى البيت ؟
فأجاب " ياشار " متعاليا : - لا تقولي هذا ، إنه يعرف الكلام ، لقد تعبت كثيرا حتى علمته الكلام ، كما إنه مطيع ، فإذا طلبت منه شيئا يفعله فورا .

ضحك الأب وقال : - إذا كنت تقول الصدق ، فخذ هذه النقود واطلب منه أن يذهب ويشترى رغيفين من الخبز ويحضرهما .

فأجاب " ياشار " : - لابد أن يأكل أولا ، وبعد ذلك ... !

فوضعت الأم قطعة من الخبز اليابس أمام الكلب فأكلها وأخذ يهز ذيله ، فهز " ياشار " رأسه وقال : - إفهم ما تقول يا رفيقى .

قال الأب : - حسنا ، ماذا يقول يا " ياشار " ؟

قال " ياشار " : - يقول ، عزيزى " ياشار " : هناك شئ ملتصق بين أسنانى ، أرجوك أن تفتح فمى وتخرجه !

دهش الأب والأم و " ياشار " يفتح فم الكلب بهدؤ ويدخل يده بداخله حتى ينظف ما بين أسنان الكلب ، وفجأة عوى الكلب وحرك أرجله بشدة ، وصرخ " ياشار " بألم ، فضرب الأب الكلب وألقى به خارجا لأن يد " ياشار " جرحت فى عدة أماكن ، وظل " ياشار " يتأوه لفترة .

قال " ياشار " لأمه فى ذلك اليوم : - وقت الذهاب حتما ستأذنين لى أليس كذلك ؟

قالت الأم : - نعم

قال " ياشار " : - أمى ! أتعطيننى حبل الغسيل السلك ؟

قالت الأم : - فى أى شئ تريده ؟ أى خدعة لديك يا ابنى العزيز ؟

قال "ياشار " : - ليس لدى خدعة ولا يحزنون ، وإنما أحتاجه لسفرى.

ظلت الأم فى حيرة ، فهى لا تعلم قصد إبنها ، وفى النهاية وافقت على أن تعطيه الحبل ، وعندما حل وقت النوم قال " ياشار ": - أمى؟

فأجابت الأم : نعم ! ... ماذا تريد ؟

قال " ياشار " : - أتعاهديننى ألا تذكرى هذا الحديث لأحد ؟

قالت الأم : - اهدأ بالا ، لن أخبر أحداً ، ألا تعرف أنه لو كان أبوك هنا لضحك على حديثك هذا ؟
سكت " ياشار " ، وخلد إلى النوم فى الفناء بينما كانت مشاهدة النجوم شيئا مسليا جدا .

يوم التحرك :

ظل العمل يتقدم بسرعة ، وقد ساعدهم على ذلك عدم حضور أم " ياشار " فى أغلب الأيام ظهرا للبيت ، وكانت الغربان أيضاً قد قللت من ذهابها وإيابها إلى المنزل لأن زوجة الأب كانت تراقبهم باهتمام ، لذلك قالت الجدة : من الأفضل أن نقلل من ذهابنا إلى المنزل ، وإلا لو فهمت زوجة الأب لفسدت الأمور.
تم نسج الشبكة فى أواخر شهر يوليو، وحضرت الجدة ورأتها فأثنت على العمل وقالت : - لقد تحملتما مشقة كبيرة ، والآن حان الوقت لتجنيا الفائدة .
قال " ياشار " و" أولدوز " : - متى نتحرك ؟
قالت الجدة : - إذا رغبتما ، فموعدنا غدا ظهرا .
قالت " أولدوز " و" ياشار " : - كلما أسرعنا كان أفضل .
قالت الجدة : - انتظرا ظهر الغد ، فإذا سمعتما غرابين ينعقان ثلاث مرات فاحملا الشبكة واصعدا فوق السطح .
كاد قلب الأطفال يتوقف من شدة الفرح ، وأرادا النهوض والرقص ولكن دارت بينهما أحاديث قليلة عن أشياء متفرقة ، وطارت الجدة

وحطت أعلى شجرة الحور الأبيض التى كانت تبعد عن بيتهم بعدة بيوت ، وأخذت تنعق وتنعق ، وتهتز ثم سكتت وطارت .

هؤلاء الذين لا يعرفوا الخبر ، يقولون :
لقد جُنَّت " أولدوز " ! :

حل الليل ، وأخذت " أولدوز " تضحك أثناء العشاء ، فقالت زوجة الأب : - لقد جُنتّ البنت ، وأخذ الأب يسال : عم تضحكين يا ابنتى ؟ لإنى لا أرى شيئا مضحكا !!

قالت " أولدوز " : - أضحك من السعادة ، فاغتاظت زوجة الأب

وسأل الأب : - ما سبب هذه السعادة ؟

قالت " أولدوز " : - لا يوجد سبب ولكنى سعيدة وخلاص !!

قالت زوجة الأب : - دعك منها ، لقد جنت

أم طيبة ورحيمة :

حان وقت النوم وقال " ياشار " لأمه : - هل تستطعين أن تتواجدى فى البيت غدا عند الظهر ؟

قالت الأم : - هل تحتاج إلىَّ ؟

قال " ياشار " : - نعم ، سأخبرك غدا فى الظهر عند سفرى .

قالت أمه : - حسنا سأعود فى الظهر إلى المنزل .

لم تكن الأم تعرف شيئا عما يفعله إبنها ، كما أنها حقيقة كانت قد نسيت موضوع السفر ، لكنها بعد حديث " ياشار " تذكرته ، وكانت

مؤمنة بأن " ياشار " ولد ممتاز ولن يفعل شيئا سيئا ، ولذا كانت تحبه جدا . وعندما كانت تذهب لغسل الملابس كان دائمة التفكير فيه ، وكانت تفضل أن تجوع لكى تشترى له الملابس والأقلام والأوراق ، إنها أم رحيمة وطيبة لذا فإن " ياشار " لم يكن يخدعها فى أمر مهما صغر ، ولم يكن يؤذى شعورها قط .

التحرك ،

" أولدوز " فى السجن :

سطع النهار ، ولم يعد باقيا على التحرك إلا ساعات قليلة ، وكان الوقت يمر بطيئا ، كان " ياشار " وحيدا بالمنزل ، لذلك لم يهدأ ، ولم يستقر مطلقا ، وذهب إلى الفناء وأخذ يتجول هنا وهناك ، وقد إنحصر فكره فى " أولدوز " وأمه ، والشبكة أكثر من مرة وفردها فى وسط الفناء ، وجلس فوقها ، ثم جمعها ووضعها فى مكانها.
حضرت أمه وقت الظهيرة ، وقد أحضرت معها عنبا وخبزا وجبنا ، وجلسا وتناولا الغداء معا وكان " ياشار " حائرا وقلقا على " أولدوز "، وكانت الأم تنتظر أن يبدأ ابنها بالكلام ، ولكنه ظل هكذا لا ينطق بكلمة وكان " ياشار " يفكر... إذا لم تستطع " أولدوز " المجىء فماذا سيحدث ؟ ... قطعا ستفسد خطتنا ، لو أن زوجة الأب وقعت فى يدى فإنى أعرف ماذا سأفعل بها . سأشد شعرها ، الدنسة !! لماذا لم تترك " أولدوز " تأتى إلىَّ ؟ وإذا نعقت الغربان ماذا سأفعل ؟ إلى الآن لم تأت " أولدوز " ، إن قلبى سيقفز من صدرى .... .

تعلل " ياشار " بإحضار الماء ، وذهب إلى الفناء ، وسمع صوت الأب وزوجته يأتى من خلف الحائط ، وكانت زوجة الأب تصب الماء والأب يغسل يديه ، فقد حضر لتوه من العمل ، وقالت زوجة الأب : - ألا تعرف ماذا فعلت ابنتك بى ، ... لقد اضطررت فى النهاية إلى حبسها فى المطبخ ...

وفى نفس الوقت كان هناك غرابان يحطان على شجرة الحور الأبيض وعندما رآهما " ياشار " أخذ قلبه يدق ويفكر ، ماذا سيفعل مع " أولدوز " ؟ هل يرسل إليها أمه ؟ ... المصيبة أن تكون زوجة الأب حبستها حقا !!

طار الغرابان واقتربا من رأس " ياشار " وابتسما له ، وجلسا على شجرة التوت وفجأة شرع الإثنان فى النعيق .

كان صوت الغرابين يشبه نفير الحرب : وكان يصاحب ذلك الصوت خوف وحركة واهتزاز. وأحس " ياشار " بالاضطراب لحظة ، ثم استرد قلبه ، وتوجه ببرود إلى العش حاملا الشبكة ، وصعد إلى السطح بهدوء ، وبينما كان الأب وزوجته بالداخل. جاء الغرابان ووقفا بجانب " ياشار " ، وسألاه عن أحواله ، وفرد " ياشار " الشبكة، ومضت نصف دقيقة ولم تأت " أولدوز "، وتقدم من الطرف الأيسر.

قال أحد الغرابين : - إنهم آتون ... لماذا لم تأت " أولدوز " ؟

قال " ياشار " : - لا أعرف ... ربما تكون زوجة أبيها قد حبستها ؟

وازداد الشيء الأسود اقترابا ووصل صوت الغربان المخنوق للأسماع ، ولم تأت " أولدوز " أيضاً . ووصلت الغربان ، وملأ نعيق الآلاف منهم السماء والأرض وصار لون الأبواب والحوائط أسود من الغربان ، ولم

يعد ثم مكان خال فوق شجرة التوت.

وكان الناس جميعا قد خرجوا من بيوتهم وقد سيطر الخوف عليهم جميعاً .

وقفت أم " ياشار " في وسط الفناء ، وكانت تضع وعاء فوق رأسها وأخذت تصيح : أين أنت يا " ياشار " ؟ الآن ستفقأ الغربان عينيك !..

ولما سمع " ياشار " صوت أمه توجه إلى حافة السطح وقال : - لاتخافي يا أمي إنهم أصدقائي . إن كنت تحبينني فأذهبي وأحضري " أولدوز " إلى هنا ، أرجوك يا أمي !! اذهبي ... فلابد أن نسافر نحن الإثنان معا ....

نظرت إليه أمه وهي حائرة ، ولم تقل شيئا !!! ... وأخذ " ياشار " يتوسل إليها : اذهبي يا أمي !! ... أرجوك ... الغربان أصدقاؤنا ... لاتخافي منهم !!

ولم يدرِ " ياشار " ماذا يفعل ... وأوشك على البكاء وجاءت الجدة أمامه وقالت له : - أذهب وأجلس فوق الشبكة ، وسأذهب أنا مع غربان آخرين للبحث عن " أولدوز " لنر أين هي .

وأخرج نعيق الغربان الناس إلى الأفنية . وكان كل واحد منهم يضع شيئا على رأسه ، وكانوا ينظرون إلى السماء بذعر شديد ، وبعض الناس كانوا من شدة خوفهم .

ينظرون من خلف النوافذ ، والعجائز يصرخن ويقلن : البلاء نازل علينا ... إذهبوا ... وادعوا ... وصلّوا ... وانذروا النذور.

وفجأة خرج الأب إلى الفناء وبيده عصا ووراءه خرجت زوجته وكان كل منهما قلب على رأسه قدرا ، فقالت الجدة: - أيها الغربان التفوا حول هذه المرأة وزوجها ولا تتركوهما يتحركان .

انقضت الغربان على رأسيهما مما جعل الأوعية تصدر صوتا مخيفا أصاب الأب وزوجته بالذعر.

دخلت الجدة المنزل مع بعض الغربان الآخرين ، وكان صوت صياح " أولدوز " يأتى من المطبخ ، فقد كان باب المطبخ مغلقا ، وحاولت " أولدوز " فتح الباب بأن تضربه بسكين حتى تحدث به ثقبا ، وفعلا أحدثت بالباب ثقبا صغيرا . وأثناء محاولتها وصلت أم " ياشار " ، فأفسحت لها الغربان الطريق ، وأخذت أم " ياشار " تضرب القفل بحجر حتى كسرته وأخرجت " أولدوز " وأخذت تحتضنها وتقبلها .

قالت لها " أولدوز "- أيتها الأم ، لا تقلقى علينا سنعود سريعا ، ولاتخبرى زوجة أبى أنك أخرجتنى حتى لا تؤذيك .

أجهشت أم " ياشار " بالبكاء ، وأسرعت " أولدوز " وأحضرت بقچة ملابسها من عش الدجاج وصعدت إلى السطح . وكانت الغربان تحيط بها . وعندما وصلت بجوار " ياشار " ألقت بنفسها فى حضنه ، وكان " ياشار " فاتحا يديه ليستقبلها واحتضنها بشدة وأخذ يبكى من شدة الفرح .

شكرت الجدة أم " ياشار " ، وصعدت إلى السطح وقالت : - أيها الغربان تحركوا .

فجأة بدأت الغربان تتحرك ، وأمسكت الشبكة بمناقيرها ومخالبها وارتفعت بها . وكان " ياشار " يربط حبالا بأطراف الشبكة حتى

يستطيع الغربان حملها بواسطتها . صاح " ياشار " من أعلى قائلا :-
أمي، نحن ذاهبون ، أبلغي سلامي لأبي ، سنعود سريعا ، ولا تحزني!!
ترك الغربان الأب وزوجته ، ومضوا في طريقهم ، فوقف الأب وزوجته
في وسط الفناء يصرخان ويلقيان بالأحجار والأخشاب ، وقد تمزقت
ملابسهما وجرح جسماهما في أماكن مختلفة .
وأخيرا ابتعدت الغربان عن المدينة .
أحاط آلاف الغربان بالطفلين ، ولم يكن هناك مكان خال قط سوى
فوق رأسيهما ، وأخذت " أولدوز " تنظر إلى السحاب ، وتقول لنفسها
كم هو جميل !! وكانت الغربان تزغرد بفرح وهي تطير

كانوا ذاهبين إلى مدينة الغربان

كانوا ذاهبين إلى مكان أفضل من بيت الأب

كانوا ذاهبين إلى حيث لا توجد زوجة الأب

ألقوا بالبزازات بعيداً

ذكرى الرفاق الشهداء المأسوف عليهم :

جاءت الجدة ، والآنسة غرابة والسيد غراب ، وجلسوا أمام
الطفلين ، وتكلموا معهما بعض الكلمات ، ثم تركوهما وذهبوا إلى
العمل مثل الآخرين ، فتحت " أولدوز " بقجة ملابسها وأخرجت
قميصا وقالت لـ " ياشار " : - هذا قميص أبي ، لقد سرقته من أجلك،
وستلبسه فيما بعد .
فشكرها " ياشار " .

وكان بالبقجة مقدار من الخبز والزيد أيضاً ، وأخرجت " أولدوز" من جيبها عدة ريشات من ريش الغراب وأعطتها للجدة وقالت : - أيتها الجدة ، هذه ريشات (السيد غراب) كنا قد احتفظنا بها للذكرى ، والآن نعطيها لك . ولن أنسى أنا و" ياشار" (السيد غراب وأمه) مطلقا فقد قُتلا من أجلنا

أخذت الجدة الريشات وطارت ، وأثناء طيرانها فوق رأس الطفلين وفوق الغربان صاحت بصوت مرتفع جدا وقالت : - اسمحوا لى أن أتحدث إليكم .

خيم الصمت على الغربان ... وأخرجت الجدة بزازة من تحت جناحها وقالت : - أيها الأصدقاء الأعزاء غرباني الأحباء ! الآن أعطتنى " أولدوز" عدة ريشات من ريش السيد غراب ، فلنحتفظ بها لأنها ذكرى من أم وابن مخلصين وعطوفين ، وهذه الريشات تعلمنا كيف نكون شجعان ومخلصين .

هللت " أولدوز" و" ياشار" .

ونعقت الغربان بصوت مرتفع .

واستمرت الجدة فى حديثها وقالت : - لابد أن نلقى بهذه البزازة بعيدا لان زوجة الأب هي التى اشترتها لتضعها فى فم " أولدوز" تمتصها حتى لا تدع لها فرصة للكلام حتى لا تعبر عما بداخلها من ألم للآخرين .

عرفت " أولدوز" بزازتها فقد كانت هي نفس البزازة التى أعطتها لأم الغراب .

ألقت الجدة بالبزازة لأسفل ، فهللت الغربان وقالت الجدة : - لقد

قتلت زوجة الأب أم الغراب والسيد غراب وهو لايزال صغيرا ، ولكن " أولدوز " و " ياشار " لم ينسيا أصدقاءهما !! فليحيا الأطفال الذين لم ينسوا أصدقاءهم الشهداء .

نعقت الغربان بصوت مرتفع ، وأخذت " أولدوز " و " ياشار " يصفقان ويهللان .

على قمة تلك الجبال

مدينة الغربان

الغربان ساكنو الجبال

كانت الجبال المرتفعة تبدو من بعيد ، نزلت الجدة وقالت : -

قمم هذه الجبال هي مدينة الغربان ، لا تتعجبوا من أننا نتخذ من قمة الجبل منزلا ، فالغربان متنوعة .

٣- الأقرع اللاعب بالحمام

فى قديم الزمان كان هناك ولد أقرع يعيش مع أمه العجوز يحيط بيتهما فناء صغير به شجرة توت ، وكانت هناك ماعز سوداء - يمتلكها الأقرع - كانت تأكل وتجتر تحت الشجرة ، وتحرك ذقنها وتنبش فى الأرض بظلفيها وتثغو.

كانت غرفتهما فى اتجاه القبلة وبها نافذة صغيرة ، وفى وسطها فرن، وفى نهايتها مصطبة ، وبالسقف طاقة مواجهة للسماء لإخراج الدخان وإدخال النور والهواء وما إليها . وكان الأقرع وأمه قد وضعا ورق قش على النافذة بدلا من الزجاج وكانت الجدران من الطين المعجون بالقش تحيطها أرفف وطاقات .

كان " الأقرع " يذهب كل صباح إلى الصحراء ، ليقتلع الشوك والعلف ويجمعهما ، ثم يحضرهما إلى البيت فيعطى الماعز قدرا منهما ، ويخزن الباقى فوق السطح ليبيعه فى الشتاء أو يقدمه مرة أخرى إلى عنزته . أما بعد الظهر فكان يقوم بإطلاق الحمام، فقد كان براجا ممتازا ، وكان لديه عشر أو خمس عشرة حمامه ، وكان يطلق صفيرا جميلا .

كانت العجوز تجلس خلف مغزلها ، تغزل خيوط الصوف من الصباح حتى المساء ، وهكذا كانت الأم وابنها يدبران معاشهما .

كان قصر الملك مواجها لبيتهما وكان قصر جميلا جدا ، حتى أن المرء يبهر من رؤيته ، وكانت ابنة الملك قد عشقت " الأقرع " ، فعندما كان " الأقرع " يصعد فوق سطح بيته ليطلق الحمام ، كانت الأميرة تأتى إلى الشرفة مع وصيفاتها وإمائها لتشاهد البراج " الأقرع " ، وتستمع الى صفيره ، وكانت أحيانا تحدث " الأقرع " بعينها أو بالإشارة بينما

" الأقرع " لا يعيرها اهتماما ، ويأتى بحركات وتصرفات تشير إلى عدم الاكتراث. والحقيقة أن " الأقرع " كان يعشق إبنة الملك - خفية - لدرجة لا يصدقها عقل ، و لا يرغب فى أن تعرف الفتاة ذلك ، لأنه يعرف تماما أن الملك لن يزوج إبنته مطلقا لشخص اقرع ، لا يملك من الدنيا سوى عنزة ، وعشر أو خمس عشرة حمامة ، وأمه العجوز ، وإذا زوجه الملك إبنته ، فإنها لن تستطيع أن تعيش فى كوخ من الطين معبأ بالدخان.

فعلت الأميرة كل ما تستطيع كى تجعل الأقرع يتحدث ، ولكنها لم تستطع ، وذات يوم علقت قلب خروف كثير الثقوب أمام النافذة ولكن " الأقرع " لم ينتبه أيضاً وتعمد إطلاق حماماته صوب تل الشوك ، وهو يصفر ، ويستمع لصوت مغزل أمه . وفى النهاية ، سقطت الأميرة مريضة ، ولم تعد تأتي إلى الشرفة مرة أخرى ، ولم تعد تشاهد " الأقرع " من الشرفة كعادتها .

وجمع الملك الأطباء ليعالجوا الأميرة فلم يستطيع واحد منهم معالجتها ، وكل الرواة فى هذه المواقع يقولون أن الأميرة لم تفصح عن سر قلبها ربما خجلا ، أو حياء ، (ولكننى أقول) أن الأميرة باحت بسر قلبها لأبيها ، وعندما سمع الملك أن إبنته تعشق " الأقرع " البراج إشتعل غضبا ، وصرخ قائلاً : إذا تفوهت بإسم هذا القذر مرة أخرى سأطردك من البلدة ، أهناك قحط فى الرجال حتى تعشقين هذه القذارة ؟ سوف أزوجك إبن الوزير وكفى .

لم تنبس الأميرة ببنت شفة ، وذهب الملك وجلس على العرش ، واستدعى الوزير أمامه وقال له : - أيها الوزير ، لابد - اليوم - أن

تقطع رؤوس حمامات " الأقرع " وتمنعه من الصعودإلى السطح مرة أخرى .
أرسل الوزير مجموعة من خدمه الأقوياء الى بيت " الأقرع " ، وكان " الأقرع " يقدم الَحبَّ للحمام دون أن يشعر بما يحدث حوله ، وأثناء ذلك تكاثر الخدم على بيته ، وفى لمح البصر قطعوا رؤوس الحمام ، وضربوا " الأقرع " وحطموا عظامه تماماً ، وعادوا فحطموا رجل مغزل العجوز أيضا ومزقوا ورق النافذة ، ثم عادوا من حيث أتوا .
مكث " الأقرع " أسبوعا كاملا لا يستطيع حراكا ، ينام فى كوخه الطينى متألما ، وقد دهنت أمه جروحه بالمرهم وهى تلعن الملك وتسبه.
وبعد أسبوع جلس " الأقرع " تحت شجرة التوت ليتنسم بعض الهواء، ويهدئ أعصابه محاولا استعادة قواه . وبينما كان يفكر أين يدفن حماماته ، سمع صوتا آتيا من فوق رأسه ، فاسترق السمع فإذا بحمامتين حطتا على شجرة التوت وهما تتحدثان .
قالت إحداهما : - أختى العزيزة : هل تعرفين هذا الصبى ؟
أجابت الأخرى : لا لا ..!
قالت : - هذا هو الولد الذى سقطت الأميرة مريضة فى فراشها من فرط عشقها له ، وأمر الملك وزيره بقتل حمائمه ، وضربوه ، وتركوه على هذا الحال ، وأخذ الصبى يفكر أين يدفن حمائمه .
قالت الحمامة الثانية : - ولماذا يدفنها ؟
قالت الحمامة الأولى : إذن قولى أنت ماذا يفعل ؟
قالت الثانية : عندما نطير ستسقط أربع ورقات شجر من تحت أرجلنا ، فإذا أعطاها لعنزته لتأكلها ، وأخذ لبن العنزة ، ودهن رؤوس

حماماته ورقابهاستحيا الحمامات مرة أخرى ، وتأتى بأفعال لن تستطيع أى حمامة الإتيان بها ..

قالت الحمامة الأولى : ليت الصبى يسمع كلامنا !!

طارت الحمامتان فى الهواء وسقط من أرجلهما أربع ورقات شجر، فالتقطهما " الأقرع " من الهواء ، وأعطاهما لعنزته فامتلأ ضرعها باللبن ، وأحضر " الأقرع " وعاء وحلب العنزة ، ودهن رؤوس الحمام ورقابها بلبنها ، فأخذت الحمامات تحرك أجنحتها وأرجلها، ودبت فيها الروح والتفت حول " الأقرع " .

خرجت العجوزعلى صوت رفرفة أجنحة الحمام ، فقص عليها " الأقرع " ما حدث ، فقالت : يا بنى العزيز! كف يدك عن تطيير الحمام ، فهذه المرة إذا صعدت إلى السطح سيقتلك الملك .

فقال الأقرع : - أمى : حمامى هذا ليس مثل الحمام الآخر الذى اعتدت عليه ، انظرى !

ثم قال " الأقرع " لحمائمه أثناء ذلك : - يا حماماتى الجميلات ، إفعلن شيئا يسعدنى، ويرضى أمى .

كونت الحمائم دائرة ، وأخذت تهمس ، وفجأة ارتفعت فى الهواء وذهبت ، فبهت " الأقرع " وأمه ، ومضت فترة قصيرة وليس من خبر عن الحمائم .

قالت العجوز: - أهذه هي حمائمك الوفية ؟!

لم تكمل العجوزكلامها حتى ظهرت الحمائم فى السماء ، وكن قد أحضرن معهن طاقية من اللباد ، وأعطين الطاقية للأقرع . فقالت العجوز: عجباً يا لها من هدية عجيبة تلك التى احضرنها لك . والآن

فلتر هل هي مناسبة لمقاس رأسك أم لا ؟ وضع " الأقرع " طاقية اللباد على رأسه .
وقالت : يا أمي ، هل هي مقاسي أم لا ؟
قالت العجوز بتعجب : يا بني ، أين أنت .
قال " الأقرع " : - يا أمي ، أنا في مكاني .
قالت العجوز: أعطني الطاقية لأراها .
خلع " الأقرع " الطاقية وأعطاها أمه ، فوضعتها العجوز على رأسها ، وصاح " الأقرع " : يا أمي ، أين ذهبتِ؟
لم تجب العجوز، وأخذ " الأقرع " يتلفت حوله وهو مبهوت حائر. وفجأة سمع صوت مغزل أمه يرتفع فهرع إلى الغرفة فرأى المغزل يدور وحده ويغزل الصوف ، وهنا أدرك ما هي خاصية طاقية اللباد (طاقية الإخفاء) . فقال : - يا أمي كفي عن المزاح معي ، اعطني الطاقية لأذهب وأحضر قليلا من الطعام لأنني سأموت من شدة الضعف والجوع .
قالت العجوز: إقسم بأنك لن تمد يدك للمال الحرام لأعطيك الطاقية.
قال " الأقرع " : - أقسم بأني لن أمد يدي إلى الأشياء المحرمة علي .
أعطت العجوز الطاقية للأقرع ، فوضعها على رأسه وخرج .
وكان الحاج " على " غازل القماش " يعيش في مكان يبعد عن بيت الأقرع بعدة حارات ، وكان يملك عدة مغازل ومئات العمال والخدم والخادمات.
وكان " الأقرع " ذاهبا في طريقه يحدث نفسه : - حسنا يا عزيزي " الأقرع " ، فلتحسب ولتنظر إلى مال الحاج " على " حلال هو عليك أم

لا؟ من أين أتى الحاج على بالمال ؟ هل من مغازله ؟ هل هو يعمل ؟ إنه لا يعمل شيئا ، ولا يمد يده إلى أبيض أو أسود ، إنه فقط يأخذ أرباح مغازله ويمتع نفسه ، إذن متى يعمل ويدر ربحا؟ عزيزى " الأقرع " شغل مخك جيدا ، أسألك سؤالا وأجب إجابة صحيحة : قل: إذا لم يعمل العمال ، ماذا يحدث للمغازل ؟ بالطبع تتوقف ، فى ذلك الوقت هل تدر المغازل ربحا ؟ بالطبع لا ، النتيجة إذا يا عزيزى " الأقرع " استنتج من هذا أن العمال يعملون ، ولكن الحاج يأخذ كل الربح ويعطيهم القليل فقط ، إذا ثروة الحاج على ليست ملكا له وهى حلال على .

دخل " الأقرع " بيت الحاج على وهو مستريح البال ، وكان بعض الخدم والشغالين فى الفناء الخارجى فى رواح وغدو، وعبر " الأقرع " من وسطهم دون أن يراه أحد، وكان الحاج على جالسا في الفناء الداخلى مع عدد من نسائه بالقرب من حافة الحوض على سرير يتناول طعام العصر من شاى وعسل وقشدة وفطائر. فسال لعاب " الأقرع " وتقدم ورفع لقمة كبيرة ، بينما كان الحاج على ينظر ويرى أن نصف العسل والقشدة قد انتهيا ، فبادر بتلاوة الأدعية والبسملة والتسبيح على سبحته . ورفع " الأقرع " شاى الحاج على من أمامه وشربه ، فصرخ الحاج على وزوجاته هذه المرة خوفا وهلعا وتركوا كل شئ وهرعوا إلى غرفتهم ، فأكل " الأقرع " كل العسل والقشدة ثم شرب عدة أكواب من الشاى ، وأخذ يتجول في الغرفة ، وكان بها أشياء كثيرة ثمينة ، ويهت " الأقرع " من الشمعدان الذهبى والفضى والستائر المطرزة بالذهب ، والسجاجيد الكبيرة والصغيرة الكثيرة،

وآنية الفضة والبلور، وأشياء أخرى قيمة ومتناثرة . فأخذ " الأقرع " كل ما استحسنه ، ووضع في جيبه كل ما غلا ثمنه وخف حمله .
وأخيرا وجد مفتاح خزانة الحاج ، وقد نام الجميع ، ففتح الخزانة وأخرج كل ما يستطيع حمله من النقود ، كذلك سرق عدة بيوت أخرى من بيوت الأغنياء ، وكان الليل قد انتصف فذهب فى طريقه إلى البيت ، وأبقى لنفسه قليلا من النقود ، وأعطى الباقى لبيوت الفقراء .
كان " الأقرع " يطرق الأبواب ، فيخرج صاحب البيت فيقول له : - خذ هذا الذهب القليل وألفين من التومانات ، وأنفق على أطفالك ، فهذا نصيبك ولا تقل لأحد شيئاً.
وفجأة يعود صاحب البيت إلى وعيه ليرى أحدا خلف الباب ومن أين يأتى الصوت ، يجد حفنة من الذهب وقدرا كبيرا من النقود ملقى أمامه بينما لا أحد حول البيت.
وصل " الأقرع " إلى بيته متأخرا ، وكانت العجوز مازالت مستيقظة تنتظر إبنها حتى تلك الساعة خلف مغزلها ، بينما النوم يداعب عينيها ، وكانت الحمائم نائمات ومتناثرت بالكوخ هنا وهناك ، وهى تدس رؤوسها أسفل أجنحتها . دلف " الأقرع " إلى الكوخ بهدوء دون أن يحدث صوتا ، وجلس بجوار أمه ، وفجأة خلع الطاقية من رأسه ، وعندما رأت العجوز ابنها فرحت وقالت : - أين كنت إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل يا ولد؟
قال " الأقرع " : - كنت فى بيت الحاج على ، النساج ، آخذ مال الناس وحقوقهم منه.

أحضرت العجوز لـ " الأقرع " حساء البرغل ، قال " الأقرع " : - كنت قد أكلت كمية كبيرة من العسل والقشدة ، وحتى لو ظللت أسبوعاً بدون طعام فلن أشعر بالجوع .

تناولت العجوز العشاء بمفردها ، وشربت من لبن العنزة ، ثم نهضا وناما.

وضع " الأقرع " - قبيل النوم - ما لديهما من برغل أمام الحمام ، وفى الصباح الباكر لبس الطاقية وصعد إلى السطح ، وبدأ فى تطيير الحمائم وإطلاق الصفير، وكان يمسك فى يده عصا طويلة كان قد كسا رأسها بقطعة من القماش .

كانت الأميرة المريضة ترقد خلف الشباك وعيناها مثبتتان على السطح ، وفجأة رأت حمامات " الأقرع " تطير،، وسمعت صوت صفيره ، ولكنها لم تره ، فلم يظهر سوى العصا تطير الحمائم ، وكانت العصا تتمايل فى الهواء هنا وهناك ، وكأنها تلهو مع الحمام .

أخبر الخدم الوزير، وأخبر الوزير بدوره الملك ، بأن " الأقرع " بدأ فى عمله من جديد ، وأنه من الممكن أن تسوء حالة الأميرة ، فأرسله ليأخذ الحمام ويقتله .

وأصاب القلق الأميرة على " الأقرع " ، فأرسلت وصيفتها كاتمة أسرارها إلى العجوز لتحضر لها الأخبار وتقول للعجوز أن الأميرة تعشق " الأقرع " عشقاً مبرحا فلتدبر حلا .

ذهب الحاج على والأغنياء المعتدى عليهم إلى قصر الملك متظلمين ، وهم يرددون " فرغ صبرنا ، وذهبت حياتنا أدراج الرياح ، أى حاكم أنت ؟ أرسل جيشك فى إثر اللصوص وأعد إلينا النقود .

ولنقف إلى هذا الحد ونعود لنكمل قصة " الأقرع "

لبس " الأقرع " الطاقية وصعد الى السطح ليطير الحمام ، وكانت العجوز ترتدى العباءة وتغزل الصوف أسفل السطح ، وكانت العنزة رابضة في الفناء تبحث عن ورقة التوت التى تعبث بها الرياح فتلقى بها على الأرض .

فجأة رفعت العجوز رأسها فرأت العنزة تحملق فى وجهها فأخذت تحدق فى عيون العنزة هي الأخرى وكأن العنزة تقول : إن " الأقرع " والحمام فى خطر، انهضى وأحضرى لى ورقة توت لآكلها وأقول لك ماذا يجب أن تفعلى.

لم تصبر العجوز فنهضت وأخذت تضرب الأوراق بعصا فأسقطتها على الأرض ، وأخذت العنزة تأكل وتأكل حتى انتفخت بطنها وحملقت فى وجه العجوز وكأنها تقول لها : أشكرك ، الآن تعالى إلى الداخل سأصعد أنا بنفسى إلى السطح لأساعد " الأقرع " وحمائمه .

لم تقل العجوز شيئا ودلفت إلى الداخل ، وصعدت العنزة على السلم المؤدى إلى السطح ووصلت بجانب كومة الشوك وبدأت فى الأكل مرة أخرى . لم يمض وقت طويل حتى أتى إلى الفناء مجموعة من خدم الوزير، وكانت العصا التى تطير الحمام - وهى تلوح في الجو- تضرب كل من يصعد للسطح وتلقى به إلى أسفل، وفى النهاية عاد جميع الخدم إلى الوزير.

كانت الأميرة التى تحسنت حالتها قليلا ترى كل شئ من خلف النافذة، وكان كل ما يحدث يستحوذ على إعجابها .

كان الملك والحاج على صاحب المغازل والأغنياء الآخرون جالسين

يتحدثون وهم فى حيرة من ذلك اللص المقتدر الذى استطاع فى ليلة واحدة أن يسرق كل هذه البيوت، ويأخذ معه كل هذه النقود ، وأثناء الحديث دخل الوزير وقال : - أيها الملك لقد حدث شئ غريب ، فالأقرع غير موجود فى أى مكان ، وعصاه التى يطير بها الحمام أعلى السطح ولا تترك أحدا يقترب من الحمام .

قال الملك : - أمسكوا " الأقرع " وأحضروه أمامى .

قال الوزير: - أيها الملك ، أخبركم أن " الأقرع " لا يوجد في أى مكان ، وأمه بمفردها فى الكوخ ولا تعرف عنه شيئا .

قال الحاج على صاحب المغازل : أيها الملك كل ما حدث من فعل " لأقرع " لقد فهمت من كل الدلائل أنه هو الذى سرق بيتنا وليس الوقت وقت قضية العسل والقشدة والشاى ، وقال آخر من الأغنياء : عِقد زوجتى اختفى من رقبتها أمام عينى، وكأنه تبخر فى الهواء !!

وقال آخر: - رأيت أيضاً مرآتنا ذات الإطار الذهبى تطير من فوق الرف فى الهواء،ولما أفقت من ذهولى لم أجد المرآة ، فالحاج على يقول الصدق وكل هذه الأعمال من فعل " الأقرع " . وغضب الملك من كلامهم وأمر بإعداد الجيش ، لمحاصرة بيت " الأقرع " وبإحضاره حيا أو ميتا .

حدث فى هذا الوقت أن الأميرة كانت هي ووصيفتها وكاتمة أسرارها تتحدثان ، وكانت الوصيفة عائدة لتوها من عند العجوز وكانت تقول للأميرة : - يا سيدتى ، قالت أم " الأقرع " أنه حى وحالته جيدة جدا ، وإنها سترسله الليلة إليك ، ليتحدث معك .

قالت الأميرة بتعجب : - يأتى الأقرع أمامى !! كيف يستطيع أن يعبر

من وسط كل هؤلاء الحراس والجيش ويأتى هنا ؟ ليته يستطيع المجىء !

قالت الجارية : - سيدتى إن القرع لديهم ألف حيلة وحيلة فلتنتظرى ليلا ولابد أنه آت .

أثناء ذلك نظرتا من النافذة فرأيتا جيشا يحاصر بيت " الأقرع " محاصرة الخاتم للفص ، فقالت الأميرة : - لو كان لديه ألف روح لن يستطع أن ينجو سالماً بروحه،آه يا اقرعى ا لمسكين .

كانت الحمائم قد حطت فوق السطح وهى تلتقط الحب ، وكانت هناك عصا مستقيمة منتصبة تُطير الحمائم ، وكانت العنزة تأكل الشوك باستمرار دون توقف ، بينما تدفع كرات صلبة تشج الرأس .

كان الجيش قد وقف على أهبة الاستعداد ، وكان القائد يقول بصوت مرتفع جداً : يا أقرع ، لو تملك ألف روح فلن تستطع أن تنجو سالما بروح واحدة ، هل تتوهم أنك فى أمان ! استسلم سريعا ، وإذا لم تستسلم ستكون أكبر قطعة من جسدك هي أذنك

كانت العجوز في الكوخ ترتعد من شدة الخوف ، وسكت صوت مغزلها مرة أخرى ، وكانت تنظر من طاقة السقف ولكنها لم تر شيئاً .

فى ذلك الوقت كان " الأقرع " يقول لحمائمه : - يا حمائمى الجميلة، ألا ترون ماذا تفعل العنزة ، إنها تصنع لُكنَّ منجنيقا ، إفعلن شيئا واسعدن قلبى وارضين أمى .

صنعت الحمامات دائرة ، وأخذت تتهامس ، ثم حلقت في الجو وغابت .

قال قائد الجيش مرة أخرى : يا أقرع ، هذه آخر مرة أحذرك فيها ،

إننى آمرك ، فلتترك السحر والشعوذة والأعمال الشيطانية جانباً ، فإنك لن تقدر على ، وفى النهاية سأقتلك ، وحين ذاك لا ينفع الندم ، فأينما كنت تعال واستسلم .

صاح " الأقرع " : - يا جناب قائد الجيش ، أنا آسف جدا لأنى أضعت وقت سيادتك، فقد كنت أربط حزام سروالى ، الآن سوف أمثل أمامك ، أشْعِلْ سيجارة وستجدنى أمامك .

سُر قائد الجيش لأنه سوف يقبض على " الأقرع " بسهولة ، وأشعل سيجارة وقال : - كم أنت محنك ، من أى قبر يأتى صوتك ؟

قال " الأقرع " : - من قبر أبيك وأمك !!

اغتاظ قائد الجيش وصاح قائلا : كف عن قلة الأدب ، ماذا تظنني حتى تمزح معى؟

أثناء ذلك ظهرت فى الجهات الأربع من السماء مئات الحمامات ، وكانت حمامات " الأقرع " فى وسط تلك الحمائم ، وكانت العنزة تأكل الشوك أسرع وأسرع ، وتنهمر الكرات منها .

رفع " الأقرع " كرة وصاح قائلا : يا سيادة قائد الجيش ، أنظر لترى أين أنا !!

وطارت الكرة صوب قائد الجيش الذى كان رافعاً رأسه ، ناظراً للهواء ، يضع السيجارة بزاوية شفتيه ، فأصابت الكرة ما بين حاجبيه ، فعلا صياحه ، فأصاب الجيش الذعر وتحرك مكانه ، لكن الحمام لم يعطه فرصة فقد أمطره بوابل من الكرات ، وكان الحمام يلتقط الكرات بمنقاره ، ويطير الى أعلى ، ثم يسقطه فوق رؤوس أفراد الجيش ، وكانت الكرة عندما تقع على رأس فرد تخرقها ، وانسحب

الجيش ليلا ، وحمل " الأقرع " العنزة والحمائم ونزل إلى أسفل وعاد باقى الحمام من حيث أتى .
كانت العجوز قد أعدت عشاء حقيقيا بالنقود التى كان " الأقرع " قد أعطاها إياها، فلم يكن عشاء مزيفا مثل كل ليلة ، قطعة خبز يابسة مع قليل من حساء البرغل ، أو نفس قطعة الخبز بدون طعام وعلى وجهها ماء .
وكان " الأقرع " قد أشترى قمحا للحمام ، وأكلت العنزة أيضاً برسيما وشعيرا .
بعد العشاء قالت العجوز للأقرع : الآن ضع الطاقية على رأسك وانهض ، واذهب إلى الأميرة ، لقد وعدتها بأن أرسلك إليها .
قال " الأقرع " : - أمى ، أين نحن وأين الأميرة .
قالت العجوز : - الآن إذهب ، ولترماذا لديها .
وضع " الأقرع " الطاقية على رأسه وذهب ، ومر من بين الحراس والعساكر ، ودخل غرفة الأميرة ، بينما كانت تتناول العشاء مع وصيفتها وكاتمة أسرارها ، وتقول لها : - لو يعرف " الأقرع " كم أنا أحبه لما توانى دقيقة واحدة ، ولكننى خائفة أن يقع فى يد الحراس ويقتلونه ، قلبى يغلى.
قالت الوصيفة : - نعم يا سيدتى ، أنا أيضاً خائفة ، فلقد أمر الملك الليلة أن يضاعفوا عدد الحراس ، وعين ابن الوزير رئيسا للحرس أيضاً .
جاء " الأقرع " وجلس بجوار الأميرة وشرع فى الأكل ، وكان العشاء أرزاً بالدجاج مع أنواع أخرى من مربى وعجة وحساء وأشياء من هذا

القبيل ،رأت الأميرة ووصيفتها أن جانباً من الوعاء بدأ ينتهى بسرعة شديدة ، وفخذ الدجاجة قد قطع وأوشك على الانتهاء .
قالت الوصيفة : يا سيدتي ، ماذا كنت تطلبين ! تخيلي ، أنا واثقة بأن " الأقرع "في الغرفة ، هذا العمل عمله ،، ألم أقل لك أن القرع لديهم ألف حيلة وحيلة ، فرحت الأميرة وقالت : - عزيزي " الأقرع " ، إذا كنت في الغرفة فأظهر نفسك ، إن قلبي مشتاق إليك .
لم يصدر " الأقرع " صوتا ، قالت الوصيفة : - يا سيدتي ، ربما لا يظهر بسبب وجودي ، سأذهب أنا لأراقب الحراس .
عندما خرجت الجارية خلع " الأقرع " الطاقية ، وفجأة رأته الأميرة جالسا بجوارها ، فسرت وقالت : أيها " الأقرع " ، ألا تعرف كم أعشقك ؟!
تعال خذني ، وخلصني ، فالملك يريد أن يزوجني بابن الوزير.
قال " الأقرع " : - ولكن يا سيدتي أنت من سلالة الملوك ، فكيف تستطيعين أن تعيشي في كوخ معبأ بالدخان ؟
قالت الأميرة : لوعشت معك ، أستطيع أن أتحمل كل شئ .
قال " الأقرع " : أنا وأمي ندبر حياتنا بمشقة بالغة ، فكيف تشعرين بالشبع ، وأنت من سلالة الملوك ولا تتقنين أي عمل ؟
قالت الأميرة : سأتعلم أي عمل .
قال " الأقرع " : - أي عمل ؟
قالت الأميرة : أي عمل تحدده .
قال " الأقرع " : - حسنا ، الآن سأقول لأمي أن تعلمك نسج الصوف ، فاصبري لعدة أيام ، وسآتي لأخبرك متى نمضي من هنا .

أخذ الأقرع والأميرة يتحدثان ...

والآن أحدثكم عن ابن الوزير رئيس الحرس الملكى وعاشق الأميرة عندما جاء " الأقرع " إلى الأميرة كان قد رأى ابن الوزير جالسا على كرسي ويغط فى نوم عميق ، فدفعته رغبته إلى أن يأخذ سيفه وسهمه ، وكان قد أحضرهما معه. وعندما استيقظ ابن الوزير لم يجد أسلحته ، فعرف أن " الأقرع " قد جاء ، فما حدث قد حدث ، فاسرع وأرسل كل الحرس إلى غرفة الأميرة ، رأى الحارس الوصيفة بالباب فاندفع وحاول فتح الباب بالقوة ، فرأى " الأقرع " والأميرة يتحدثان ، فأغلق الباب بقوة وصاح : - " الأقرع " هنا تعالوا بسرعة. " الأقرع " هنا أسرعوا .

أسرع ابن الوزير والآخرون ، واستيقظ الملك على الضوضاء ، وجلس على العرش وأمرهم بأن يحضروا " الأقرع " أمامه حيا أو ميتا .

وكان رئيس الحرس - ابن الوزير - وبعض الحراس الآخرون داخل غرفة الأميرة حيث كانت تتمدد فى فراشها ، تقرأ قصة وليس هناك من خبر عن " الأقرع " ، فسألها ابن الوزير الذى كان يعشقها : - ألم ترى أين ذهب " الأقرع " ؟ الحارس يقول أنه كان هنا منذ دقيقة

قالت الأميرة بلهجة حادة : لقد صار أبى فاقد الحمية تماما ، كيف يسمح لكم أن تدخلوا غرفة ابنته المريضة ليلا ، وأنت أيضا هل لديك الجرأة أن تتحدث معى فى مثل هذا الحديث ؟ أخرجوا سريعاً .

قال إبن الوزير باحترام وأدب : - سيدتى الأميرة ، هذا أمر الملك نفسه أن نبحث فى كل ثقب ، فأنا مأمور وليس ذنبى .

أثناء ذلك فتشوا كل مكان بالغرفة فلم يجدوا شيئا سوى سيف ابن

الوزير وسهمه اللذين كان " الأقرع " قد أحضرهما معه وأخفاهما تحت السرير.
قال ابن الوزير: سيدتى الأميرة ، هذه الأشياء ملكى ، سلبها " الأقرع " منى فإن لم يكن هو، فمن الذى فعل هذا ؟ سوف أخبر الملك بهذا .
أثناء ذلك كان " الأقرع " يقف بجوار الأميرة يسمع ، وكان يقول لها :-
لا تخافى يا فتاة ، لا تظهرى شيئا على وجهك ، وسآتى إليك سريعاً.
بعد ذلك عبر من وسط الحراس ووصل إلى الباب ، وكان هناك ثلاثة أشخاص أو أربعة يقفون على عتبة الباب مما أدى إلى استحالة المرور، فأراد أن يحدث جلبة لكى يهرب ، ولكن فجأة ارتطمت قدمه بشىء فسقطت طاقيته ، توسل " الأقرع " كثيرا لكى يعطوه طاقيته وكان يقول : - عيب على أن أذهب إلى الملك برأسى عارية !!
ولكن ابن الوزير لم يأذن له بأخذها .
كان الملك يجلس على عرشه منتظراً وهو فى قمة غضبه ، وعندما وصل " الأقرع " أمام عرشه صاح قائلاً : يا ابن الحرام ، أى خطأ اقترفته فى محله ؟ اقتحمت بيوت الناس ، محوت جيشى ، ولكن بأى جرأة دخلت غرفة ابنتى ؟ سآمر وزيرى فى الحال أن يصب رصاصاً مغليا فى حلقك.
قال " الأقرع " : - يا مولاى ، أى شئ تأمر به فأنا راض ، ولكن فى البداية مُرْهُم بأن يفكوا يدى ، وأن يعطونى طاقيتى ، فإنه ليس من الأدب أن أمثل أمام الملك ، ويداى ليست على صدرى ، وأقف أمامه ورأسى عارية. أمر الملك بأن يفكوا يديه ، وأن يعطوه طاقيته ، وأراد ابن الوزير ألا يعطيه الطاقية ، ولكن لم يكن لديه الجرأة لأنه يقول

كلاماً بعد كلام الملك ، فأعطاه الطاقية ، وفك يديه ، ووضع الأقرع الطاقية على رأسه فاختفى ، فقفز الملك من مكانه وصاح : - أين ذهبت يا ولد ؟ اختفيت؟ أتلعب الاستخفاء ؟

قال ابن الوزير بخوف شديد : - فداؤك نفسى ، لم يذهب إلى مكان ، لقد اختفى تحت الطاقية ، فمر بأن يغلقوا الأبواب ، الآن سيهرب .

أراد " الأقرع " أن يتحرك ويهرب، ولكنه رأى أنه وقع فى المصيدة ، وحاصر الحراس غرفة الملك ، ولم يتركوا مجالا حتى إن الفأر لا يستطيع أن يجد ثقبا يهرب فيه !! .

عندما رأى الملك أن " الأقرع " هرب طلب الجلاد ، وأمره قائلاً : - أيها الجلاد : اقطع رقبة ابن الوزير ابن الحرام هذا . فأخذ ابن الوزير يلتمس ويتوسل ، ولكن الملك قال له : يا ابن الحرام ، كنت تعرف أن طاقيته هى طاقية الإخفاء ، فلماذا لم تقل لى ؟ يا جلاد : لا ترحمه ، إضرب عنقه.

وهكذا قتل ابن الوزير فى منتصف الليل .

والآن نعد إلى الأميرة

فعندما رأت " الأقرع " قد وقع فى المصيدة ، وقد قتل ابن الوزير، قالت لوصيفتها:- أتعرفين أنه إذا جاء الوزير سيجر رجلنا أيضاً فى القضية؟ أنجلس مكتوفى الأيدى ؟ ثم ماذا ؟ انهضى لنذهب إلى أم " الأقرع " ، فمن الممكن أن تفعل شيئا ، مسكين "الأقرع" ، ستخرج روحه .

كان الحراس مشغولين ، ولم يلتفتوا لذهابهما ، وكانت العجوز تجلس

بمفردها في الكوخ تغزل الصوف ، والعنزة نائمة هي والحمائم .
قصت الأميرة على العجوز كيف سقط " الأقرع " في المصيدة ، وأنها الآن لابد أن تفعل شيئا .
فكرت العجوز وذهبت وأيقظت العنزة والحمائم أيضاً وقالت لهن : يا عنزة يا ذات اللحية ، أيتها الماهرة ، يا حمائم " الأقرع " الجميلات، لقد وقع ابني في المصيدة في قصر الملك ، إفعلن شيئا لتسعدن قلب أقرعي ولترضينني ، وهذه هي أيضاً الأميرة وسوف تصبح زوجة أبني أزلْن الغم عنها . طلبت العنزة طعاماً ، فأحضرت لها العجوز الشوك وورقه التوت . وذهبت الحمامات وأحضرت أصدقاءهن ، وبدأت العنزة في الأكل وصارت تمطر كرات ، وأشعلت العجوز التنور (الفرن) ووضعت صاجاً فوقه وأخذت تشوى القمح للحمام .
كان الحمام يأكل القمح ويأخذ الكرات ويطير في الهواء عاليا ، ثم يلقى به على رأس الجيش والحراس وفي ظلمة الليل لم يستطع أحد منهم أن يفعل شيئاً .
عرف الوزير بأمر الجيش والحراس فذهب للملك وقال له : - أيها الملك ، إذا تركت الأمر هكذا لمدة ساعة أو ساعتين ، فالحمام سيهدم الأبواب والجدران فوق رؤوسنا ، فمن الأفضل أن تطلق سراح الأقرع ثم بعد ذلك نفكر ونعيد حساباتنا .
استحسن الملك كلام الوزير ، وأمرهم بأن يفتحوا الأبواب ، وصاح بصوت مرتفع جدا قائلا : - يا أقرع ، تعال واذهب في داهية ، أغرب عن وجهي ، وسأحاسبك فيما بعد .

مضت عدة دقائق فى صمت ثم صاح " الأقرع " من الفناء قائلاً : -
فداؤك نفسى ، الآن أغتنم الفرصة ، وأقول لجلالتكم ، أنه لا يوجد فى أى مكان من يسلك هذا السلوك مع من جاءهم خاطبا .
قال الملك : - يا أحمق ، أين أنت من خطبة الأميرة ؟
قال " الأقرع " : - أيها الملك ، أعطنى ابنتك ، وسأقول للحمام أن يكف ، فأنا وابنتك يعشق كلانا الآخر.
قال الملك : - لا تلزمننى بنتاً قليلة الأدب مثلها وسأطردها حالا .
وأرسل الملك مجموعة من الخدم فى إثر ابنته ليقبضوا عليها ويطردوها من القصر. وذهب الخدم ثم عادوا ، وقالوا : - أيها الملك ، لقد هربت ابنتك .
لم يقل " الأقرع " شيئاً آخر ، وأشار للحمام بأن يكف ، ثم ذهب إلى كوخه ، وكانت أمه والأميرة والوصيفة يشربن حليباً ساخنا . ورتب " الأقرع " بيته وحياته بالنقود القليلة والمصاغ الذى كانت قد أحضرته معها الأميرة بجانب النقود التى ادخرها هووأمه والأميرة . ولكن " الأقرع " مازال يعمل حطابا ، ويطلق حماماته ، وكان يربط عنزته أسفل شجرة التوت ، بينما أمه وزوجته تغزلان الصوف وينفقن على معيشتهن من بيعه .
وكانوا قد أعتقوا الجارية ، وذهبت هي أيضاً وتزوجت ، وأصبحت صاحبة بيت وحياة مستقلة هي الأخرى .
وكان الحاج على صاحب المغازل وآخرون مازالوا يأتون للملك ويشكون له من " الأقرع " خاصة أنه كان أحيانا يسرق أموالهم ولم يكن ذلك لنفسه فى أى وقت قط .

كان الملك والوزير يجلسان كل يوم ليدبرا خطة أو حيلة للقبض على " الأقرع " وحمائمه ، وعين الملك ابن الوزير الصغير رئيسا للحراس حتى يقفل فم الوزير، ولا يقول شئ بخصوص قتله ابنه الآخر.

يقول جميع القصاصين أن قصتنا قد انتهت ، ولكننى على يقين من أن قصتنا لم تنته بعد ، وحتما ذات يوم سوف نكمل هذه القصة

٤-الصبي بائع البنجر المسلوق

كنت - قبل عدة سنوات - معلما في قرية وكانت مدرستنا عبارة عن غرفة واحدة ، بنافذة واحدة ، وباب يؤدى إلى الخارج ، ولم تكن المدرسة تبعد عن القرية كثيراً . وكان لدى إثنان وثلاثون تلميذا ، عدد الصف الأول خمسة عشر تلميذا ، والصف الثاني ثمانية ، والصف الثالث ستة ، أما الصف الرابع فثلاثة تلاميذ .

كانوا قد أرسلوني إلى هناك في أواخر الخريف ، فقد ظل الأطفال بلامعلم لمدة شهرين أو ثلاثة ، ومن ثم سروّا كثيراً برؤيتي ، وهللوا فرحين ، إذ كان الفصل مغلقا والدراسة معطلة لمدة أربعة أو خمسة أيام ، وأخيرا تمكنت من جمع التلاميذ من الخلاء ، ومن مصنع نسج السجاد ، ومن هنا وهناك . كان كل الأطفال -تقريبا- يبقون بلا عمل ، لذا كانوا يذهبون إلى مصنع الحاج "قلى" لنسج السجاد ، وكان دخل أمهرهم خمسة عشرريالا في اليوم .

كان الحاج "قلى" قد جاء من المدينة ، وكان توفيره في هذا الأمر ، فعمال المدينة يتقاضون النقود مقدماً ، ولا يتقاضون أقل من أربعين ريالاً ، أما أعلى أجر في القرية فكان يتروواح بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين ريالاً .

لم يمض على وجودي بالقرية أكثر من عشرة أيام حتى تساقط البَرَد وامتلأت الأرض بالثلج ، فأغلقنا ثقوب النافذة والباب بالورق حتى لا يدخل البرد .

ذات يوم كنت أقوم بدرس إملاء للصفين الثالث والرابع ، بينما كان الصفان الأول والثاني في الخارج . كانت الشمس ساطعة والبرد قد صار رقيقا واهيا ، وكنت أرى الأطفال من النافذة وهم يبعدون كلبا

شريدا ويضربون رأسه ووجهه بكتل الثلج ، فهم في الصيف يقذفون الكلاب بالحجارة والطوب ، وفى الشتاء بكرات الثلج .
بعد قليل ارتفع من خلف الباب صوت رقيق يقول : - أحضرت البنجر يا أطفال ، أحضرت بنجر ساخنا وحلو المذاق .
سألت مراقب الفصل : - كاظم ، من هذا ؟
قال كاظم : - ليس سواه ، إنه " تارى وردى " يا سيدي ، وهو يبيع البنجر في الشتاء، أتريد دعوته للداخل؟!
فتحت الباب فدلف "تارى وردى" بسلة البنجر ، كان يعقد شالاً قطنيا قديما على رأسه ووجهه ، بينما فردة حذائه بلاستيكية والأخرى من الأحذية الرجالية العادية ، وكانت سترته تصل إلى ركبته ، ويداه مختفيتين تحت كميها وأنفه كان قد إحمر من شدة البرد ، ووجهه يدل على أن عمره يتراوح ما بين العاشرة والثانية عشرة .
ألقى " تارى وردى" السلام ، ووضع سلة البنجر على الأرض ، وقال : - أتسمح يا سيدي أن أدفئ يدي؟
سحبه الأطفال إلى جوار المدفأة وأعطيته كرسيا ، فلم يجلس وقال :- لا يا سيدي ، أستطيع أن أجلس على الأرض هكذا .
وكان الأطفال الآخرون قد جاءوا على صوت "تارى وردى" وازدحم بهم الفصل فأجلست الجميع في أماكنهم .
تدفأ "تارى وردى" قليلا ثم قال : - أترغب في البنجر يا سيدي ؟
ودون أن ينتظر جوابي أمسك ببرام وأزاح عنه منديلا قذرا ملونا فتصاعد منه بخار" لذيذ وكان فوق البنجر سكين ، قبضتها مصنوعة

من قرن الحيوان . إختار " تاري وردى " واحدة وأعطاها لي وقال : - من الأفضل أن تنزع قشرتها بنفسك ، سيدي من الممكن .... يداي ... فنحن قرويون على أي حال ، لم نر المدينة ، ولا نعرف ما يمكن إتباعه .

كان يتحدث مثل شيخ محنك ، وضغطت البنجر بين يدي، وقشرت جلده الدهني فخرج منه لون أحمر قان جميل ، وقضمت قطعة منه فكان حلوا المذاق جدا .

قال " نوروز " من آخر الصف: - لا يوجد مذاق بنجر حلو مثل بنجر " تاري وردى"

قال كاظم : - أخته هي التي تطهيه ، وهو يبيعه ، فأمه مريضة ياسيدي .

تفرست في وجه " تاري وردى " ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة حلوة كابتسامة الرجال ، وكان قد خلع الشال القطني عن رقبته ، فبدأ شعر رأسه وقد غطى أذنيه .

قال : - يا سيدي لكل إنسان عمل وكسب ، وهذا عملنا نحن.

فقلت : - مم تشكو أمك يا " تاري وردى " ؟

قال : - قدماها لا تتحركان ، والعمدة يقول أنه شلل !! عموما لاأعرف يا سيدى.

قلت : - وأبوك ؟

فقاطعني قائلاً : - مات .

قال أحد الأطفال : - كانوا يسمونه " عسكر المهرب" يا سيدى .

قال " تاري وردى " : - كان يتقن ركوب الخيل ، ونهايته كانت ذات

يوم بأعالى الجبال ، فقد أصيب برصاصة وقتل ، ضربه عساكر الأمن وهو فوق جواده .

تجاذبنا أطراف الحديث ، بعدها باع للأطفال بنجر بحوالى قرانين أو ثلاثة . وذهب ولم يأخذ منى نقودا ، وقال : - هذه المرة أنت ضيفى ، وستدفع المرة القادمة ، أنظر يا سيدى ، نحن لا نفهم فى أمور التكلف وما إليها .

وأخذ " تارى وردى " يسير على الثلج صوب القرية ، وكلنا نسمع صوته، وكان يقول : - عندى بنجر - أحضرت بنجر ساخنا وحلو المذاق أيها الناس .

وكان كلبان يحومان حوله ويهزان ذيليهما .

حكى الأولاد لى كثيرا عن " تارى وردى " وأن له أختا تدعى " سولماز " تكبره بسنتين أو ثلاث . وعندما كان أبوهما على قيد الحياة ، كانوا يحيون حياة كريمة ، ولكن بعد موته أصابهم العوز والحاجة . فذهبت الأخت أولا إلى الحاج "قلى " النساج، ثم لحق بها أخوها ، وبعد ذلك تشاجرا معه وتركا العمل .

قال " رضا قلى " : - كان الحاج "قلى " عديم الشرف ، يؤذى أخته ، فكان ينظر إليها بشهوة يا سيدى .

قال " أبو الفضل " : - يا سيدى ، كان " تارى وردى " يرغب فى قتل الحاج "قلى" بمشط النسيج .

كان " تارى وردى " يأتى إلى الفصل كل يوم مرة أو مرتين ، وأحيانا كان يأتى إلى الفصل بعد أن يبيع كل البنجر ويجلس ويستمع إلى الدرس .

وذات يوم قلت له : - " تاري وردى " .. سمعت أنك تشاجرت مع الحاج "قلى" هل تستطيع أن تقول لى كيف ؟!
قال " تاري وردى " : - إنه موضوع قديم ، لا أريد أن أوجع رأسك ياسيدى .
قلت : - أكون سعيدا جدا إذا استمعت إلى كلامك من البداية للنهاية .
بدأ " تاري وردى " فى الكلام وقال : - فلتسمح لى يا سيدى ، كنت وأختى نعمل منذ صغرنا لدى الحاج "قلى" وكانت أختى قد ذهبت إليه قبلى ، وكنت أعمل تحت إشرافها ، وكانت تتقاضى هي عشرين ريالا ، بينما كنت أتقاضى أقل منها قليلاً .
وكان ذلك منذ سنتين أو ثلاث . وكانت أمى مريضة لا تعمل ولكنها لم تكن مقعدة . وكان يعمل بالمصنع حوالى ثلاثين أو أربعين طفلاً . وهم موجودون إلى الآن ، وكان هناك خمسة أو ستة مدريين . وكنت أذهب أنا وأختى فى الصباح ، ونعود ظهراً ، ونذهب بعد الظهر ونعود عصراً ، وكانت أختى تضع حجابها فى المصنع لكنها لم تخفى وجها عن أحد وكان المدريون فى العمل فى منزلة أبينا ، والأخرون كانوا مجرد أطفال ، وكان الحاج "قلى" صاحب العمل .
... سيدى بعد ذلك كان الحاج "قلى" عديم الشرف ، يأتي ويقف فوق رؤوسنا ويطيل النظر إلى أختى ، وأحيانا يربت على رأسها ، أو على رأسي بيده ، وكان يضحك بفتور ، ويمر علينا دوما ، ولم أكن عندئذ استشعر أذى منه لأنه صاحب العمل ، ويبدى لنا حبه ، ومضت فترة ، وذات يوم خميس عندما كنانتقاضى أجرنا الأسبوعي ، أعطى أختي

علاوة عشرة ريالات وقال لها : - أمك مريضة ، أنفقى هذا عليها .
وبعد ذلك ضحك فى وجه أختى ، ولم أشعر بارتياح مطلقا ، وكانت أختى تبدو خائفة ، ولكنها لم تقل شيئا ، وذهبنا نحن الإثنان إلى أمنا . وعندما سمعت أمى أن الحاج "قلى" قد أعطى لأختى أجرا إضافيا استغرقت فى التفكير ، وقالت : - بعد ذلك لا تأخذى مثل هذه النقود الإضافية .
ومنذ اليوم التالى رأيت مشرف العمل والصبيان الكبار يهمس كلُ منهم فى أذن الآخر ، وكأنهم أرادوا ألا أسمع أنا وأختى .
... سيدى ! وفى يوم الخميس التالى ، ذهبنا آخر الجميع لنتقاضى أجرينا ، كان الحاج "قلى" بنفسه قد قال لنا تعاليا إلىّ فى وقت الفراغ ، فالحاج يا سيدى كان قد ضاعف أجرينا وقال : - غدا سوف آتى لمنزلكما ، فلى حديث مع أمكما .
بعد ذلك ضحك في وجه أختى ، ولم أشعر أنا بارتياح مطلقا ، وتغير لون وجه أختي وغضت بصرها .
إسمح لي يا سيدي ، فقد طلبت مني أن أقص كل شئ ، ذهبت إلى الحاج وألقيت له ما أضافه من نقود وقلت له : - سيدى الحاج ، إننا لا نحتاج لمال إضافي فأمى تغضب من ذلك .
عاود الحاج الضحك وقال : - لا تكن حماراً يا عزيزى ، فهذا ليس لك أو لأمك حتى تتضايقا أو تسعدا ، وفى ذلك الوقت أخذ النقود الإضافية وأراد أن يضعها فى يد أختى ، فتراجعت أختى وأسرعت إلى الخارج ، وغلبنى البكاء من شدة الغيظ ، وكان مشط النسيج على المكتب ، فرفعته ودفعته فى وجهه ، فشج مشط النسيج وجهه ، وأخذ

ينزف ، وصرخ وطلب النجدة ، فأسرعت إلى الخارج ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ، وصلت إلى البيت ، وكانت أختى قد سبقتنى ، وجلست وقبعت القرفصاء بجوار أمى وهى تبكى .

جاء العمدة ليلاً يا سيدى ، فقد شكانى الحاج "قلى" إليه ، وكان قد خاطبه أيضاً قائلاً : - أريد أن أصبح فردا من العائلة ، وإذا لم يحدث فسأضع الولد فى يد الأمن لينتقموا منه . قال العمدة : - لقد أرسلنى الحاج خاطبا ، أتقبلون أم لا ؟

فقلت : لا..يا سيدي، إن زوجة الحاج وأطفاله الآن في المدينة ، وبالإضافة إلى زوجاته الشرعيات الأربع ، فإن لديه عشرة أخريات من زوجات المتعة . لا مؤاخذة، إنه خنزير عفن ونتن ، سمين وقصير ، ذو لحية قصيرة ، ذات شعر أشمط ، وله طاقم أسنان صناعية بعضها من الذهب ، ويمسك بيده مسبحة طويلة ، عافاك الله ، إنه خنزير نتن ، شيخ وعاجز.

قالت أمى للعمدة : - لو كان لدى مائة بنت لن أعطى واحدة منهم لهذا الضبع العجوز، يكفينا كل ما عانيناه ، وكان العمدة يعلم فى قرارة نفسه أن هذا النمط من الناس لا يمكن أن يصبح منا نحن القرويين قلبا وقالباً .

قال العمدة -يا سيدتى- : - نعم ! حقا ما تقولين ... لقد أراد الحاج "قلى" أن يتزوج زواج متعة ، ولكن إذا رفضتِ فسوف يطرد طفلك ، وبعد ذلك سيؤذيه عن طريق الشرطة ، وأشياء من هذا القبيل ، فلتعلمى هذا .

كانت أختى قد أقعت خلف أمى ، وهى تقول ، بينما ينهمر الدمع من

عينيها :- لن أذهب مرة أخرى إلى المصنع ، سيقتلنى ، إننى أخاف منه .
وفى الصباح لم تذهب أختى إلى العمل ، وذهبت بمفردى ، وكان الحاج "قلى" واقفاً علىعتبة الباب ، وكان يُسبح . وقد خفت ياسيدى فلم أقترب منه . وكان الحاج "قلى" يربط الجرح الذى فى وجهه بقطعة من القماش ، وقال لى:- تعال يا ولد وأدخل فلا شأن لى بك .
اقتربت منه وأنا خائف جداً ، وأردت أن أعبر من الباب ، فأمسك برسغى وألقى بى فى فناء المصنع ، وانهال على ضربا بقبضته وقدمه . وفى النهاية خلصت نفسى من يده وجريت ورفعت مشط النسيج - الذى كنت قد ضربته به بالأمس- فى وجهه ، فكم إنهال على ضربا بحيث عجزت، فصرخت فيه قائلاً : أيها الديوث النذل ، الآن سأريك -بمشط النسيج- حتى تعرف مع من تتعارك؟! إنهم يقولون عنى ابن عسكر المهرب حقا .
وألتقط " تارى وردى " أنفاسه وعاود الحديث قائلاً : - سيدى ! كنت أريد أن أقتله فى مكانه ، لكن العمال تجمعوا وحملونى إلى بيتى ، وكنت أبكى من شدة الغيظ ، وأضرب الأرض بقدمي ، وأسب وألعن ، وكان الدم يتساقط من جرح فى وجهى وفى النهاية هدأت .
كان لدينا عنزة كنت قد اشتريتها أنا وأختى بمائة ريال ، فبعناها ، وعشنا شهرا أو شهرين بالنقود التى كنا قد ادخرناها .
وفى النهاية ذهبت أختى لدى امرأة خبازة ، وأنا أيضاً ، كلما ظهر لى عمل كنت أذهب فى إثره .
قلت يا : - " تارى وردى " لماذا لا تتزوج أختك ؟!

قال : - إن ابن الخبازة قد خطبها ، وأقوم أنا وأختى بإعداد الجهاز ليتزوجا .

كنت قد ذهبت هذا العام فى الصيف للتنزه فى القرية ، فرأيت " تارى وردى " في الخلاء يرعى أربعين أو خمسين عنزة وخروفا ، فقلت له : - هل أعددت جهاز أختك أخيراً ؟

قال : - نعم ، وزفت ، وقد أتتمت خطبتى أنا أيضاً ، والآن أجمع النقود لعرسي . فمنذ أن ذهبت أختى إلى بيت زوجها بقيت أمى بمفردها ، وهى تريد أن تأخذ أحدا تحت جناحها وتتحدث معه ، وإلا صرت جاحداً ، لا تؤاخذنى يا سيدى !!!

٥- سيرة حبة ثلج

كنت قد وقفت ذات يوم ثلجي أنظر إلى الخارج ، كانت حبات الثلج تنزل متراصة ، وتحط على كل شئ ، حبل الغسيل وفوق الأشجار،وعلى الجدران ،وفوق الإبريق على حافة الجدول ، فوق كل شئ .

كانت حبة كبيرة منها تتقدم ، صوب نافذتى ، فأخرجت يدى على حافتها ومددتها تحت حبة الثلج ، فاستقرت بهدوء على كفى ، كم كانت بيضاء ونظيفة!! شكلها جميل، منتظمة التقسيم ، وهمست لنفسى قائلاً : ليتها تتكلم ، لتحكى لى قصتها .

وفى ذلك الوقت ، تكلمت حبة الثلج وقالت : - إذا رغبت أن تعرف من أنا وما هي قصتى ، أنصت إلى جيداً . كنت قبل عدة أشهر قطرة ماء فى بحر "الخزر" ، اذهب هنا وهناك بصحبة مليارات المليارات من القطرات الأخرى ، وكنا نقضى يومنا على هذا النحو.

كنت أتجول ذات يوم صيفى على صفحة الماء ، وكانت الشمس محرقة ، فسخنت وتبخرت ، وتبخرت معى آلاف الآلاف من القطرات الأخرى أيضاً ، ومن خفة وزننا نبتت لنا أجنحة ، فارتفعنا الى أعلى دون أن نشعر، والريح خلفنا تسحبنا إلى كل اتجاه .

ارتفعنا لدرجة لم نعد نرى فيها الآدميين ، وكانت كتل البخار تأتى من كل ناحية وتلتصق بنا ، وأحياناً كنا نذهب نحن أيضاً ونلتصق بكتل أكبر، ونتداخل سويا ، ونصبح أكثر تماسكاً وتوحدا ، فنسير سوياً ونرتفع ونبتعد ، وكان عددنا يزداد وتماسكنا أيضاً .

وأحياناً كنا نحجب نور الشمس وأحيانا ضوء القمر، وفى هذه

الحالة تزيد الليل ظلاما، بحيث أن بعض ذرات البخار كانت تقول :
كنا قد أصبحنا سحابا والرياح تهب داخلنا ، وتشكلنا أشكالا عجيبة وغريبة، فأنا شخصيا عندما كنت في البحر، كنت أحيانا أرى السحاب على شكل جمل أو إنسان أو حمار وأشياء من هذا القبيل.
لا أعرف كم شهر ظللنا متجولين في السماء ، لقد ارتفعنا كثيرا، وكان الهواء قد اشتدت برودته ، وكم كنا متداخلين سويا لدرجة أننا لم نكن نستطيع أن نمد أيدينا أو حتى أرجلنا !! فكنا نتحرك جماعة ككتلة واحدة ولم أكن أعلم أين نذهب؟ ولم أر ما حولي ولم يكن هناك خبر عن نور الشمس ، وكأننا قد حجبنا نورها ، وانتشرنا ، وأصبح طولنا وعرضنا عدة مئات من الكيلو مترات ، وتمنينا أن نصير مطرا ونعود إلى الأرض .
كاد قلبي يقفز من مكانه من شدة شوقي إلى الأرض ، ومضت فترة فتحول نصفنا ماءً والنصف الآخر بخاراً . كنا نتحول إلى مطر ، وفجأة تغير الجو وأصبح شديد البرودة ، وأرتعشتُ من شدة البرد ، وارتعش الجميع معي ونظرت حولي وقلت لإحداهن : - ماذا حدث؟
فأجابت قائلة : - الأرض التي نحن عليها الآن في فصل الشتاء .
مما لاشك فيه أن هناك أماكن أخرى من الممكن أن تكون حارة .
وهذا البرد المفاجئ يمنعنا من أن نتحول إلى قطرة ، أنظري، أنا أتحول إلى ثلج وأنت أيضاً .
لم تستطع صديقتي مواصلة كلامها وتحولت إلى ثلج ، وسقطت على الأرض ، ووراءها تحولت أنا ، وآلاف آلاف الذرات الأخرى الواحدة تلو الأخرى وتساقطنا جميعاً على الأرض .

عندما كنت في البحر كان وزني ثقيلاً ولكني الآن أصبحت خفيفة الوزن ، أطير مثل الريشة ، ولم أعد أشعر بالبرد لأنه أصبح جزءً من جسمي ، وكنا نرقص ونحن في طريقنا إلى الأرض .

وعندما اقتربت من الأرض ، أدركت أنني هابطة في مدينة "تبريز" وكم بعدت عن بحر "الخزر" !!

كنت أرى - من أعلى - طفلا يضرب كلباً بعصا ، فأخذ الكلب يعوي ، وأيقنت أنني لو سقطت رأسياً سأقع على رأس هذا الولد ، وتمنيت من الرياح أن تنقذني وتحملني إلى مكان آخر ، ولبت الرياح رجائي وحملتني وأحضرتني إلى هنا ، وعندما رأيتك تمد يدك تحتي سررت منك واقتربت .

في هذه اللحظة ، انقطع صوت حبة الثلج ، فنظرت إليها ورأيتها قد تحولت إلى ماء.

٦- العجوز ودجاجتها الذهبية

كـان هنـاك عـجـوز لا تملـك مـن حطـام الدنيـا سـوى دجاجتهـا الذهبية ، وكـانـت قد تمنت هذه الدجاجة ذات ليلة فى المنام . وكـانـت العجـوز تصنـع دهـان الوجـه وتحملـه إلى الحمامـات لتبيعـه . بينمـا الدجاجة الذهبية تتجول فى كوخ العجوز وفنائهـا الصغير باحثة عن النمل والعنـاكب . ومن همتهـا لم تكن نملة تتجاسر على أن تطأ كـوخ العجـوز ، حتـى النمـل الفارسى الكبير الحجـم ، لم يكـن ليقـوى علـى ذلك . ولم تكن الدجاجة الذهبية تفرق بين نمل طيب ونمل غير طيب ، فهـى تلتقطـه بمنقارهـا وتأكلـه ، كمـا كـانـت تتصـدى أيضـا للقطـط الفضوليـة التـى تبحـث فـى كل مكـان عـن قطعـة لحـم ، فكـانـت تـأتى وتقلب كل شئ رأسا على عقب .

كـانـت شجرة الجوز متكـاثفـة الأغصـان والأوراق تنتصب مخضرة فـى فنـاء العجوز ، وفى أوان ظهـور الجـوز ،كـان مـزاج الدجاجـة الذهبيـة يصل إلى قمتـه ، فكلمـا هبت الريـاح سقط الجوز فتكسره وتأكله .

أمـا العنكبـوت فكـان يستفيد مـن وحـدة العجـوز ومـن شيخوختهـا ، فينسج شباكه داخل الرف وخلف الزجاجات الخالية ، ويضع بيضه . وكانـت العجوز ذات يوم تملأ هذه الزجاجات بالخل وعصير الحصرم ومـاء الريحـان والنعنـاع وتبيعهـا وتعيش على ثمنهـا ، ولكنهـا الآن تصنـع دهـان الوجه فقط ، وتركت زجاجاتهـا الملونة فارغة .

كـان العنكبوت يخشى الدجاجة الذهبية ، ويفكر دائمـا فـى أن نهايتـه ستكون ذات يـوم بمنقارهـا . ذلك لأن الدجاجـة كـانت قـد رأتـه أكثـر من مرة على حـافة الرف ، فهددته بأنه سيكون فى النهاية فريسة

سهلة لها ، وكانت قد أكلت العديد من صغاره أيضاً . ومن جهة أخرى ، كانت الدجاجة قد أجهزت على النمل الأصفر الصغير الموجود بالمنزل . وكان يأتى دائما على رائحة الفضلات التى كانت العجوز تلقى بها على الرف ، وكان يعبر من خلف الزجاجات الفارغة ويأخذ حذره من العنكبوت ذلك الصياد الماهر.

ذات ليلة جاء العنكبوت إلى العجوز فى منامها وقال لها : - أيتها العجوز ،ألا تعلمى قط أن الدجاجة الذهبية وقحة تبدد مالك وثروتك؟ ؟

قالت العجوز: اخرس ، دجاجتي الذهبية رقيقة وعطوفة ، إنها لم تفعل ذلك مطلقا.

قال العنكبوت : - أنت لا تعرفين ، فأنت مثل القطا تدفنين رأسك فى الثلج وتتوهمين أمورا ساذجة .

غضبت العجوز وقالت : - قل الصدق حتى أعرف ما هو قصدك ؟

قال العنكبوت : - وما الفائدة ؟ إن دلال الدجاجة وغنجها، قد أعمى عينيك وسوف لا تصدقين كلامى .

نفد صبر العجوز وقالت : - إذا كان لديك دليل قوى على أن الدجاجة الذهبية تبدد مالى فسوف أذبحها وأجعل الكل حتى النمل يرثى لحالها .

عندما رأى العنكبوت أنه قد أقنع العجوز قال : - إنصتى وسوف أقول لك، أيتها العجوز أنت تكدحين وتصنعين دهان الوجه وتسألين الآخرين وتحملين الدهان إلى الحمامات وتبيعينه وتأتين بلقمة خبز لتسدين بها جوعك ... وهذه الدجاجة الوقحة الشرهة لا تعبأ بك

مطلقاً ، فيجب عليها -على الأقل - أن تترك لك شيئا من هذا الجوز لتبيعيه وترتاحى يوما أو يومين وتأكلى غداء أو عشاء دسماً . الآن صدقتِ أن الدجاجة الذهبية تبدد مالك؟

قامت العجوز من نومها مفزوعة غاضبة محتدة ، وأخذت تدبروترسم للدجاجة الذهبية، ولم تذهب فى الصباح لبيع الدهان ، وجلست داخل كوخها ، وثبتت عينيها على الفناء وعلى الدجاجة الذهبية التى كانت قد استيقظت مبكرا وأخذت تشاهد سطوع الشمس .

جاءت الدجاجة الذهبية أسفل شجرة الجوز وقالت لها : - يا رفيقتى الشجرة إلق إلى بواحدة أو اثنتين لأفطر بهما .

هزت شجرة الجوز أحد أغصانها فسقطت عدة جوزات على الأرض . فأسرعت الدجاجة الذهبية صوبها ، فصاحت العجوز ، أيتها الدجاجة الصفراوية لا تلميسها، لم يعد من حقك بعد أن تكسرى جوزاتى وتأكلينها.

أخذت الدجاجة تنظرإلى العجوز بدهشة وكأنها رأت عجوزا أخرى، فلم تعد ترى تلك العينين الرحيمتين ، وذلك الوجه البشوش وذاك اللسان العذب ، فلم تقل شيئاً ، ووقفت صامتة ، اقتربت العجوز منها وركلتها ركلة أطاحت بها الى الطرف الآخر ، وجمعت الجوزات ووضعتها في جيبها .

وأخيرا تحدثت الدجاجة الذهبية وقالت : - أمى ، ماذا أصابك اليوم؟ وكأن الشيطان حل بك !

قالت لها العجوز : صه ! لقد زاد تبجحك ،، قلت لكِ ذات مرة أنه ليس لك الحق فى أن تأكلى جوزاتى ، فإنى أريد بيعها .

أطرقت الدجاجة الذهبية خجلاً ، وذهبت وجلست أسفل الشجرة .
ذهبت العجوز إلى الكوخ ، وبعد قليل نهضت الدجاجة مرة أخرى وقالت للشجرة : - يا رفيقتى الشجرة، إلقِ إلى بواحدة أو اثنتين لأرى ما سيحدث هذه المرة ، فاليوم قد تحول إفطارنا إلى سم زعاف .
هزت الشجرة غصناً آخر من أغصانها المتلئة ، فسقطت منه عدة جوزات على الأرض ، فأسرعت الدجاجة إليها وكسرتها وأكلتها ، فجاءت العجوز إليها وصاحت قائلة : - أيتها الدجاجة الصفراء ، سأريك الآن معنى أن تأكلى جوزاتى !!
قالت العجوز هذا الكلام واستدارت، وأوقدت المنقد وأمسكت بالدجاجة الذهبية وقربتها منه، وألصقت مؤخرتها بالنار فاحترقت والتهبت ، أخذت شجرة الجوز تهتز بشدة وتلقى بالجوز على رأس العجوز، وجرحتها . فتركت العجوز الدجاجة ، وعندما أرادت جمع الجوز رأته وقد تحول إلى حجر، فنظرت إلى الشجرة ثم نظرت إلى الدجاجة ثم إلى نفسها ودخلت الكوخ وجلست .
قبعت الدجاجة الذهبية فى زاوية من زوايا الفناء ، وهى تضع رأسها تحت جناحها ، وكانت تخرج رأسها أحياناً وتلقى نظرة على مؤخرتها المحترقة ثم تمسح دموعها المتساقطة بطرف جناحها ، وبعدها تعود لوضعها السابق ، ولم تعبأ العجوز بدجاجتها الذهبية .
وقُرب الظهر هبت عاصفة فألقت بالجوز على الأرض ولم تتحرك الدجاجة من مكانها ، وهبت الريح مرة أخرى وأسقطت جوزاً آخر على الأرض . ظلت الدجاجة الذهبية فى حالها ولم تتحرك من مكانها ، وحتى العصر لم يكن هناك مكان خال فى فناء العجوز من

كثرة الجوز. وظلت العجوز تحملق فى دجاجتها الذهبية فلم تر شيئاً سواها ، وفجأة سمعت صوتاً يقول : - أيتها العجوز الشجاعة - أجلستِ هذه الدجاجة الصفراوية في مكانها ، فلماذا أنت عاطلة الآن ؟انهضى واحملى جوزاتك وبيعيها ، إن الشمس قد قربت على المغيب وللآن لم تحضرى طعامك .

إلتفتت العجوز فإذ بعنكبوت كبير كان يأتى من الرف السفلى ، وكانت هناك فردة حذاء بجوارها ، فحملتها وهوت بها بشدة على العنكبوت ، وما هي إلا لحظة حتى لم يبق من العنكبوت سوى رسمه على الحائط . وفى ذلك الوقت جففت العجوز دموعها بطرف عباءتها ونهضت وذهبت إلى دجاجتها الذهبية وقالت لها : - يادجاجتى الذهبية يا لطيفة يا عطوفة ، لقد سقط الجوز كله تحت قدميك ، ألا ترغبى فى أن تكسريه وتأكليه؟

قالت الدجاجة دون أن ترفع رأسها : - لقد أهملتنى ، هل نسيت بهذه السرعة أنك أحرقتِ مؤخرتى ؟

ربتت العجوز على الدجاجة وقالت : - يا دجاجتى الذهبية يا لطيفة يا عطوفة ، لقد سقط الجوز كله تحت قدميك ، ألا ترغبى فى أن تكسريه وتأكليه؟

رفعت الدجاجة الذهبية -هذه المرة- رأسهاونظرت إلى وجه العجوز فرأت تلك العينين الراضيتين الرحيمتين ، وذلك الوجه البشوش الضاحك ، وذلك الفم الذى يقطر عسلاً ، فعادت تقول : - لماذا لا أريد يا أمى العزيزة ، أتضعين مرهما على جرحى؟

قالت العجوز: أضع ،، ولماذا لا أضع ؟! انهضى يا دجاجتى الذهبية اللطيفة العطوفة ولنذهب الآن إلى الكوخ .

وفى تلك الليلة لم تحتو مائدة العجوز والدجاجة إلا على الجوز فقط، وفى الصباح نهضت العجوز وأزالت خيوط العنكبوت الموجودة فى كل زاوية وكل ركن وألقت بها بعيداً .

٧- قطتان فوق الجدار



كانت ليلة من ليالي الصيف ، لم يكن هناك قمر ، ولا نجمة ، ومن ثم كان الظلام دامساً والوقت منتصف الليل ، كانت الجنادب تصر ولم يكن هناك صوت غير صريرها ، بينما كانت قطة سوداء تأتى من الطرف البعيد للجدار ، وكانت قد طأطأت رأسها وهى تمشى بهدوء وتتشمم هنا وهناك.

ومن الطرف الآخر للجدار كانت قطة بيضاء تتقدم ، ورأسها هي الأخرى منحنية ، تسير بهدوء وهى تتشمم الأرض .

أخذت كل منهما تتقدم ، وفى وسط الجدار اصطدمت رأس كل منهما بالأخرى فزامتا، تراجعت كل واحدة منهما للخلف مسافة شبر، ثم وقفتا بعد ذلك وتنمرت كل منهما للأخرى، ولم تكن المسافة بينهما تزيد عن شبرين ، وكان قلباهما يدقان بشدة وانتظرتا برهة ، ولم تفعلا شيئاً بل كانتا تموءان وتحملقان فحسب .

فجأة تقدمت القطة السوداء زاحفة ، فتحركت القطة البيضاء ، وماءت مانعة إياها قائلة لها بحدة : لا تأتى ... مياو

لم تهتم القطة السوداء وتقدمت زاحفة ثانية وأخذت كل منهما تزوم.

صار يفصل بينهما شبر واحد ، وأخذت القطة السوداء فى التقدم إلى الأمام ، فحذت القطة البيضاء حذوها ، ومدت مخالبها الحادة إلى القطة السوداء ومزقت أذنها ، ثم أخذت بعد ذلك تصرخ فيها قائلة : ألم أقل لك أيتها الحمقاء ألا تتقدمى؟!

صرخت القطة السوداء بدورها : باف ف ... اووف!!

لكنها لم تستطع أن تجرح خصمها ، فازداد غضبها ، وتراجعت قليلاً للخلف ثم نهضت وماءت قائلة : - مياو!! إفسحى الطريق لكى أمر ،

وإلا فكل ما يحيق بك منك .

وتعالت ضحكات القطة البيضاء ، ولعقت شواربها وقالت : - يا له من كلام مضحك، ذلك الذى تعرفين !! أأفسح لك الطريق لتعبرى ؟ إذا كان إفساح الطريق عملا جيداً فلماذا لم تفسحى أنت الطريق لأذهب إلى آخر الجدار.

قالت القطة السوداء : - قلت لك افسحى الطريق لأمر، ثم تعالى بعد ذلك واذهبى إلى أى جحيم تريدين .

فضحكت القطة البيضاء ضحكة عالية وقالت : - إن لم تسمعى كلامي هذه المرة سألتهمك دفعة واحدة .

غضبت القطة السوداء غضباً شديداً ، وفجأة ماءت قائلة : - تراجعى واذهبى إلى السطح ، افسحى لأعبر أيتها الفأر الميت !!

غلى الدم فى عروق القطة البيضاء ، وتجهمت وماءت بصوت مرتعد من أعماق حلقها قائلة : - أقلتى فأر أيتها الحمقاء !! اوووف ، خذى ب.. بيف ف ف ... !!

ومدت مخالبها مرة أخرى تجاه القطة السوداء ، وكانت القطة السوداء متحفزة هذه المرة ، فضربت أنف القطة البيضاء ومزقته فنزف، ولم يكن آنذاك من الممكن منع القطة البيضاء ، وقوست ظهرها ، وانتصب شعرها ، وأحدثت من الأصوات ما جعل الجنادب تقطع صريرها ، وصارت كلها آذانا صاغية .

وكانت هناك برعمة حمراء تتفتح تدريجياً ولم تكمل تفتحها ، بينما كان نجم ضخم فى السماء يبدو واضحا جلياً .

وماءت القطة البيضاء وهى فى شدة غضبها قائلة : - مياو...! ألم

تسمعي ما قلت ؟ تراجعي ، أفسحي الطريق لأمر أيتها الفأر الأسود المتهافت .
وجاء الدور على القطة السوداء لتضحك ، فضحكت وقالت : - أولاً الفأر في الغالب أبيض اللون أكثر منه أسود ، إذن فالفأر هوأنت ، ثانياً : لا تحدثي جلبة وضوضاء فيستيقظ الناس ويجيئون لضربنا ضربا مبرحا، أنا شخصيا لا أفزع من الجلبة والضوضاء ولن أتراجع ، وسأبقى فى مكانى حتى يفرغ صبرك وتتراجعي وتذهبين إلى حال سبيلك .
هدأت القطة البيضاء قليلاً وقالت : أنا التى يفرغ صبرى؟ لقد كنت أود أن تأتى إلى مسمط "حسن الأكارعي" عند الظهر فترين كيف انتظرت ثلاث ساعات لاتطرف لى عين وقابعة أمام جحر فأر.
ولم تنبس القطة السوداء بحرف وكانت قد قبعت هادئة تحملق ، وقبعت القطة البيضاء أيضا ولم تقل شيئاً . وتناهى إلى الأسماع بكاء طفل ، ثم انقطع ، ثم عاد صرير الجنادب وخشخشة الزهور التى كانت منهمكة فى التفتح .
مكثت كل من القطتين تحملقان فى بعضيهما لمدة دقيقتين ولم تستسلم إحداهما ،
ولكن من الواضح أن صبر كلتيهما كان قد فرغ ، وكانت كل واحدة منهما تريد أن تبدأ الأخرى بالكلام .
فجأة ماءت القطة البيضاء قائلة : - وجدت حلاً
فقالت القطة السوداء : أى حل ؟
قالت القطة البيضاء : - إن لدى عملا هاماً ، هاما جداً ترجعين أنت

لآخر الجدار ثم آتى أنا وأمر ، وبعد ذلك تذهبين أنت .
ضحكت القطة السوداء وقالت : - عجباً لهذا الحل ! أنا نفسى لدى عمل مهم وسريع وفورى ، فلن أستطيع التوقف ولو لنصف ثانية .
قالت القطة البيضاء بدهشة : ثانية لا تتفاهمين !! قلت لك لدى عمل هام، وافقى ، وابتعدى عن طريقى .
قالت لها القطة السوداء بصوت أكثر حدة : مياو!! من تكونين حتى تأمرينى ، إفهمى ما تنطلقين به !!
زامت القطة البيضاء ، وتحفزت وماءت بحدة : مياو ، أنا أفهم كلامى جيداً ، إنك أصلا عنيدة ، فلابد أن أذهب إلى بيت "حسن الأكارعى" فإننى أشم رائحة لحم الرأس والاكارع من هنا، أفهمتِ الآن أى عمل ضرورى لدى؟
زامت القطة السوداء وماءت قائلة : - أتعتقدين أننى أتسكع عبثا على جدران الناس؟ فأنا أيضا شممت رائحة "القرمه سبزى" وأنا جائعة جداً . وإن وقفت فى طريقى ثانية فسأضربك حتى تسقطى أسفل الجدار ويتحطم مخك .
لم تستطع القطة البيضاء أن تكبح جماح نفسها وماءت قائلة : مياو!! إنتحى جانباً أيتها الحمقاء !! ... بيف بيف ! خذى ...
ودفعة واحدة مدت مخالبها ومزقت شعر رأس القطة السوداء فتطاير فى الهواء، وأخذت كل منهما تزوم على الأخرى، واشتبكتا وأخذت كل منهما تكيل السباب والفحش على رأس الأخرى . إذ جاء شخص من أسفل السور، وسكب عليهما ماء بارداً ، فاضطربت كلتاهما وعادتا مسرعتين وفرتا هاربتين .
وهربت كل منهما من الطريق الذى كانت قد أتت منه ، دون أن تنظر خلفها .

٨- دومرول المجنون



في يوم من الأيام كان هناك بين قوم الغُز بطل يدعى " دومرول ديوانه سر " ، كانوا يطلقون عليه "ديوانه" بمعنى المجنون لأنه في طفولته كان قد قتل تسعة من الثيران الوحشية ، كما قام بأعمال بطولية أخرى كثيرة ، أما الآن فقد أقام جسرا على مجرى نهر جاف وأخذ يجبر القوافل والعابرين على أن يمروا من فوق جسره مقابل ثلاثين قطعة فضية لكل من يعبر ، وكان يضرب كل من كان يمتنع ويريد أن يعبر من طريق آخر ضربا مبرحا بالهناء والشفاء ، ويأخذ منه أربعين قطعة فضية ويعبر.

ألم تكون تسألون أنفسكم قط لماذا كان يفعل "دومرول" هكذا ؟

كان " دومرول" نفسه يقول : أريد أن يظهر بطل قوى يتمرد على ويقاتلني فأطرحه أرضا ويذاع خبر بطولتي في جميع أنحاء العالم وتتناولها الألسن، هكذا كان " دومرول " بطلا شجاعاً .

ذات يوم جاءت إحدى الجماعات وضربت خيامها على حافة جسره ومن بينها شاب معروف بحسن خلقه وبطولته ، وذات يوم مرض فجأة وفاضت روحه ، وتعالى الصياح والصراخ والعويل حتى وصل إلى عنان السماء ، كان أحدهم يصرخ قائلاً وهو يشعد شعره : واحسرتاه يا بني ، وكان آخر يقول : واحسرتاه يا أخي ، وهو يحثو التراب على رأسه ، أخذ الجميع يبكون ويولولون ويذكرون اسم ذلك البطل .

عاد " دومرول " من الصيد – فجأة – فسمع صوت النواح والعويل ، فغضب وصاح قائلاً : أيها الخبثاء ، لماذا تبكون ؟ ما هذا النواح والعويل بجوار جسري ؟

تقدم كبار الجماعة وقالوا : – أيها البطل لا تغضب ، كان لدينا شاب شجاع مات اليوم فحسب ورحل عنا ، ولذلك ترانا نبكي .

سلَّ " دومرول ديوانه سر" سيفه وصاح قائلاً : من قتله ! من تجرأ ليقتل بجوار جسرى ؟

قالوا له : أيها البطل ، لم يقتله أحد ، فقد أمر الله "عزرائيل" ذا الأجنحة الحمراء ، وقبض روح ذلك الشاب .

صاح "دومرول ديوانه سر" بغضب : من عزرائيل هذا ؟ أنا لا أعرف عزرائيل ولاغيره، يارب استحلفك بأن ترسل عزرائيل هذا إلى ولتجعلنى أراه حتى أصارعه وأسحقه وأبدى رجولتى، وأسترد منه روح هذا الشاب البطل ، فلا يقتل بعد ذلك شخصاً غدراً، ولا يأخذ أرواح الأبطال الشجعان مرة أخرى .

- عاد " دومرول " إلى بيته بعد أن أتم حديثه هذا .

غضب الله من كلام " دومرول " وأمر عزرائيل قائلاً : - يا عزرائيل أرأيت ما قاله هذا المجنون الخبيث ؟إنه يكفر ولم يشكر قدرتى ووحدانيتى حق شكرها ويريد التدخل فى أمرى ، ويفخر بنفسه كل هذا الفخر.

قال عزرائيل : - مُرنى يارب أن أذهب وأقبض روحه حتى يثوب إلى رشده ويعرف معنى الموت .

أمر الله عزرائيل قائلاً : يا عزرائيل إهبط الأن ، وأظهر نفسك أمام هذا المجنون وأدخل الرعب فى نفسه ثم اقبض روحه وعد بها إلىّ .

قال عزرائيل : سأذهب الآن إلى " دومرول " وألقى نظرة عليه سيهتز من رؤيتى مثل شجرة الصفصاف ، ويشحب لونه ويصبح مثل لون الزعفران .

* * *

كان " دومرول ديوانه سر " جالسا في منزله مشغولا بالحديث مع أربعين من أبطاله المصطفين يتحدثون عن صيد الأسود والنمور وعن بطولاتهم بينما كان الحراس فى الخارج يحرسون الأبوب - وفجأة ظهر عزرائيل أمام " دومرول " ولم يره أحد من الحراس ، ظهر فى صورة شيخ قبيح دميم لدرجة أن أسد الأدغال نفسه يموت هلعا من رؤيته، وكانت عيناه العمشاوان تنفذان إلى القلب.

وبمجرد أن رآه " دومرول " أظلمت الدنيا أمام عينيه، وفقد السيطرة على يديه فأخذتا ترتعدان وتمرر عيشه ، فصرخ وتعالت صيحاته - الآن أنظر لترى ماذا قال " دومرول " :

أيها الشيخ المخيف من أنت !! بحيث لم يرك حراسى ؟ لقد جعلت ما أمام عينى مظلما ، وجعلت يدىَّ ترتعدان ، يا ذا اللحيةالبيضاء ، قل ... حتى أرى من أنت الذى بعثت الرعدة فى جسدى وألقيت بكأسى الذهبى على الأرض؟ أيها الشيخ الأعمش قل ماذا تفعل هنا وإلا سوف أنهض من مكانى وأمطر رأسك بالبلايا ، فتصبح قصة تتناولها الألسن .

كان " دومرول " فى قمة غضبه وشرع يمضغ شاربه ، وهو يضغط بيده على مقبض سيفه ، والأبطال الآخرون جالسون فى صمت وهم على يقين أن هذا الشيخ لن يفلت حيا من يد " دومرول " مطلقاً .

ولما انتهى " دومرول " من كلامه، قهقه عزرائيل وقال : أيها المجنون الخبيث! ألم تعجبك لحيتى البيضاء هذه ؟ فلتعلم أننى قبضت أرواح كثير من الأبطال ذوى الشعور السوداء، لم تعجبك أيضاً عينى

العمشاء أليس كذلك؟ فلتعلم أيضاً أننى قبضت ارواح كثير من البنات والعرائس الشابات ذوات العيون الساحرة ، وألبست كثيرا من الأمهات والأزواج ثياب الحداد .

لم يكن صوت يصدر عن أحد ، وكان فم " دومرول " قد أرغى وأزبد من كثرة الكلام ويريد بأسرع ما يمكن أن يُعرف الشيخ نفسه ، كى ينهض ويضربه بسيفه فيشطره نصفين ، وصاح قائلاً : - أيها الشيخ قل ما اسمك حتى أعرف من أنت وإلا قتلتك بدون معرفة اسمك أو كنيتك، لقد عيل صبرى .

قال عزرائيل الآن ستعرف من أكون ! أيها المجنون الخبيث ، أتتذكر أنك تفاخرت بنفسك وقلت لو أننى أرى عزرائيل ذا الجناح الأحمر لقتلته وخلصت أرواح الناس منه ؟

قال " دومرول " :أكرر ذلك أيضاً ، لو وقع عزرائيل فى يدى سوف أقتلع أجنحته وأدق رأسه .

قال عزرائيل : أيها المجنون العنيد ، الآن لقد جئت لأقبض روحك ، فهل ستعطينى روحك أو تدخل معى فى حرب ضروس ؟

عندما سمع " دومرول ديوانه سر" نهض وصاح ، آه : أأنت عزرائيل ذو الجناح الأحمر؟

قال عزرائيل : نعم ، أنا .

قال " دومرول " :- لكن أين أجنحتك ، أيها الشقى .

قال عزرائيل : إن لى ألف شكل .

قال " دومرول " : - أتقبض أرواح كل هؤلاء الأبطال والعرائس أيها الجبان؟

قال عزرائيل : صدقت ، الآن جاء دورك أيضاً
صاح " دومرول " قائلاً : - يا سيئ الطوية كنت ابحث عنك في السماء ، فوقعت بين براثني في الأرض ، الأن سأعلمك كيف تقبض الأرواح؟
وبعد أن أنهى " دومرول " كلامه أمر الحراس قائلاً : - أيها الحراس أغلقوا الأبواب ، وانتبهوا حتى لا يهرب هذا المعدوم الهمة .
وأثناء حديثه استل " دومرول " سيفه وأشهره وهجم على عزرائيل، فتحول عزرائيل إلى حمامة وطار من كوة ضيقة بالسقف واختفى ، فضرب " دومرول " كفاً بكف وقهقه وقال للأبطال : - أرأيتم كيف أن عزرائيل خاف من ضربة سيفي وفر هاربا ، ومن شدة فزعه، ترك الباب المفتوح واختفى في الجحر مثل الفأر، لكنني لن أكف يدي عنه ، انهضوا يا أبطالي سوف نذهب في أثره وأقسم أني إذا لم أصده بصقري فلن أتركه يهدأ ويرتاح أبداً .
وانطلق الأبطال الأربعون مع " دومرول " ممتطين جيادهم في أثر عزرائيل ، وكان " دومرول " واضعا صقر صيده على ساعده منطلقا بجواده في إثر عزرائيل، وكلما رأى حمامة انقض عليها، ولكنه لم يكن يجد عزرائيل!!
وفي العودة صار وحيدا وكان يسير في طريق غير مطروق ربما يمسك بعزرائيل فوصل إلى جوار حفرة - وفجأة - ظهر عزرائيل أمام عين حصان " دومرول " وكان الحصان يخب فجفل فجأة ورفع " دومرول " وألقى به في الحفرة وانحنت رأس " دومرول " ، سوداء الشعر وبقيت معوجة ، فنزل عزرائيل إليه ووضع قدمه على الفور على صدر

" دومرول " الأبيض وجلس على صدره وقال له : - يا " دومرول ديوانه سر" ما قولك الآن ؟ الأن ها أنا أقبض روحك، لماذا تعربد وتتحدث عن بطولاتك ؟

أجاب " دومرول " وكان صوته قد تحشرج قائلاً ، يا عزرائيل لم أكن أعرف أنك غير متسامح هكذا ، وأنك تزهق الروح مثل قطاع الطرق وتطعن بالخنجر في الظهر هكذا ...

قال عزرائيل ، لا تهذى ! إذا كان عندك كلام معقول فقل لأنك تحتضر.

أصبح " دومرول " البطل الشجاع المقدام الشهم أسيرا لمخلوقا غير متسامح ، يتلون في الف شكل ويزهق الروح كقطاع الطرق ويطعن في الظهر، أصبح " دومرول " ذلك البطل الحر الآن في حالة يرثى لها وأخذ قلبه يدق بشدة ولم يكن يريد الموت ، بل يريد أن يعيش حياة مليئة بالفرح والسعادة له وللجميع بل يوفرها هو للجميع ، ذلك الرجل الذى كان يضحى بروحه ونفسه من أجل قومه وهو الذى جلب السعادة لموطنه .

أخيرا ، قال " دومرول " يا عزرائيل ، إمنحني فرصة لمدة دقيقة واحدة واستمع وانظر ماذا أقول : - في أرضنا الجميلة جبال ضخمة ذات قمم ثلجية وشاهقة الارتفاع لدرجة أن نبال بطل مثلى لا تصل إلى قممها ، وأسفل جبالنا هذه حدائق غناء مملوءة بالأشجار وخاصة أشجار الكروم التي تثمر العنب الأسمر فكم هو طيب ولذيذ ونظيف ونقوم نحن بعصره وتعبئته في جراره ونتركه حتى يصبح شرابا ثم نشربه ونسكر ونفقد الوعي تماما ونشعر أننا أصبحنا أقوياء ، ونظل

نصرخ صرخات مدوية تجعل أسد الأدغال يرتعد من شدة الخوف ويقشعر الشعر على جلده . لقد شربت من هذا الشراب وغبت عن الوعى ولم أعرف ماذا قلت ، حتى غضب الله علىّ ، فإننى لم أمل البطولة ، ولم أشبع من الحياة ، ومن ثم فإنى أخشى الموت ، لا أريد أن أموت ، إننى أرغب فى الحياة ،لأحقق بطولات وأقدم الإحسان ، يا عزرائيل النجدة ، لا تقبض روحى ، اتركنى فى حالى واذهب وأقبض أرواح الذين يبحثون عن سعادتهم على حساب شقاء الآخرين ، ويحصلون على خبزهم على حساب الجوعى ، إذهب ...

قال عزرائيل :- لا تهذِ يا وقح، فإننى أشتم رائحة الكفر فى توسلك ، فلا تتوسل بى فأنا مخلوق عاجز مثلك ، وليس بيدى شئ فأنا فقط أنفذ أوامر الله .

قال " دومرول " : - هل يقبض الله أرواحنا ؟

قال عزرائيل : حقا . هذا الأمر ليس لى به علاقة .

قال " دومرول " : - إذن لماذا تزج بنفسك ؟ أغرب عن وجهى أنت وسأدبر أمرى بنفسى .

نهض عزرائيل من فوق صدر " دومرول " ، ولكنه ظل يضغط بقدمه على صدره الأبيض فضاق نفس " دومرول " وأخذ عزرائيل يشعر بضربات قلبه تحت قدمه فأيقن أنه خائف .

بسط " دومرول " قدمه المكسورة ونظف جبهته من الدم وقال : - يارب ، لا أعرف من أنت ؟ وماذا تكون ؟ وأين أنت ؟ فالجهلاء يبحثون عنك كثيرا فى السماء وفى الأرض ولكنهم لا يعلمون قط أنك فى قلب البشر ، إذا أردت أن تأخذ روحى فخذها أنت ، ولا تدع

عزرائيل هذا الذى لا يرعوى يقبضها .
قال عزرائيل : أيها المسكين ، أشتم رائحة الكفر أيضاً فى الإلتماس والدعاء ، ألا ترغب فى الخلاص ؟
اعجب الله بكلام " دومرول " وأمر عزرائيل قائلاً : يا عزرائيل ليس هذا شأنك قل لـ " دومرول " أن يبحث عن روح أخرى ليعطيها لى ، ولا تقبض روحه .
قال عزرائيل : يا رب ، هذا الإنسان وقح ، وتركه لنفسه أمر غير طيب .
أمره الله قائلاً : يا عزرائيل : لا تتدخل فى شأنى مرة أخرى
رفع عزرائيل قدمه من على صدر " دومرول " وقال له : - إنهض ، وإن تستطيع أن تدلنى على روح أخرى بدلا من روحك ، فدلنى وسوف أتركك لحالك .
تحرك " دومرول " البطل ونهض ووقف على قدمه المكسورة ، وقال: أرأيت يا عزرائيل كيف تخلصت منك ؟ تعال لنذهب إلى أبى المسن ، فهو يحبنى كثيرا ، ويفدينى بروحه .
تقدم " دومرول ديوانه سر " ومن خلفه عزرائيل وذهبا إلى الشيخ ، كان أبوه يدعى "دوخا قوجا" . وعندما رأى " دومرول " ورأسه ووجهه يدميان صاح قائلاً : - يا بنى ماذا حل بك ؟ أين جوادك ؟ من هذا الذى يُسمر عينيه علىَّ هكذا ؟!!
إنحنى " دومرول " وقبل يد أبيه وقال : - يا أبى ، أنظر ماذا حل بى لقد كفرت فغضب الله علىّ ، وأمر عزرائيل بأن يهبط من السماء ويقبض روحى . ووضع عزرائيل قدمه على صدرى الأبيض ، وجعلنى

أغرغروأراد أن يقبض روحى ، الآن يا أبى أتعطى روحك لـ عزرائيل ، حتى يتركنى وشأنى ، أم ترغب فى لبس ثياب الحداد فى عزائى وتتحسر على ابنك؟ أيهما تريد يا أبى؟ قرر سريعا فليس لدينا وقت .

صمت "دوخا قوجا" وغرق فى التفكير، وفى نفس الوقت عاد أبطال " دومرول " الأربعون وكانوا قد رأوا جواده الجامح الفزع وهو عائد بمفرده ولم يحضر" دومرول " معه ، فقلق الجميع بشأنه ولكنهم كانوا يرون البطل الأن كسيرا جريحاً واقفاً أمام أبيه .

أخيراً تحدث أبوه وقال : – يا " دومرول " يا فلذة كبدى ، يا بنى ، يا بطلى ، يا من قتلت فى طفولتك تسعة من الثيران الوحشية ، يا من أنت عماد بيتى وحياتى ، ياوردة متفتحة بين بناتى وعرائسى الجميلات ، لا أستطيع أن أتركك تموت ، هذه الجبال السوداء الشاهقة الإرتفاع المتواجهة ملكى ، إذا أرادها عزرائيل قل له أنها ملك له ، وعندى ينابيع مثلجة وخيول أصيلة شامخة رشيقة ، وقطعان من الإبل ، ولدى حظائر مليئة بالخراف والمعز، إذا أراد عزرائيل كل هذا فجميعه له . وكل ما يلزمه من الذهب والفضة سأعطيه له أيضاً ، ولكن يا بنى الحياة حلوة والروح عزيزة ، ولاأستطيع أن أفرط فيها .

قال " دومرول " : يا أبتِ ، فليبق كل شئ ملكا لك ، أريد روحك فقط ، أتعطيها لى أم لا؟

قال "دوخا قوجا" ، يا بنى، لديك أم أفضل منى ، وأحن منى ، فلتذهب إليها .

كان عزرائيل قد هيأ نفسه ليقبض روح " دومرول " ، فقال له " دومرول " كف يدك ، أيها القاسي ، ولنذهب إلى أمي .
وتوجها إلى أم " دومرول " العجوز، فقبل " دومرول " يدها وقال لها : - يا أمي ، ألم تسألي لماذا كُسرت هكذا ؟ ولماذا جرحت هكذا؟ وماذا حل بي؟
قالت أمه وهي تنوح ، واحسرتاه يا ولدي ، ماذا أصابك ؟
قال " دومرول " يا أمي ، فرد عزرائيل جناحه الأحمر من السماء العلا وانقض عليّ وجثم على صدري ، وجعلني أغرغر وأراد أن يقبض روحي . وأردت من أبي روحه لكي يتركني وشأني ، ولكن أبي رفض ، الأن أريد منك يا أمي أن تعطيني روحك ، أم أنك تريدين أن تتشحي بالسواد في عزائي وتولولين علي وتقولين "وا حسرتاه يا بني ، يا أمي ماذا تقولين؟
وغرقت أمه في التفكير برهة ، ثم رفعت رأسها وقالت : بني ، يا بني ، يا نور عيني، يا من عشت في أحشائي تسعة أشهر، يامن رضعت من لبني ، ليتك كنت أسيرا في قلاع عالية وبروج مشيدة لاتُنال، كنت أهب لنجدتك ، وأبذل كل ما أملك من ذهب وفضة ، ولكن ماذا أفعل فإنك وقعت في مأزق شديد ، وليس لدى حيلة لإنقاذك ، يا بني الحياة حلوة والروح عزيزة ، ولا أستطيع أن أفرط فيها ولا حيلة لي .
وضنت أمه أيضا بروحها . تضايق " دومرول " وتقدم عزرائيل ليقبض روحه ، فثار " دومرول " وصرخ فيه قائلاً : كف يدك أيها الغليظ!! أعطني لحظة أمان واحدة ، يا عديم المروءة .

قال عزرائيل وهويسخر منه : يا بطل الآن ماذا تريد آخراً ؟ لقد رأيت بنفسك لاأحد يريد أن يرحمك ويعطيك روحه ، على كل ، فأكرم لك أن تعطيني روحك بسرعة .

قال " دومرول " : - أتريد أن توقع الحسرة فى قلبى ؟

قال عزرائيل : الحسرة على من ؟

قال " دومرول " : لدى زوجة ، ولدى ولدان أمانة فى عنقي ، فلابد أن أذهب وأودعهما أمانة بيد زوجتي ، بعد ذلك إفعل بى ما تريد .

تقدم " دومرول " وذهب إلى زوجته ، كانت زوجة " دومرول " قد أجلست طفليهاعلى ركبتيها لترضعهما وهى تداعبهما وتدللهما وكذلك كان الطفلان يداعبان ثديى أمهما وهما يرضعان ، لاهثين وكانت عيناهما تضحكان .

دخل " دومرول " ورأى زوجته ، وطفليه وأمتلأ قلبه بالفرح والحسرة معاً ، وعندما رأته زوجته وضعت الطفلين على الأرض وتعلقت برقبة " دومرول " وصاحت قائلة:- يا " دومرول " يا ملجأى وملاذى يا بطلي ، ماذا بك؟ لم يعرف قلبك الضيق والغم من قبل ، ولم تهزم من قبل ، الأن لماذا أنت حزين وقلق ، أنظر إلى أطفالك .

نظر " دومرول " لطفليه وهما يتدحرجان على جلد الغزال المفروش على الأرض وكل منهما يداعب الآخر ، وتتعالى صيحاتهما من شدة الفرح وعيناهما تبرقان من شدة السعادة .

وظل " دومرول " يحملق فى طفليه برهة ، ثم قال لزوجته: يا زوجتى الجميلة ،يا أم أولادى ، تعلمين أن عزرائيل اليوم قد فرد أجنحته الحمراء فى السماء العُلا وهبط علىّ وجثم هذا القاسى على صدرى ،

وأراد أن يقبض روحى الحلوة ، ذهبت الى أمى العجوز، رفضت أن تعطينى روحها ، كذلك رفض أبى المسن أيضاً وقالا لى : - الحياة حلوة ، والروح عزيزة ، لا نستطيع أن نفرط فيها . الأن ، يا امرأتى ، يا أم أولادى ، قد جئت لأودع أولادى أمانة فى عنقك ، ولتكن جبالى الشاهقة السوداء منتجعا فى الصيف لك ، وينابيعى الباردة هنيئة لك ، لدى خيول أصيلة كثيرة فلتركبيها! ولتكن بيوتى الفاخرة المذهبة مظلة لكِ ، ولتحمل قطعان إبلى أحمالك، وقطعان الأغنام التى لاحصر لها ، هي لك أيضاً ، يا زوجتى يا أم أولادى ، إذا أعجبت بأى رجل من بعدى وتعلق قلبك به فلتتزوجيه ولكن لا تكسرى قلب ولدىّ فسأدعهما أمانة في عنقك وسوف أذهب .

تقدم عزرائيل ، ووقف " دومرول " بلا حراك وفجأة قفزت زوجته من مكانها ووقفت حاجزا بين عزرائيل وزوجها ، وصرخت قائلة : - ياعزرائيل ، انتظر، الآن أنا موجودة هنا ولن أترك زوجى وملجأى وملاذى ويطلى يموت ولا يرى شباب ولديه وبطولاتهم .

فى تلك الآونة اتجهت صوب زوجها وقالت : - يا " دومرول " ، يا زوجى ، يا أبا أولادى البطل ، ما هذا الكلام الذى قلته ؟ يا من منذ فتحت عينى عرفته ، يا من أعطيته قلبى ، ويا من صرت زوجة له بكل حب ، وقنعت به ، وصرت سعيدة معك ، ماذا أفعل من بعدك بالجبال الخضراء؟ فلتكن قبرا لى إذا وطأتها بقدمى ، ماذا أفعل بالينابيع الباردة بعدك؟ فلتكن دما إذا شربت منها جرعة واحدة . ماذا أفعل بعدك بذهبك وفضتك ، إنما تصلح فحسب لشراء كفنى ، ثم ماذا أفعل بعدك بالخيول الأصيلة؟ فلتكن حاملة لنعشى إذا

وضعت قدمى في ركابها . ماذا أفعل بالزوج بعدك؟ فلتلدغنى حية إذا تزوجت، يا زوجى ، ويا أبا أولادى ، أى قيمة للروح التى بخلت أمك وأبوك المسنان بها عليك ؟ فلتشهد السماء ، ولتشهد الأرض وليشهد الله ، وليشهد أبطال القبيلة ورجالها ونساؤها أننى أعطيك روحى بكامل رضاى .

قبلت المرأة زوجها وطفليها ووقفت أمام عزرائيل صامتة هادئة ، فهَّم عزرائيل أن يقبض روح المرأة ، فتحرك " دومرول " هذه المرة مسرعاً من مكانه وصرخ قائلاً:يا عزرائيل أيها القاسى القلب ، لماذا تتعجل لتلبسنا السواد؟ أنتظر، لازال عندى ما أقول .

عندما رأى عزرائيل ، " دومرول " غاضبا هكذا لم يجرؤ على أن يمد يده تجاه زوجته وتراجع للخلف ووقف ساكناً.

لم يتحمل " دومرول " البطل العظيم الشجاع رؤية موت زوجته . ففتح فاه وصرخ بصوت مرتفع جداً : يا رب ، لا أعلم من أنت ؟ وماذا تكون ؟ وأين أنت؟ فهناك كثير من الأغبياء يبحثون عنك في السماء ويبحثون عنك أيضاً فى الأرض ، ولكنهم لايعلمون قط أنك موجود فى قلب البشر، يا الله يا ربى ، سوف أشيد بنايات على مشارف الطرق ، وأشبع الجوعى ، وأكسى العرايا ، وأجلب السعادة للجميع ، إننى أحب زوجتى ، إذا أردت روحا فإما أن تقبض روحينا معاً وإما تتركنا نحن الإثنين!!

سُر الله من كلام " دومرول " وأمر عزرائيل قائلاً له : - أترك هذين الزوجين فإنهما سيعيشان مائة وأربعين عاما أخرى ، ولتذهب وتقبض روحىْ والدى " دومرول " ثم تعود .

إحتضن " دومرول " زوجته وطفليه وأخذ يقبلهم بشدة . وخيمت السعادة على الجميع وأخذوا يغنون أغاني البطولة، وينشدون أناشيد السعادة ويصيحون صيحات الفرح ورقص الرجال والنساء من فرط السعادة . وتسابقوا بالخيول . وفى غمرة الفرح تقدم "دده قورقود" شيخ قوم "الغز" ذو اللحية البيضاء ليشاركهما الفرحة .
وقام بنسج قصة عن أحوال " دومرول " وزوجته وألف أيضاً أغنية بإسميهما حتى يقرأها الأبطال ، ويتعلموا منها العبرة والدرس .

٩- أسطورة الحب



(١)

فى يوم من الأيام ، كان هناك ملك وله ابنة عمرها ست أو سبع سنوات . وكانت هذه الأميرة تمتلك العديد من الجوارى والخادمات ، بينما كان خادم واحد يكبرها قليلاً يدعى "قوج على" . وكان "قوج على" هذا يقوم على خدمتها ، فإذا سقط منديلها وقت تناول الغداء يحضره لها ، وإذا ابتعدت الكرة أثناء اللعب يحضرها لها أيضا . كانت الأميرة تعشق لعبة "القله" من بين ملايين الألعاب ، بل كانت تلعبها بشغف شديد . وكانت لعبتها هذه مصنوعة من الذهب والفضة . وكان السبب فى ذلك أن الملك عندما رأى ابنته تلعب هذه اللعبة - لأول مرة - بولع شديد ، جمع صاغة المدينة وأمرهم بأن يصنعوا أدوات هذه اللعبة من الذهب والفضة فى غضون ساعة واحدة . وقد تكلفت هذه اللعبة أكثر من مائة ألف تومان ، كما أن أحد الصياغ لقى حتفه بسبب هذه اللعبة عندما اعتذر عن عدم الحضور لأنه كان يصنع قرطا لابنته المولودة حديثاً .

وعندما كانت الأميرة تلعب "القله" ، كان "قوج على" يقف بالقرب منها وينتظر . وكانت الأميرة تضع العصا القصيرة المصنوعة من الفضة على الأرض ثم تضرب عليها بالعصا الطويلة المصنوعة من الذهب فتطير العصا القصيرة فى الهواء . وكانت وظيفة "قوج على" أن يسعى وراء العصا ويحضرها ليضعها أمام الأميرة حتى تضربها مرة أخرى ضربة قوية . ويكرر "قوج على" نفس العمل ، وعندما يحل التعب بالأميرة من اللعب ، كان "قوج على " يذهب ويخبر جواريها وخادمتها ليأتين ويحملنها على المحفة إلى قصرها . ثم يذهب "قوج

على" ليخبر المسؤول عن خزانة لعب الأميرة حتى يحضر ويأخذ لعبة "القلة" ويضعها فى مكانها بجوار ملايين اللعب ، بعدها يتوجه إلى المسؤول عن خزانة ملابس الأميرة ليحضر لها الملابس الخاصة بتناول الطعام ويضع الملابس الخاصة بلعبة "القله" فى مكانها . ويذهب "قوج على" بعد ذلك إلى طباخ الأميرة ويخبره بضرورة حمل الطعام لها بعد لعبة "القلة" . فالأميرة كانت تأكل طعاماً خاصاً بعد كل لعبة .

كان "قوج على" يسعى وراء هذه الأعمال دائما . وعندما كانت الأميرة تنام ، كان على "قوج على" أن ينام وراء بابها حتى تعلم الجوارى والخادمات والخدم أن السيدة نائمة فلا يسأل أحد منهم عن شئ ولا يتفوه أحدهم بكلمة .

كان "قوج على" ينفذ كل أوامر الأميرة بحب وينجزها على أكمل وجه . لذلك لم تمد الأميرة يدها عليه مطلقا . وكان "قوج على" يعشق الأميرة ، كان يحبها حبا طاهرا نقيا ، ولم يكن يرى أى عيب فى مشاعره ، لذلك فقد أفضى بسر قلبه للفتاة .

ففى أحد الأيام ، كانت الأميرة فى الحديقة تصيد الفراشات ، وكان "قوج على" يقف أسفل الشجرة يراقبها، وأحياناً عندما كانت الفراشات تحط أعلى الشجرة ، كان "قوج على" يصعد إلى أعلى الشجرة ويهزها حتى تطير الفراشات . وفى إحدى المرات رأت الأميرة فراشة كبيرة ، فصاحت على "قوج على"وقالت له : - تعال وأمسك هذه الفراشة فأنا أخاف منها . أسرع "قوج على " وأمسك بالفراشة ووضعها فى الشبكة . وعندما رفع رأسه رأى الأميرة تقف فى مواجهته . فقال لها وصوته يفيض حناناً : - سيدتى الأميرة ، أنا

أحبك ، وأتمنى عندما نكبر أن تصيرى زوجة لى .
لم يكمل "قوج على " حديثه حتى صفعته الأميرة صفعة قوية على صدغه وصرخت فيه قائلة : - خادم وضيع ، بأى حق تعشقنى؟ أنسيت أننى أميرة وأنك خادمى؟ إننى لا أقبلك حتى كلباً لى ، ياإبن الكلب ، أغرب عن وجهى ، إذهب وقل للخادمات أن يحضرن ليحملننى وليخرجنك من هنا ولا أريد أن تقع عيونك القذرة على مرة أخرى .
ذهب "قوج على " وأخبر الخادمات، فجئن مسرعات بالمحفة ووجدن الأميرة غاضبة ، فانهلن على "قوج على " بالسؤال : - ماذا فعلت بالأميرة يا ولد ؟
قال "قوج على " : - لم أفعل شيئا لقد غضبت من تلقاء نفسها ، ضربتنى وأغمى عليها ، وقسماً بكذا وكذا !! ولكن من كان يصدقه .
وفى الحال ، أحضرت الخادمات ماء الورد والعصير وأعدن للأميرة رشدها ، ثم وضعنها على المحفة وحملنها مسرعات إلى القصر . وأمرتهن الأميرة بإبلاغ أبيها حتى يأمر الخدم بأن يمسكوا أذن هذا الخادم ناكر الجميل القذر ويخرجوه من القصر كالكلب ، لأنها لاترغب أن تقع عيونه القذرة عليها . وأصدر الملك أوامره فى نفس اللحظة ، فأخرجوا "قوج على " فى نفس اللحظة كالكلب ، وسقطت الأميرة طريحة الفراش لعدة أيام . وكان الأطباء يسهرون بجوارها يوميا . وفى النهاية قالت : - لقد تحسنت الآن ، وصرفت الأطباء .

(٢)

مرت السنون ، وأخذت الأميرة تصبح أكثر غروراً يوما عن يوم وسنة عن أخرى . ولم تكن قد عينت لها خادما مكان الكلب "قوج على" . وعندما بلغت السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، أصدرت أمراً بأنه ليس من حق أى إنسان أن ينظر إليها وليس من حق أى إنسان أن يلوث جسدها الطاهر بنظراته ، وإذا حدث وأخطأ أحد من الخادمات أو الخدم ونظر إليها ، فإنه كان يُجلد جلدا شديداً ، وإذا فتح أحد منهم فمه أو تفوه بكلمة فإنه يلقى حيا للذئاب الجائعة ، وكانت الأميرة تمتع عينيها برؤية ذلك المشهد .

وكان الملك يحب ابنته حباً شديداً من أجل أفعالها هذه ، وكان دائما يقول لها : – يا بنيتى ، أنا سعيد بك لأنك تشبهيننى .

وهكذا أصبحت الأميرة وحيدة دائما تتجول فى الحديقة ولا تتحدث مع أحد . وكانت تقول : – لايوجد أحد جدير بالحديث معى . وقد أقيم للأميرة حوضان كبيران للسباحة فى وسط الحديقة ، كانا دائما مملوءين : أحدهما بالحليب الطازج والآخر بماء الورد وعطر الورد الأحمر والياسمين وما إليها . وكانت فتاتان من الخادمات تأتيان فى ساعة معينة إلى حافة حوض السباحة وهما تغضان البصر ، وتنتظران حتى تخرج الأميرة من حوض الحليب إلى حوض ماء الورد ، ثم تخرج وتلف نفسها بالمنشفة . ولم يكن يحق للخادمتين أن تلمسا جسد الأميرة ، وإذا لمس طرف إصبع إحداهن جلدها أو شعرها ، فإنها تسلم إلى الجلاد فى نفس اليوم ليقطع إصبعها أو يدها .

وإلى هذا الحد ، أخذت الأميرة تُبعد الآخرين عنها ، فظلت وحيدة . ولم تكن تعلم كيف تقضى الوقت ، وقنعت بصيد الفراشات وقطف الورود والاغتسال بماء الورد والحليب واللعب بالألعاب والأكل والشرب ومشاهدة الذئاب . لم يكن أمامها من مفر إلا أن تقضى معظم الوقت فى النوم . ودائماً ما كانت ترى "قوج على " فى الحلم ، حيث كان يأتى ويلعب معها . وفى الحلم كانت الأميرة تسعد بذلك فى البداية ، لكنها سرعان ما تتذكر أنها أميرة وأن هناك فرقاً كبيراً بينها وبين الآخرين . وعندئذ تعود إلى سابق وضعها وتبعد "قوج على " عنها . ولم يكن "قوج على " يعبأ بذلك . وعندما يهم بأن يمسك يدها ، كانت الأميرة تدفعه بقوة ، وتجاهد فى سحب يدها . وفى النهاية كانت الأميرة تستسلم ، ويصبح بوسع "قوج على " حينئذ أن يمسك يدها ، ثم يشرعا فى اللعب والقفز واصطياد الفراشات . وفى أثناء اللعب ، كان "قوج على " يقول لها : – سيدتى الأميرة ، إننى أعشقك وأتمنى عندما نكبر أن تصيرى زوجة لى .

وهنا تتذكر الأميرة مرة أخرى أنها ابنة الملك ، فتصفع "قوج على " وتصرخ فى وجهه ثم تسلمه إلى يد الجلاد . وفجأة تستيقظ من النوم على صراخها وصياحها .

كانت الأميرة ترى هذا الحلم دائما ، ولم تكن تستطيع أن ترى فى الحلم رفيقا آخر للعب . وكان "قوج على " يعاودها فى الحلم كثيرا وهو فى سن الطفولة ووضعها وهيأتها ، وكان العديد من أبناء ملوك البلاد البعيدة قد جاءوا لخطبة الأميرة ، ولكنها كانت ترفضهم من قبل أن تراهم قائلة : – أنا لا أحب أحدا إلا نفسى .

(٣)

وذات يوم ، بينما كانت الأميرة تستحم فى حوض السباحة ، جاءت حمامة وحطت فوق شجرة الرمان الموجودة على حافة الحوض ، وقالت : - أيتها الفتاة الجميلة ، ما أجمل جسمك ، إنى أعشقك ، أرجوك أخرجي من الحليب حتى أراك جيداً .

قالت الأميرة : - أيها الطائر القذر ، إنى آمرك أن ترحل من هنا ، فأنا الأميرة ولا يحق لأى شخص أن ينظر الىّ . وليس لأى شخص الجدارة بأن يتحدث معى .

ضحكت الحمامة وقالت : - أيتها الفتاة الجميلة ، أعلم أنك منذ فترة طويلة لم تحدثى أحداً .

وفجأة نسيت الأميرة أنها ابنة ملك ، فأصبحت رقيقة ، وقالت : - أيتها الحمامة عذبة الحديث أرجوك لا تنظرى إلىّ فهذا شئ سئ.

قالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، ليس بيدى ، لا أستطيع إلا أن أنظر إليك ، فأنا أحبك .

قالت الفتاة : - إذا كنتِ عاشقة حقا فأخرجي من جلدك حتى أراك أنا أيضاً.

قالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، هل تقبلين حبى لك ؟ إننى أخاف، فاعطنى ضماناً منكِ حتى يتقوى قلبى وأخرج من جلدى .

قالت الفتاة : أيتها الحمامة عذبة الحديث ، أى شئ تريدينه فسوف أعطيك إياه .

قالت الحمامة : أيتها الفتاة الجميلة ، أعطنى نومك

قالت الفتاة : - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، فى أى شئ يفيدك نومى؟

قالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، بعد ذلك سترين فى أى شئ ينفعنى نومك .

قالت الفتاة : - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، نومى ملك لكِ

وفجأة ، قطع هذا الحوار صوت الخادمات القادمات يحملن المنشفة فى أيديهن وهن يطأطئن رؤوسهن ويغضضن من أبصارهن ، فقالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، صار نومك ملكاً لى ، إننى أرى خادماتك قادمات ، لذا سأذهب الآن ، لكننى سأعود فيما بعد . وقبل أن أمضى سأطلق عليك اسم "قيز خانم" لأنه من العيب أن تكون هناك فتاة بلا إسم .

وتذكرت الأميرة فجأة أنها ابنة الملك ، فأخذت تصيح قائلة: - أيها الطائر القذر، أى حق لك حتى تتحدث معى؟ أعد لى نومى وإلا أخرجت قلبك وأمعاءك من قفاك . ليس لك الحق فى أن تطلق علىَّ اسما من فمك القذر هذا . وما إن أتمت قولها حتى كانت الحمامة قد طارت من فوق شجرة الرمان ، وظلت الأميرة فى حالة عصبية ، واشتدت رغبتها فى تقديم ضحايا جدد للجلاد .

(٤)

مضت عدة أسابيع ولم تنم الأميرة دقيقة واحدة ، لم يأت النعاس لعينيها قط . فى البداية ظلت هكذا بلا نوم حتى ظن الجميع أنها أصيبت بالجنون . وظلت بغرفتها كالكلب المسعور تنشب

أظفارها بالباب والحائط وتسب الجميع . لم تسمح الأميرة لأحد بالدخول عليها حتى لأبيها ولا للأطباء ، وظلت أياماً وليالى وحيدة تماماً . وفى النهاية تعبت وسقطت مريضة . وفى هذه المرة ، لم يأت النوم لعينيها أيضاً . ولم تكن تتحدث أو تتحرك . وكان الأطباء يحضرون واحدا تلو الآخر ولكن لم يستطع أى منهم إبراء الفتاة .
وكان الملك قد أصدر أمراً بأنه لا يحق لأى شخص أن يلمس جسد ابنته بيده ، لذلك لم يستطع الأطباء تحديد ما تعانى منه الفتاة .
وذات يوم جاء طبيب شيخ ذو هيئة غريبة وقال لهم : - إنى أستطيع تحديد المرض دون أن تلمس يدى جسد المريضة ، كما أستطع وصف الدواء ، وإن لم أستطيع فاضربوا عنقى .
وأمرهم الملك بأن يحملوه إلى الفتاة ، وظل الطبيب الشيخ جالسا بجوارها يراقبها لفترة طويلة ، ثم قال : - علاجها الوحيد "أسطورة الحب" . لابد أن يجلس شخص ما عند رأسها ويقص عليها "أسطورة الحب" حتى تشفى وتستطيع النوم . وأمر الملك المنادين بأن ينطلقوا فى جميع أنحاء المدينة ويعلنوا أنه على كل من يعرف "أسطورة الحب" أن يأتى ليقصها على الأميرة وسوف يجزل الملك له العطاء .
وجاء كثيرون ممن يدعون معرفة "أسطورة الحب" طمعا فى المال . ولكن عندما كانوا يصلون إلى ما خلف ستارة حجرة الفتاة كانوا يضطرون إلى حبك الأكاذيب . لم يكن لحديثهم أى أثر على الفتاة ، ومن ثم فقد أسلمهم الملك جميعا إلى الجلاد .
وهنا لم يعد يجرؤ أى شخص على التقدم ، ومضت عدة أيام وظهر الطبيب الشيخ الغريب مرة أخرى ، وقال للملك : - أى مدينة تلك

التى لا يوجد بها أحد يعرف "أسطورة الحب" ؟ عموماً هناك شاب يعيش فى جبل كذا ، يعرف "أسطورة الحب" . إذهب وأحضره ، ولكن أيها الملك أعلم أنك أن لم تذهب بنفسك لإحضار الراعى فإنه لن ينزل مطلقا من الجبل .

وخرج الملك ممتطيا جواده ومعه نفر قليل من بينهم الطبيب ، ومضوا فى طريقهم حتى وصلوا أسفل الجبل . ونادوا على الراعى الشاب ، فرد عليهم من أعلى الجبل قائلاً : من أنتم ؟ وماذا تريدون منى ؟

قال الملك : - أنا الملك ، ألم تسمع بأن ابنتى مريضة ؟ أريدك أن تأتى معى من أجلها .

ونسى الملك ما قاله الحكيم ، فذكره الراعى قائلاً : - أتريد "أسطورة الحب"؟

قال الملك : - نعم ، مثلما قلت ، هناك حكيم شيخ غريب قال أنك تعرفها .

قال الراعى الشاب : - نعم أعرفها .

قال الملك : - إذا شُفيت ابنتى ، فإن لك من الذهب والفضة والثروة ما تشاء .

وقال الراعى بينما كان يهبط من الجبل : - أيها الملك ، لو أنك أعطيتنى مال الدنيا لن أجئ ، إن "أسطورة الحب" تحكى من أجل الحب فقط .

لم ينطق الملك ، ولكنه كان يتمنى من داخل أن يسلم هذا الراعى الوقح إلى أيدى الجلادين. وأردف الملك الراعى خلفه ، وظل فى سيره حتى وصلوا إلى القصر ، وهناك أجلسوا الراعى خلف الستارة وقالوا

له : – أقصص الأسطورة من مكانك هذا لأنه لا يجب أن تقع عيناك على وجه الأميرة . قال الراعى الشاب : – لن يكون لأسطورة الحب أى أثر إذا سمعها أحد غيرى أنا والأميرة ، يجب ألا يكون هنا أحد غيرنا ، فانصرفوا .

ولم يجد الملك مفرا من ذلك ، فأمرهم بأن يخلوا قصر الفتاة ، وبقيت الفتاة والراعي فقط داخل القصر، وما أن انصرفوا حتى أبعد الراعى الستارة ودخل الغرفة . وكانت الفتاة ممددة فى هدوء ولا تلقى بالاً لأى شخص ولا لأى شئ ، فجلس الراعى بجوار الباب وقال بصوت مرتفع : – أيتها الفتاة الجميلة ، يا "قيزخانم" ، أريد أن أقص عليك "أسطورة الحب" أتسمعيننى؟ .

وانتبهت الفتاة وبدا لها أنها تعرف ذلك الصوت جيداً ، فحملقت فى وجه الراعى الشاب ، وقالت :– نعم ، اسمع ، قل .

وبدأ الراعى فى رواية " أسطورة الحب "

– فى يوم من الأيام ، كان هناك ملك وله ابنة عمرها ست أو سبع سنوات . وكانت هذه الأميرة تملك من الجوارى والخادمات الكثير. وكان لها خادم واحد يكبرها قليلاً ويدعى "قوج على " كان يقوم على خدمتها ، فإذا سقط منديلها وقت تناول الغداء يحضره لها ، وإذا ابتعدت الكرة أثناء اللعب يحضرها لها أيضاً . وكانت الأميرة تعشق لعبة "القله" وكانت لعبتها تلك مصنوعة من الذهب والفضة . وعندما كانت الأميرة تنام ، كان "قوج على " ينام خلف الباب حتى تعلم الجوارى والخادمات والخدم أن السيدة نائمة فلا يتكلمون ولا يسألون عن شئ . وكان "قوج على " يمتثل لكل أوامر الأميرة بحب ، بل

ينجزها على أكمل وجه . ولذلك لم تمدد يدها عليه قط . كان "قوج على " يعشق الأميرة ويحبها حبا بسيطا نقيا . ولم يكن يرى أى عيب فى مشاعره ، كما لم ير أى عيب فى أن ينتهى ذلك الحب بالزواج . وعندما كانا معا فى الحديقة وكانت الأميرة تصطاد الفراشات أو تلعب "القلة" ، كان "قوج على " يشعر بسعادة غامرة . ولم يكن يشبع من رؤيتها مطلقا ، وكان يتمنى من كل قلبه أن تسمح له الأميرة بأن يمسك يدها ويسيرا سويا ويصطادا الفراشات معا . ولكن الأميرة لم تكن تبدى إعجابها بأى شخص . وكانت تطلق على الخادمات والخدم لفظ "الكلاب" ، ولم تكن تأذن لهم بالدخول عليها ، وكان "قوج على " يحيا حياة سعيدة وبسيطة على هذا النحو حتى اليوم الذى رأى فيه أنه لن يستطيع إخفاء سر حبه عن الأميرة . فى ذلك اليوم قال "قوج على " للأميرة وهى تصطاد الفراشات: - سيدتى الأميرة ، إنى أعشقك ، وأتمنى عندما نكبر أن نتزوج . وغضبت الأميرة من ذلك الكلام وصفعت "قوج على " ثم أبعدته من أمامها وطردته كالكلب ، ولم تفكر مطلقا فى البلايا التى حلت برأسه .

سكت الراعى الشاب ، وقالت الفتاة : - أيها الراعى ، قل ماذا حدث بعد ذلك .

قال الراعى : - أيتها الفتاة الجميلة ، هل فكرت فيما حل برأس "قوج على " من بلايا؟

قالت الفتاة : - لم أفكر مطلقا فيما حل برأس "قوج على " من بلايا ، هل تعرف ما وصل إليه حاله مؤخرا ؟ أكمل الحكاية .

نهض الراعى وجلس بجوار فراش الفتاة ، وأمسك بيدها وهو يواصل حكاية "أسطورة الحب" :

- كان أبو "قوج على " يعمل راعيا ، فتوجه "قوج على " على قدمه إلى الصحراء وذهب باحثا عنه وجده أعلى الجبل . وكان الرجل يشعر بوطأة المرض وهو نائم فى مغارة الخراف ، حيث كانت تعيش معه ابنته التى يناهز عمرها عمر أخيها "قوج على " والتى كانت دائما تأخذ الخراف للمرعى . وقد سر الأب من رؤية ابنه وقال

له : - من عجب أنك أتيت فى هذه اللحظة ،فإنى أحتضر، لا تترك أختك بمفردها

حتى لا تشعر بالوحدة .

ومات الأب ، ودفنه ابنه فى نفس المكان بقمة الجبل ، وعادت أخته عصرا فوجدت أخاها مكان أبيها ، وأخذا يبكيان أباهما معا ثم زرعا وردا وشجرة على قبره .

مرت أيام وأسابيع وشهور وسنون ، وبلغ "قوج على " وأخته السابعة عشرة من عمريهما . وأخذا يجوبان الصحراء لترعى خرافهما فى أحسن الأماكن . وفى الليل كانا يتركانها مع الكلاب فى المغارة . وفى فصل الشتاء فقط ، كانا يذهبان أحيانا إلى المدينة . عندما تكون الخراف قد دخلت الغار الشتوى وحل أوان عطلتهما . كانت أخت "قوج على " لطيفة كنسيم الربيع ، مضيئة متألقة كشمس الصيف ، كفاكهة الخريف محببة ومعطرة كقمر ليالى الشتاء الصافية الجميلة ، وكشقائق النعمان البرية حمراء الوجه وذات جمال وحشى . ولذلك كان "قوج على " يناديها بـ "لاله" .

وذات يوم ، وفى طريق عودتهما بالقطيع ، رأى "قوج على " أن عنزة من القطيع قد فقدت ، فأخذ أحد الكلاب وخرج للبحث عنها فى بعض الجبال ، وفى النهاية رأى العنزة جالسة عند نبع تبكى وكأنها صفصافة ترتعد . وعندما رأى الكلب العنزة ، أخذ ينبح ويقول : - لاتبكى يا عنزة ، لقد جئنا إليك . فرحت العنزة وقالت : - كنت أخاف ألا تبحثوا عنى ، فأصبح من نصيب الذئب ، أشكركما .

حل الليل ، ونظر "قوج على " فرأى - من كوة فى الجبل - سبعة خيول بيضاء تهبط من أعلى ، فترك العنزة مع الكلب يسيران فى طريقهما، واختبأ وراء صخرة وانتظر، ووصلت الخيول إلى النبع ، وكان على ظهر كل واحد منها قربة، فملأ كل منهم قربته . وعندما هموا بالعودة ، قال أحد الخيول : - أنا لا أستطيع أن أعيش مرة أخرى فى ذلك القصر. فإما أن أقتل نفسى هنا أو أعود إلى مدينتنا، وعليكم أيضاً أن تعودوا إلى بنات عمكم .

أخذت الخيول الأخرى تواسيه ، وفى النهاية عادوا معاً ، ونهض "قوج على " خلف الخيول ، التى أخذت تسير وتسير تاركة وراءها العديد من الجبال ، حتى وصلت إلى غابة خالية تماما حتى من أصغر الطيور والزواحف وحيوانات الرعى . ورأى "قوج على " سبعة قصور جميلة ، حيث دخل كل حصان قصرا من هذه القصور، وانتظر "قوج على " ، فرأى ست حمامات بيضاوات يهبطن من السماء وتدخل كل واحدة منهم قصرا من القصور. وظل "قوج على " منتظرا ، وبينما هو على تلك الحال ، سمع صوت بكاء ، فأخذ يتفقد القصور السبعة واحدا تلو الآخر بحثا عن مصدر البكاء ، ورأى فى كل قصر من

القصور فتاة كالقمر وفتى كالشمس منشغلين بالحديث والضحك ، أما القصر السابع ، فكان يجلس فيه فتى كالشمس وحيدا مع قطعة من الحجر الجيرى منقوش عليها صورة وردة شقائق النعمان ، وهو يبكي بحرقة حتى أن بكاءه كان يحرق القلب المتحجر. دخل "قوج على " على الفتى وألقى عليه السلام وقال : - أيها الشاب لا تبك فإنك أحرقت قلبي ببكائك .

رفع الشاب رأسه وقال : - من أنت ؟ ومن أين جئت ؟

قال "قوج على " : - أنا أحد الرعاة في هذه الجبال ، شدني صوت بكائك .

قال الشاب : - رأيتك في الصباح عند قمة الجبل . حسنا أنك جئت ، تعال واجلس فإن قلبي يشتاق إلى مسامر.

جلس "قوج على " وقال : - لماذا كنت تبكي هكذا ؟

قال الشاب : - قصتي طويلة ، إذا كان لديك رغبة فى سماعها أخبرني

وحينئذ انطلق الشاب يروى ذكرياته :

- نحن سبعة أخوة ، جئنا إلى هذه الغابة منذ يومين لا أكثر، كنا نعمل حدادين في مدينتنا ، وكان أبونا رجلا شيخا يعد من أمهر صناع السيوف في المدينة ، كنا في النهار نعمل حدادين ، وفي الليل كنا نصنع السيوف سرا في مكان ما تحت الأرض ، وذلك لان الملك قد حظر صنع الأسلحة . ولكن عندما كان أهل المدينة يحتاجون الى السيوف ، كنا نضطر إلى صنعها ليلا ، وكان لدينا في المحل سندان أكبر من السندان العادى بعشر مرات أو بعشرين مرة . كنا نحن

الثمانيـة نلتـف حـول السـندان ونضـرب عليـه بالمطـارق الحديديـة الكبيرة . وذات يوم قال لنا أبونا : - يا أبنائى ، إن أجلى يدنو ولكن الحياة مازالت أمامكم، وكل منكم يحتاج إلى رفيق وزوجة . وقد حان أوان زواجكم ، لابـد أن تـتزوجوا مـن زوجـات مثلكـم يشـمرن عـن سـواعدهن ويضربـن بالمطرقـة الحديديـة الكبيرة ويصنعـن السـيوف . وبنـات عمكم مـن الممكـن أن يصبحـن زوجـات صـالحـات ولكـن لكـى تظهروا جدارتكم بهـذا الـزواج ، عقـدت أنـا وعمكـم المرحـوم امتحانـاً لكم ، فقد وضعنـا علامـة داخل هذا السـندان تـدل على مكـان بنـات عمكم . وعليكـم أن تصنعـوا سيفـا حـادا يمكنه أن يشطر هذا السـندان بضربة واحدة إلى نصفين حتى تستطيعوا أن تخرجوا تلك العلامة من داخله .

وبعـد عـدة أيـام ، مـات أبونـا ، وانغمسـنـا نحـن الأخـوة السـبعة فـى العمل ، وكنـا نقضـى معظـم الوقـت فـى مكاننـا السـرى تحـت الأرض نتصارع مع الفولاذ والحديد والمطرقة الحديدية ، ولكن جميع السيوف التى صنعناهـا لم تؤثـر فى السندان ، بـل كـانـت تنشطر إلى نصفـين . وفى إحدى ليـالى الشتـاء المظلمة البـاردة ، مرق سيف من تحـت أيدينـا وكسر السندان الحجـرى . وخرجـت مـن قلـب السـندان علبـة صغيرة كانت تحوى بداخلها ورقة صغيرة كتب عليها : - أبناء عمنا يا صنـاع السيوف ، جعلنا فدى لحدة سيوفكم ، تعـالوا مسرعين فى أثرنـا ، لقد اشتقنا إليكم كثيرا ، لقد زرعنا إحدى الصحراوات الخـالية بالأشجار فصـارت غابـة وكنسـناهـا ورششـنـاهـا بالمـاء ونحـن فـى انتظـاركم ، إسالوا أول وردة تظهر فى الربيع من ورود شقائق النعمان الحمراء

عن عنواننا . بنات عمكم.

لا أستطيع أن أصف لك كيف جعلتنا هذه الورقة فى حالة اضطراب ، فأردنا فى نفس الليلة أن ننهض ونذهب فى أثرهن ، ولكننا لم نكن نعلم لهن عنوانا ولم نستطع فى الوقت نفسه ترك عملنا والذهاب وراءهن لأن محاربى مدينتنا كانوا قد طلبوا منا أن نصنع لهم فى اليوم الواحد الف سيف ، وكان علينا أن ننتهى من صنعها قبل نهاية الشتاء . وبانقضاء فصل الشتاء الطويل ، أتى الربيع متأخرا وازداد قلقنا يوما بعد يوم . وعندما لم تعد الثلوج تتساقط مرة أخرى ، رأينا أعلى التل زهرة من زهور شقائق النعمان حمراء اللون كبيرة الحجم ولها خال أسود كبير على صدرها . وسألنا الزهرة يا زهرة الشقائق : - أين نجد بنات عمنا ؟ أخبرينا عن عنوانهن . واعتدلت الزهرة من انحناءتها وقالت لى : - يا ابن العم ، قبلنى أقول لك ، فانحنيت وقبلتها ، عندئذ قالت الزهرة : - مر الشتاء هذا العام بصعوبة وتأخر الربيع ، وبنات عمكم كن فى قمة القلق والاضطراب ، وسيظللن هكذا ، وإن لم تصلوا إليهن سريعا ربما يقتلن أنفسهن ، سأعلمكم كيف تتخفون فى جلد الحمام تارة وفى جلدالحصان تارة أخرى حتى تصلوا إليهن بسرعة .

بعد ذلك أرشدتنا زهرة شقائق النعمان على عنوان البنات وعلمتنا كيف نتخفى فى جلد الحمام تارة وفى جلد الحصان تارة أخرى . وكان آخر كلامها معى أن قالت لى:- يا ابن العم ، أتمنى من كل قلبى أن تقطفنى وأن أكون معك ، ولكن ماذا أفعل وبذور شقائق النعمان قد يبست بفعل الشتاء ، وأنا إن ذهبت فلن يلبس هذا التل

ثياباً حمراء . أريد منك ألا تقطعنى حتى أنثر بذورى فى كل مكان وأملأ التلال مرة أخرى بشقائق النعمان ، وأجعلها كلها حمراء .
وتركنا الزهرة وعدنا إلى البلدة حتى نسلم السيوف المطلوبة منا ، ثم ذهبنا فى طريقنا متخفين فى جلد الحمام . وبعد ذلك ، تعبنا من الطيران فتخفينا فى جلد الخيول ومضينا ، فعبرنا البحار والجبال والصحارى ، وفى النهاية وصلنا بالأمس عصرا إلى هذه الغابة الهادئة الخالية . ورأينا القصور فدخلناها ووجدنا بها عدة أسرة فجلسنا وانتظرنا ، وفى الليل ظهرت ست حمامات بيضاوات جئن من زوايا الغابة الست . وقد فرحت الحمامات عندما رأيننا، فهبطن وخرجن من جلد الحمام فصرن ست فتيات جميلات وقلن لنا : - يا أبناء العم ، نحمد الله على سلامتكم ، وبعد ذلك نظرنا إلىَّ وقلن لى : - ياابن عمنا الصغير ، نحمد الله على سلامتك أنت أيضا ، أختنا الصغيرة ، زهرة شقائق النعمان قد جفت ، ولولم تفعل أختنا الزهرة هذا العمل لفقدتمونا الى الأبد ، فلم يكن هناك أية بذور لتخرج منها الزهور التى تدلكم على عنواننا ، ولو أن أختنا لم ترق دماءها على الأرض لنسيت الأرض شقائق النعمان إلى الأبد ، وما كان بوسع الناس أن يروا شقائق النعمان مرة أخرى .
وعندما سمعت هذا الكلام تخيلت أنى سأجن ، فصرخت قائلاً : إذن هل كانت زهرة شقائق النعمان الموجودة فوق التل هي زهرتى ؟!
قالت الأخوات : - نعم ، تلك الزهرة الحمراء التى كانت على قمة التل هي أختنا الصغيرة ، ولم تكن تريد أن يصدق الناس أن زهرة من زهور الشقائق لم تبق فى الخلاء ، كذلك كانت تريد أن تملأ التلال

بشقائق النعمان مرة أخرى وتكسوها باللون الأحمر. نعم ، لقد كان حبها أكبر منا جميعا ، ضحت بنفسها من أجلنا ومن أجل الأرض.
وللحظة ، برقت فى رأسى فكرة ، وهى أن أعود وأقطف زهرة شقائق النعمان ، ولكن تضحية هذه الزهرة كانت عظيمة ، فبقيت ساكنا.
وحملتنى بنات عمى إلى قصر زهرة شقائق النعمان الذى كان خاليا. وفى الليلة الماضية كنا جميعا فى قصر زهرة شقائق النعمان ، فقال بنات عمنا أن الزهرة تحبنى كثيرا وأنها تقوم بعمل شاق للغاية ، فهى تخرج الماء من نبع فى قمة الجبل من أجل الأشجار. كذلك قالت بنات عمى أيضا أنهن منذ فترة كن قد دعون الحيوانات التى كانت ترعى فى مناطق الصيد الخاصة بالملك لأن تأتى إلى تلك الغابة ، فوافقت الحيوانات على أن تأتى يوم عرس الجميع ، إلا أن أخوتى وبنات عمى أجلوا زواجهم من أجلى ولم يتركونى أعود للمدينة ، واليوم أثقلت على الوحدة فبكيت ، وأردت أن أخفف عن قلبى ، أشكرك لأنك استمعت لشكواى المؤلمة.

* * *

عندما انتهى الشاب من سرد قصته، قال "قوج على" : - لك الحق أن تبكى ، أنا أيضاً كنت عاشقا للأميرة فى وقت ما ، ولكنها طردتنى من قصرها ، ولم أعد إليها مرة أخرى.
وسأل الشاب : - هل تضايقت منها ؟
قال "قوج على" : - لا ،، إذا رأيتها الآن سأحبها مرة أخرى ، فإنها فائقة الجمال ولا مثيل لها. لكنها سيئة الطبع أنانية ، فشعرة واحدة من شعر زهرتك تساوى ألف فتاة مثل الأميرة.

بعد ذلك قال الشاب : - إذن فأنت تعيش بمفردك يا "قوج على " .
قال "قوج على " : - لا ، أنا أعيش مع أختى لاله .
قال الشاب : - أقلت لاله ؟ هل هي نفس الفتاة التى كانت ترعى الغنم معك؟
قال "قوج على " : - نعم ، إنها نفس الفتاة ذات الوجه الأحمر البرى ، إنها أختى .
قفز الشاب من مكانه وقال : - يا "قوج على " ، أريد أن أقول لك شيئا ولكنى أخاف أن تغضب .
قال "قوج على " : - أعلم أنك تريد أختى ، فليكن ، إذن فانهض ولنذهب الآن ، فإذا وافقت اتخذها لك زوجة ، فإنى أستطيع أن أرعى الغنم بمفردى . وفى ذلك الوقت تعلم "قوج على " كيف يتخفى فى جلد الحصان والحمام .

* * *

فى المغارة ، كانت لاله تمشط لحى العنزات واحدة تلو الأخرى . وكانت تقوم بهذا العمل كلما جافاها النوم وبقيت بمفردها . وكانت العنزات تجلس بدورها وتستمع إلى القصة التى تحكيها لاله . وكانت الخراف أيضاً تستمع ، ومما لاشك فيه أن بعضهم كان ينام أو يجتر فى هدوء . وكانت الكلاب أيضاً تغفو عند باب المغارة . وعند منتصف الليل ، كان القمر ينحنى من أعلى المغارة لكى يبعث ضوءه إلى داخل المغارة ويتطلع إلى لاله وبعد قليل يقول القمر لها : - إنهضى وأشعلى النار ، فلن أستطيع القاء الضوء أكثر من هذا إن علىَّ

أذهب ، ونهضت لاله واوقدت النار عند باب المغارة فانسحب القمر بهدوء من باب المغارة ورحل .

وبينما كانت القصة التى تحكيها لاله توشك على الانتهاء ، دخلت حمامتان إلى المغارة إحداهما بيضاء ناصعة البياض ، والأخرى بيضاء ولها خال أحمر فى صدرها وقالت لاله : - أيها الطائرين، لقد ضللتما طريقكما تقدما إلىَّ .

نظرت الحمامة البيضاء إلى الحمامة ذات الخال وكأنها تقول لها : - تقدمى إليها لا تخافى ، وذهبت الحمامة ذات الخال وحطت على يدى لاله . فنظرت إليها لاله وقبلتها وجاءت الحمامة الأخرى أيضاً وحطت فى حجر لاله . بعد ذلك وضعتهما الفتاة على الأرض وقالت لهما : - ابقيا فى مكانكما وسأذهب لأحضر لكما الحَب.

وذهبت لاله إلى آخر المغارة ونحت أحد الأحجار جانباً ، فظهرت فتحة تؤدى إلى مغارة أصغر ، وبمجرد أن دخلتها ، خرجت الحمامتان سريعا من جلديهما وعندما رأت الكلاب "قوج على " أتت وجلست أمامه . وعادت لاله وفى يدها حفنة من القمح فرأت أخاها ومعه شاب جميل فتىٌّ يجلسان داخل المغارة وقد اختفت الحمامتان ، فقالت لاله : - أين كنت يا "قوج على " ؟ لقد تأخرت كثيراً !

قال "قوج على " : - تعالى الآن لأعرفك بصديقى الجديد ، ثم نتحدث بعد ذلك ، لقد جاء صديقى إلى هنا فى أثرك .

سكتت لاله للوهلة الأولى ، ثم قالت : - ألم تريا أين ذهبت حماماتى؟

قال "قوج على " : - عندما أتينا طارتا وخرجتا ، سأذهب لأحضرهما لك، فالحمامتان لم تستطيعا البعد عن هنا كثيرا ، لتجلسا ولتتحدثا معا .

أتم "قوج على " كلامه ، ثم خرج وجلس على مصطبة حجرية ميمما وجهه صوب الخلاء ، وبعد قليل رأى لاله والشاب مقبلين عليه ويمسك كل منهما بيد الآخر. فقال : - مبروك

وقال الشاب : - يا رفيقى ، إذا لم يكن عندك مانع فأنا أريد اصطحاب لاله الآن إلى الغابة حتى لا يقلق أخوتى وبنات عمى علىّ

قال "قوج على " لأخته ضاحكاً : - لاله ، ألا ترغبى فى أن أمسك لك حماماتك ؟

أجابت لاله ضاحكة : - فقد خدعتنى جيداً ، لقد زاد مزاحك الليلة .

عندئذ ضحك الثلاثة ، وقال الشاب لـ "قوج على " : - نحن فى انتظارك غدا عصرا، فلتأت لغابة عرسنا ، ثم تخفى فى جلد حصان أبيض ناصع البياض وحمل لاله على ظهره وانطلق ، وظل "قوج على " جالسا فى نفس المكان على المصطبة الحجرية مستيقظا حتى صاح الديك بعد ذلك نهض وتوجه لينام بجانب قطيعه .

* * *

وفى الليلة التالية ، كانت الغابة تعج بالضوضاء ، حيث أخذت الطيور والحيوانات والمجترات تفد بلا عدد من كافة أركان السماء والأرض . وأخذت تشيد لأنفسها أعشاشاً فوق الأشجار وتحتها على تراب الأرض . وكان الإخوة الحدادون السبعة يلتفون مع زوجاتهم الشابات الجميلات حول مائدة كبيرة يتناولون عشاء ليلة عرسهم .

وكان "قوج على " موجوداً أيضاً . وكانت العرائس والعرسان قد قرروا أن يتركوا الغابة فى منتصف الليل ويودعوا الحيوانات ويعودوا إلى المدينة . وأرادوا أيضاً أن يأخذوا "قوج على " معهم ، لكنه رفض قائلاً: لابد أن أرعى خرافى وعنزاتى .

وفى منتصف الليل ، أمسك كل واحد من العرسان السبعة بيد عروسه وتخفوا فى جلد الحمام ثم طاروا . تجول "قوج على " قليلا داخل الغابة ، ولكنه لم يستطع أن يخفف من حزنه ووحدته . وفى النهاية ، جلس أسفل شجرة وأخذ يبكى لفترة مما خفف من حمل قلبه ، ثم عاد إلى المغارة عند قطيعه .

* * *

سكت الراعى الشاب مرة أخرى ، وكانت عيناه مثبتتين على عينى الأميرة . كان يريد أن يرى تأثير كلامه فى عينيها . فقالت الأميرة بصوت مرتعش: -قل لى مرة أخرى، قل لى ماذا حدث لقوج على ؟

قال الراعى : - وفى مساء اليوم التالى ، تذكر "قوج على " الأميرة ورأى أنه حتى ذلك الوقت كان لا يزال يحبها من أعماق قلبه ، فقال فى نفسه: - لا أكون راعياً فى الجبال ، إن لم أجعلها تعقل وأجعلها إنسانة ، إنى أعلم تماماً ماذا يجب علىّ أن أقوم به تجاهها حتى تتخلى عن أخلاقها وطباعها الشرسة . لابد لى أن أبعدها بشكل أساسى عن الحياة بذلك الأسلوب .

وعندئذ تخفى "قوج على " فى جلد الحمامة وتوجه إلى حديقة الأميرة ، وظل منتظرا طويلا حتى أتت وذهبت للاستحمام فى حوض اللبن ، فجلس فوق شجرة الرمان الموجودة على حافة الحوض وقال:-

أيتها الفتاة الجميلة ، إن لديك جسدا جميلا ، إنى أعشقك ، أرجوك أخرجى من الحليب حتى أراك جيداً . وأخذت الأميرة تصرخ فى البداية وتصيح كالكلب المسعور وتسب وتأمر ، ولكنها بعد ذلك نسيت أنها أميرة وتذكرت أنها مثل البنات الطيبات فصارت لطيفة وقالت: - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، أرجوكِ لا تنظرى إلى ، فهذا عمل سئ . فقال "قوج على " : - ليس بيدى إلا أن أنظر إليك ، فأنا أحبك .

وقالت الفتاة : - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، أنا لا أستطيع أن أقبل عشق حمامة . إذا كنت عاشقا حقا أخرج من جلدك حتى أراك أنا أيضاً .

لم يخرج "قوج على " من جلده . وقبلت الأميرة أن تعطى نومها لقوج على حتى يخرج من جلده . ولكن "قوج على " أخذ نوم الأميرة وطار . ومنذ ذلك اليوم لم يعرف النوم طريقا لعينى الفتاة . وظلت تعانى عدم النوم حتى مرضت وسقطت طريحة الفراش ولم يستطع حكماء المدينة علاجها .

وعندما أصدر الملك أوامره بأنه لا يحق لأى طبيب أن يمد يده القذرة إلى جسد الأميرة ، تخفى "قوج على " ذات يوم فى صورة حكيم شيخ غريب الهيئة وذهب إلى الملك ، ثم توجه إلى الأميرة وشرع فى علاجها دون أن يلمسها . وظل لفترة ينظر إلى الأميرة وكأنه يراقب حركاتها ، ثم قال بعد ذلك: - إذا سمعت الأميرة "أسطورة الحب" فسوق تشفى . ولم يكن فى المدينة شخص يعرف "أسطورة الحب" ، فجاء "قوج على " مرة أخرى فى صورة الحكيم الشيخ الغريب وقال للملك أن

هناك راعيا شاباً يعيش فى أحد الجبال يعرف "أسطورة الحب" جيدا، وأنه إذا جد الملك بنفسه فى طلبه لاستطاع أن يحضره إلى الأميرة .

* * *

سكت الراعى الشاب مرة أخرى وهو ينظر إلى عينى الفتاة الحائرتين ، ثم ضحك وقال : نعم أيتها الفتاة الجميلة ، نعم يا سيدتى "قيز" ، هكذا طردنى أبوك ذات يوم كالكلب من قصره ، ثم جاء إلى الجبال وأحضرنى أمامك الآن ، فماذا تقولين ؟
لم تتمالك "قيزخانم" نفسها ، فأجهشت بالبكاء أمامه وقالت : - "قوج على " ، أنا أيضاً نسيت الى الأبد أننى أميرة ، وأريدك . لقد فهمت الآن كم أنا فى حاجة شديدة لحبك . خذنى معك ، أريد أن أعيش مثل الجميع .
قال "قوج على " : - ليس من السهل عليك أن تعيشى كبقية الناس ، لأنك ترعرعت فى نعمة وترف . ولكن إذا رغبت فى تلك المعيشة بنفسك ، فبدون شك أنك ستعتادين على تلك الحياة الجديدة .
قالت " قيزخانم " :- ما دمت معك ومع الآخرين ، فسيكون كل شئ سهلا على . خذنى معك ، لا تترك ، " قيزخانم " ، بمفردها .
مسح "قوج على " دموع الأميرة وأخرج تفاحة من جيبه وقال لها : - أنت متعبة الآن تعالى وكلى هذه التفاحة ، وبعد ذلك سأجئ إليك ، فأنا أعلم أنك ستحبيننى إلى الأبد .
أخذت الفتاة الجميلة التفاحة وأكلتها ، ثم تمددت على ظهرها وأغلقت عينيها واستغرقت فى نوم عميق . ونهض "قوج على " وقبّل

الفتاة فى خدها ، ثم خرج ببطء وقال للملك : - لقد أعددت النوم لابنتك ، فلا يذهبن أحد منكم إلى القصر لمدة ثلاثة أيام ، وإلا سيصبح نومها غير مريح . فقط فى اليوم الرابع توجه إليها وأيقظها .

(٥)

فى صباح اليوم التالى وقرب بزوغ الشمس ، جاء "قوج على " إلى "قيز خانم" فى صورة حمامة ، ثم خرج من جلده وأخذ وربة حمراء من أسفل رأس الفتاة ، ففتحت عينيها وضحكت ضحكة ناعمة هامسة . وقال "قوج على " : - هل نمتِ نوما مريحاً؟
فقالت " قيز خانم " : - نعم ، لقد نمت نوما جميلا كالسكر والعسل ، الآن هل تأخذنى معك؟ وقال "قوج على " : - نعم ، إنهضى ، فلنذهب إلى الحديقة لتغتسلى ، ثم نرحل.

* * *

كانت الشمس قد سطعت لتوها عندما انطلقت حمامتان بيضاوان من فوق شجرة الرمان الموجودة على حافة الحوض ، وطارتا صوب الشمس .

١٠- خوخة وألف خوخة

كانت هناك حديقة مترامية الأطراف بجوار قرية جدباء، وكانت هذه الحديقة عامرة عامرة ومليئة بأنواع متعددة من أشجار الفاكهة وبالمياه الوفيرة . وكانت هذه الحديقة شاسعة ومليئة بالأشجار لدرجة أنك لو وقفت فى أحد أطرافها ونظرت بمنظار ، فلن تستطيع رؤية طرفها الآخر.

منذ عدة سنوات كان صاحب القرية (الإقطاعى) قد قسم هذه الأرض إلى قطع وباعها للقرويين ولكنه احتفظ بالحديقة لنفسه . ومما لا شك فيه أن أرض القرويين كانت وعرة ولم تكن مليئة بالأشجار. وأيضا لم يكن فيها ماء ، فقد كانت هذه القرية فى الأصل أرضاً كبيرة فى وسط وادٍ بالصحراء مثلها فى ذلك مثل حديقة الإقطاعى . وقد اشترى القرويون من الإقطاعى كمية فى الأراضى الوعرة الواقعة فى أعالى التلال والمحاطة بالوديان وكانوا يزرعونها بالقمح والشعير الذى ينمو على الأمطار.

خلاصة القول دعنا من هذا الحديث فربما كان غير مرتبط بقصتنا ، وكانت قد نمت فى الحديقة شجرتا خوخ . إحداهما أصغر وأصبى من الأخرى، وكانت أوراق الشجرتين وزهورهما تشبه بعضهما تماماً لدرجة أن أى شخص يمكنه أن يعرف للوهلة الأولى أنهما من جنس واحد .

كانت الشجرة الأولى مطعَّمة وكانت تطرح كل عام خوخا ملوناً وكبير الحجم بحيث يصعب الاحتفاظ به فى قبضة اليد ، كما أن قلب الإنسان لا يطاوعه فى أن يقضمه ويأكله .

كان البستانى يقول أن الشجرة الكبيرة كانت عُقلة أحضرها

مهندس أجنبى من بلده، ومن المعروف أن ثمار شجرة أنفق عليها هذا القدر من المال كم تكون غالية الثمن .

وكانوا قد علقوا جذع كل من الشجرتين قطعة من الخشب مكتوب عليها دعاء(وإن يكاد) حتى تقيهما من الحسد .

أما شجرة الخوخ الأصغر فكانت تطرح كل عام ألف زهرة تقريباً ولكنها لم تطرح خوخه واحدة، فربما كانت تُسقط كل أزهارها، أو أن خوخها كان لا ينضج بل يصفر لونه ويتساقط ، وأخذ البستانى يفعل كل ما كان فى وسعه ، ولكن شجرة الخوخ الأصغر كانت غير قابلة للتغييرأساساً، كانت - عاما بعد عام - تنبت أغصاناً وأوراقاً كثيرة، ولكنها لم تكن تنضج ثمرة خوخ واحدة برغم العلاج الذى حدث .

وطرأت فى رأس البستانى فكرة وهى أن يُطعم الشجرة الأصغر، ولكن الشجرة أيضا لم تتغير، وكأن الأمر انقلب إلى عناد وخصومة .

وفى النهاية ضاق صدر البستانى وأراد أن يحتال عليها وأن يخيفها ، فذهب وأحضر منشاراً ونادى على زوجته ، وشرع فى شحذ أسنان المنشار أمام الشجرة الأصغر. وبعد أن شحذ المنشار تقهقر للخلف ونهض مرة واحدة ورفع المنشار تجاه شجرة الخوخ وكأنه يقول لها الآن سأقتلعك من جذورك وألقى بك بعيدا حتى لا تلقى بثمراتك مرة أخرى .

كان البستانى حتى هذه اللحظة فى منتصف الطريق، فجاءت زوجته من خلف رأسه وأمسكت بيده وقالت : - وحياتى كف يدك ، أعدك أن ترعى خوخها وتنضجه من العام القادم، وإذا عادت للكسل مرة أخرى، كلانا سنقطع رأسها ونلقى بها داخل التنور لتحترق

وتصبح رماداً . ولم يغير هذا الاحتيال والخداع والتخويف من سلوك الشجرة .

لابد أنكم تريدون جميعاً أن تعرفوا ما هو رأى شجرة الخوخ الصغرى ولماذا لم تكن تنضج ثمارها . حسناً جداً من الآن فصاعدا سوف تدور قصتنا نفسها حول شرح هذه القضية :

* * *

أنصتوا ...

افتحوا آذانكم جيداً فشجرة الخوخ الصغرى سوف تتحدث ، لاتصدروا صوتاً،ولننظر ماذا تقول شجرة الخوخ وكأنها تقص سيرتها.

كنا حوالى مائة أو مائة وخمسين خوخه موضوعين فى سلة، وكان البستانى قد كسا جوانب السلة وأعلاها وأسفلها بأوراق الكرمة البيضاء حتى لا تُجفف الشمس قشرتنا الرقيقة، وحتى لا يتراكم التراب والغبار على وجناتنا الحمراء . وكان ينسل بصيص من النور الأخضر فحسب من بين أوراق الكرمه الرقيقة ويختلط بوجناتنا الحمراء فيجعل منظرها خلاباً .

كان البستانى فد اقتطفنا مبكرا قبل بزوغ الشمس ولذلك كانت أجسامنا باردة ورطبة، وكان برد ليالى الخريف لا يزال فى أجسامنا . وينسل قليل من حرارة أوراق الشجر الأخضر فتلتصق بقلوبنا .

ومما لاشك فيه أننا كنا أبناء شجرة واحدة، وكان البستانى فى كل عام وفى نفس الوقت يقطف خوخات الشجرة الأم . وكان يملأ بها السلة ويحملها إلى المدينة . ومن هناك كان يذهب إلى بيت صاحب الحديقة ويعطيه السلة ويعود إلى القرية مثلما يحدث الآن .

كنت أقول أننا كنا مائة أو مائة وخمسين ثمرة خوخ ناضجة وبضة، وأقول عن نفسى أننى كنت ممتلئة بالعصير الطيب اللذيذ . وقشرتى كانت ناعمة ورقيقة وكأنها تكاد تنفجر. كان اللون الأحمر يكاد يقفز إلى وجنتى لدرجة أنك لو كنت رأيتنى لتخيلت أننى خجلة من عريي بالتأكيد ، وخاصة أن جسدى كان لا يزال رطباً من ندى الخريف ، وكأننى كنت قد استحممت .

وأخذت نواتى الكبيرة والسميكة تفكر فى حياة جديدة . من الأفضل أن أقول أننى أنا نفسى كنت أفكر فى حياة جديدة ولم تكن نواتى منفصلة عنى .

كان البستانى قد وضعنى على وجه السلة بحيث أكون أول من يظهر، وربما كان السبب فى ذلك أننى كنت أكبر الجميع وأنضجهم . مما لاشك فيه أننى لا أزكى نفسى ، فهناك مجال لكل ثمرة خوخ لأن تكبر وتنضج وتصبح ضخمة وبضة فيما عدا الثمرات الكسلى التى يخدعها الدود وتسمح له أن يخترق جلدها ولحمها حتى يأكلها حتى النواة .

ولو كنا ظللنا قابعين هكذا فى السلة وذهبنا عند صاحب الحديقة ، لامناص من أننى كنت قد أصبحت من نصيب إبنة الإقطاعى الوحيدة العزيزة . كانت ابنة الإقطاعى تقضم قضمة من وجنتى ثم تلقى بى بعيداً . ولم يكن بيت الاقطاعى مثل بيت " صاحبعلى " و" بولاد " الذى لم يكن يدخل من بابه ثمرة واحدة من المشمش أوالخيار أو الخوخ بينما كان البستانى يحكى أن الإقطاعى كان يجلب لابنته فاكهة من البلاد الأجنبية ويوصى بأن يحضروا لابنته البرتقال والموز والعنب وحتى الورد بالطائرة . ومما لا شك فيه أن

هذه الأعمال كانت تحتاج إلى نفقات كثيرة ، الآن إحسب أنت كم يتكلف شراء ثياب ومصاريف مدرسة وطعام وإحضار طبيب وممرضة وخدم وشراء لعب إلى جانب رحلات بنت الإقطاعي ونزهاتها . قل عشرة آلاف تومان كل شهر، مرة أخرى بعدت قليلاً بالحديث عن الموضوع .

عبر البستاني والسلة في يده من شارع يتوسط الحديقة، وفجأة وطأت قدمه جحر فأر خرب ، بحيث أوشك البستاني على السقوط على الأرض، ولكنه احتفظ بتوازنه . فقط اهتزت السلة بشدة ونتيجة لهذا أنزلقتُ ووقعتُ على الأرض ولم يرني البستاني وتركني وذهب .

الآن مرة أخرى سطعت الشمس في الحديقة المترامية الأطراف ، كان التراب ساخناً إلى حدما ، ولكن الشمس كانت شديدة الحرارة، وربما لأن جسدي كان رطباً تخيلت أن الشمس كانت شديدة الحرارة .

بدأت الحرارة تترك جلدي ببطء شديد وتتسرب إلى لحمي حتى أن عصيري أصبح ساخناً هو الآخر، وعندئذ وصلت الحرارة إلى نواتي ، وبعد قليل أحسست بأني ظامئة .

عندما كنت لدى أمي كنت كلما شعرت بالظمأ أشرب من مائها . وكنت أنظر إلى الشمس وهي تسطع عليّ أكثر وتزيد من حرارتي . وأخذت الشمس تسطع عليّ حتى أصبحت وجنتاي شديدتي الحرارة، وكنت أمتص الماء من أمي وأتغذى منها، ويسري العصير في بدني ويزداد حجمي ويزداد ، ويوما بعد يوم كنت ازداد حجماً وازداد وأصبح أكثر جمالاً وحمرة وطراوة ، وكانت حمرة أكثر تجري في عروق وجهي، وكان وزني يزداد ثقلا وأحني ساعد أمي وأقاوم .

كانت أمي تقول : يا بنيتي الجميلة لا تواري نفسك عن الشمس ، فالشمس تحبنا ، والأرض تعطينا الغذاء والشمس تطهيه لنا . إلى جوار أن جمالك مصدره الشمس ، أنظري أولئك الذين يخفون أنفسهم عن الشمس ، فإنهم يذبلون ويجفون . يا بنيتي الجميلة ، إعلمي أن الشمس إذا غضبت من الأرض ذات يوم فإنها لن تشرق عليها، ولن يبقى كائن حي بعد على وجه الأرض سواء كان نباتا أو حيوانا .

ومن هذا المنطلق كان يمكنني تسليم جسدي للشمس، وأن أمتص حرارتها وأجمعها بداخلي، وكنت أرى أن قوتي تزداد يوما بعد يوم، وكنت دائما أسأل نفسي: - لو أن أحدا ذات يوم ضايق الشمس وغضبت منا ، فأي مصيبة ستحل برؤوسنا؟ في النهاية لم أجد جواباً فسألت أمي : - أمي ، إذا آلم أحد السيدة شمس ذات يوم ، وغضبت علينا ، ماذا نفعل ؟

نفضت أمي الغبار من على وجنتي بأوراقها ، وقالت : - أي أفكار تعن لك؟ من المتعارف عليه أنك بنت ذكية ، فلتعلمي يا بنيتي أن السيدة شمس لا تغضب منا بسبب عدد قليل من الذين يؤذون البشر والمغرورين . ولكن من الممكن أن يخبو نورها ببطء ببطء وتقل حرارتها وتموت ذات يوم . وقتها لابد أن نفكر في شمس أخرى . وإلا سنبقى في الظلام ونتجمد من شدة البرد ونجف!!

حقيقة في أي موضع كنت من القصة ؟

نعم ، كنت أقول أن الحرارة وصلت إلى نواتي وظمأت، وبعد قليل أخذ عصيري يسخن وأخذ قشري في التيبس والتشقق . وجاءت نملة

كبيرة راكضة من الطريق وبدأت تحوم حولى ، فعندما وقعت من السلة على الأرض قد تهرأت قشرتى من موضع ما وسال قليل من عصيرى وغلظ من حرارة الشمس، وجاءت النملة الكبيرة وأنشبت كلابتاها فى العصير وابتلعته ثم تركتنى، وظلت فترة تنظر مندهشة إلى موضع كلابيتها ،وانتصب قرناها وثبتت قدميها فى الأرض وهكذا أخذت فى السحب بقوة لدرجة أننى قلت لنفسى الآن ستُقتلع كلابتيها من مكانهما، وضغطت النملة الكبيرة قليلاً ، وفى النهاية استطاعت أن تقتلع قطعة من العصير الغليظ وبعدت عنى مسرعة فى سعادة .

وفى نفس المكان سمعت صوتا حيث قفز شخصان من أعلى السور داخل الحديقة وجاءا راكضين تجاهى . كانا " صاحبعلى" و" بولاد " وكانا قد جاءا ليشبعا من الفاكهة . لم يكونا يخافان مطلقاً من بندقية البستانى كبقية القرويين . فلم يكن بوسع القرويين أن يطأوا الحديقة مطلقا . ولكن " بولاد " و " صاحبعلى " كانا يتسكعان دائما داخل الحديقة بأقدامها الحافية وسراويلهما الممزقة، حتى أن البستانى كان قد صوب خلف رأسيهما أكثر من مرة . ولكنهما أفلتا . فى هذا الوقت كان عمر كل منهما يناهز السابعة أو الثامنة .

خلاصة القول أنهما جاءا مسرعين فى ذلك اليوم وأسرعا من فوقى وذهبا نحو أمى ، وبعد قليل رأيتهما وهما يأخذان فى الرجوع ولكنهما كان فى حالة مريرة ، فقد فهمت من كلامهما أنهما غاضبان على البستانى .

كان " بولاد " يقول : - أرأيت ؟ هذه آخر فاكهة فى الحديقة التى لم

تصبح حتى ثمرة واحدة منها من نصيبنا .
قال " صاحبعلي " : - في النهاية ماذا يمكننا أن نفعل ؟ فمنذ شهر كامل والبستاني الحمار جالس والبندقية في يده أسفل الشجرة ، ولايتحرك .
قال " بولاد " : - ابن الكلب الملعون ، لم يترك لنا ثمرة واحدة ، آه ، كم أنا مشتاق لثمرة واحدة من تلك الثمرات الناضجة ألقى بها قسراً داخل فمي! أتتذكر كم من الخوخ أكلنا في العام الماضي؟
قال " صاحبعلي ": - وكأننا لسنا بشراً ، فهو يقطف كل ثمرة ويحملها ويعطيها لهذا الرجل ابن الكلب الذي يطفحها ، كل هذا تقصير منا لأننا جالسين نضع يداً فوق الأخرى فقط، ونتركه ينهب القرية .
قال " بولاد " :- أتعلم يا " صاحبعلي " ، إما أن تصبح هذه الحديقة ملكاللقرية أو أنني سأشعل النار في جميع الأشجار.
قال " صاحبعلي " : نشعلها نحن الإثنين .
قال " بولاد " : - لو لم نفعل فسنكون بلا نخوة .
قال " صاحبعلي " : - لو لم نفعل لكنا أولاد حرام.
كان الولدان في شدة الغضب لدرجة أنهما كانا يدقان الأرض بأقدامهم لدرجة أنني خفت من أن يركلاني لكن لا ، لم يفعلا ، كنت أمام أعينهم تماما عندما اخترقت شوكة قدم " بولاد "، فانحنى ليخرجها من قدمه فوقعت عيناه عليّ، ونسى الشوكة التي في قدمه وحملني من على الأرض وقال : - " صاحبعلي " : أنظر يا " صاحبعلي "!!
كان الولدان فرحين وأخذا يتلقفاني من يد إلى يد. لم يطاوعهما

قلباهما أن يأكلانى هكذا لأننى كنت ساخنة جداً ، ورغبت فى ان يبردانى ويأكلانى لأننى سأكون تحت أسنانهما حلوة المذاق .

كانت أيديهما المتشققة ذات القشف تخدش قشرتى ، ولكننى كنت سعيدة عندما علمت أنهما سيأكلاننى بلذة شديدة حتى آخر ذرة فىّ . وبعد الأكل سوف يلعقان شفتيهما وأصابعهما، وسيظل طعمى اللذيذ لعدة أيام وأسابيع تحت أسنانهما .

قال " صاحبعلى " : – يا " بولاد " أراهن أننا حتى الآن لم نكن قد رأينا خوخة كبيرة هكذا .

قال " بولاد " : – لا ، لم نر.

قال " صاحبعلى " : – لنذهب بجوار البركة ولنبردها ونأكلها، سيكون طعمها أفضل .

كانا يحملاننى بحذر وكأن بدنى كان مصنوعا من الزجاج الرقيق، وبحركة واحدة أسقط وأتحطم .

كانت حافة البركة ظليلة ورطبة ، لأن أشجار الصفصاف والرمان المطعمة كانت قد ألقت بظلها الظليل عليها . وللوهلة الأولى أحسست برطوبية مريحة فى نواتى . وضعانى بحرص شديد فى الماء وبأيدهما الأربعة الصغيرة ذات الكنف حالا بينى وبين الماء حتى لا يجرفنى ويلقى بى داخل البركة وكان الماء مثلجاً بدرجة كبيرة، فجلسا قليلاً ثم قال " بولاد " : – يا " صاحبعلى " !

قال " صاحبعلى " : – نعم ، قل !

قال " بولاد " : – أقول أن لهذه الخوخة سعرا عالياً .

قال " صاحبعلى " : – نعم .

قال " بولاد " : - نعم ، هذا ليس رداً ، إذا كنت تعلم قل ما سعرها.
فكر " صاحبعلى " وقال : - أقول أيضاً أن لها سعرا عاليا .
قال " بولاد " : كم مثلا ؟!
فكر " صاحبعلى " مرة أخرى وقال : لو بردناها جيدا ، جيدا ، ألف تومان .
قال " بولاد " : - إنك لم تر نقودا حتى تتخيل أن الألف تكون نقوداً أيضاً . قال " صاحبعلى " : - حسناً ، أنت الذى ما شاء الله تجلس على خزانة ، قل كم .
قال " بولاد " : - مائة تومان .
قال " صاحبعلى " : - الألف أكثر من المائة.
قال " بولاد " : - مت ، لم آت بهذا الكلام من تلقاء نفسى ولكنى سمعته من أبى .
قال " صاحبعلى " : - إذا كان الأمر هكذا ، فمن الممكن أن تكون المائة والألف عدداً واحدا ، أنا أيضاً لا أختلق فقد سمعته من أبى .
لمسنى " بولاد " بهدوء وقال : - تجمدت يداى ، فى رأيى حان الوقت لنأكلها .
لمسنى " صاحبعلى " أيضاً بحذر وقال : - نعم ، لقد صارت باردة تماما .
فى ذلك الوقت أخرجنى من الماء، وعندما خرجت من الماء أحسست فى الخارج بالدفء . الأن أردت أن يأكلانى بسرعة لأثبت لهما أن لذتى تفوق ما يتخيلان . كنت أرغب فى توصيل القوة والحرارة اللتين كنت قد أخذتهما من أمى ومن الشمس إلى جسدىّ هذين الطفلين القرويين .

وبينما قرر " بولاد " و" صاحبعلى " أكلى ، كنت غارقة فى هذه الأفكار وهى أنه كم من مرة قد تغيرت من حال إلى حال طوال عمرى ، وكم من مرة سوف أتغير. لقد قلت لنفسى : - ذات يوم كانت ذرات جسدى ترابا وماءً ، وبعضها الآخر أيضاً كان نور الشمس ، وكانت أمى تمتصهما قليلا قليلا من الأرض وحتى ترفعهما إلى أطراف فروعها . وبعد ذلك طرحت برعماً ، ثم ازهرت وقليلا قليلا تشكلت ، وقليلا قليلا امتصصت ذرات جسدى من جسد أمى واختلطت مع ذرات نور الشمس حتى استقامت نواتى وتكونت قشرتى ولحمى وأصبحت خوخة ناضجة وبضة .

لكنى الآن يأكلنى " صاحبعلى " و" بولاد " وبعد فترة تصبح ذرات جسدى جزءا من لحمهما وشعرهما وعظامهما . ومما لا شك فيه أنهما سوف يموتان يوماً . حينئذ ماذا ستصبح ذرات جسمى ؟

قرر الطفلان أن يأكلانى ، أعطانى " صاحبعلى " إلى " بولاد " وقال :- أقضم قضمة .

قضم بولاد " قضمة وأعطانى إلى " صاحبعلى " وشرع هو الآخر فى مص شفتيه . وقضمنى هو الآخر قضمة وأعطانى إلى " بولاد " . وهكذا قلت لنفسى: - لقد جعلت مذاقى لذيذا تحت أسنانهما .

الآن قد تلاشى جسدى ، ولكن نواتى كانت تفكر فى حياة جديدة . وبعد دقيقة واحدة لم يعد منى ما يسمى بخوخة، فى حين أن كانت نواتى ترسم خطة فحواها متى وكيف تبدأ فى النمو فأنا فى لحظة واحدة محددة كنت أموت وكنت أحيا .

ولآخـــر مرة وضعنى " بولاد " داخل فمه، وامتص آخر ذرات جسمى

وابتلعنى ، وعندما أخرجنى مرة أخرى ، لم أكن خوخة بعد ، كنت نواة حية ذات قشرة صلبة، وكنت قد أخفيت بداخلها بذرة حياة جديدة . وكنت أحتاج فقط إلى راحة قليلة وتراب رطب حتى أشق قشرتى وأنمو.

وعندما لعق الأولاد أصابعهما وشفتيهما عدة مرات قال " بولاد " : - ماذا نفعل الآن؟

قال " صاحبعلى " : - لنمض إلى الماء .

قال " بولاد " : ألن نأكل نواتها ؟

قال " صاحبعلى " : - عندى لها خطة ، دعها تنفذ.

تركنى " بولاد " أسفل شجرة الصفصاف وتقهقر قليلا ورجع بحدة إلى الخلف ونهض وألقى بنفسه فى الماء بظهره، وكان قد ضم ركبتيه إلى بطنه وحلق يديه حولها وغاص لحظة واحدة فى الماء ، وأخذ يضرب بيديه وقدميه ثم وقف وارتفعت طبقات الطين الموجودة فى قاع الماء من أطرافه وكان الماء يصل إلى ما أسفل ذقنه، وكانت أعشاب الماء تعلق برأسه وأذنه ووجهه .

قال " صاحبعلى " : يا " بولاد " ، حول وجهك صوب الناحية الأخرى .

قال " بولاد " : - هل ستخلع سروالك ؟

قال " صاحبعلى " : - نعم ، أريد ألا يعرف أبى أننا جئنا مرة أخرى وسبحنا ، فيضربنى علقة .

قال " بولاد " : - من الآن وحتى الظهر موعد عودتنا إلى البيت لدينا وقت كافٍ .

قال " صاحبعلى " : ألا ترى الشمس فوق رأسك ؟

لم يقل " بـولاد " شـئيا آخـر، وحـول وجهـه صـوب الـناحيـة الأخـرى ، وعندمـا سمـع صـوت سقوط " صـاحبعلى " فـى المـاء ، أعـاد " بـولاد " وجهـه وعندئـذ شـرعا فـى السباحة والغطـس وأخـذ كـل منهمـا يـرش الآخـر بالمـاء وبعد ذلك قـالا معـاً: ليـس هنـاك وقـت. وخرجـا ، وعصـر " بـولاد " رجلـى السـروال عـدة مـرات . عنـد ذلـك أخذانـى مـن أسـفل شـجرة الصفصـاف وذهبـا . وتسلقا سـور الحديقـة وقفـزا الى الناحيـة الأخرى وكـانت بيوت القرية بعيدة عن حديقة الإقطاعى .

قـال " بولاد " : - حسنـا ، قلت لديك خطة من أجلها .

قـال " صـاحبعلى " : - عندمـا ينتشر الظل أناديك ونذهب ونجلس فوق التل . وسوف أقول لك أى تصرف لدى لها .

كـانت حـارات القرية خالية من كل شئ عدا الذبـاب ورائحـة الـروث . وثـب كلـب قذر من أعلى الحـائط أمـام أقدامنـا وريـت " بـولاد " علـى رأسه ووجهه وانحنى وذهـب إلى بيتهم وتبعه الكلب ودخل معه المنزل أيضاً .

- كانت الحـارة تصعد إلى أعلى، بحيث أنها بعد أن ترتفـع قليلا كـانت الحـارة تتساوى مـع سقـف منـزل " بولاد " ، ويبدأ " صـاحبعلى " طريقـه إلى منزلـه مـن نفس مستـوى الأسـطح ومضـى، وكـان منزلـه بعـد عـدة منـازل إلى أعلى ، فوضعنى فى قبضتـه وقفـز قفـزة داخـل فنـاء مـنـزلهم، وغـاصت قدمـاه حتى ركبتيـه فـى السمـاد المبلل والنـاعم، والذى كـانت أمـه قد وضعتـه هنـاك منذ سـاعة مضـت، ولم يكـن " صـاحبعلى " علـى علم بذلك، فأخذت أمه فـى الصيـاح حيـث أخرجـت رأسـها مـن فتحـة المنزل وقـالت :- أسـرع وتعـال حتـى تحمـل لأبيك طعـامه .

حملني " صاحبعلى " إلى الحظيرة ، وحفر في ركن ثقباً داخل الروث ، ثم دفنني فيه ولم أفهم سوى الظلام ورائحة الروث ، ولا أعرف كم ساعة بقيت هناك، وأوشكت رائحة روث الدواب النفاذة أن تخنقني ، وفي النهاية أحسست أن الروث يرفع من على وجهي . كان " صاحبعلى " قدأخرجني، وفركني بين يديه مرتين، ومسحني في سرواله فأصبحت نظيفة . وذهبنا من نفس الطريق الذى كنا قد جئنا منه حتى وصلنا خلف سطح بيت " بولاد " ، كانت أم " بولاد " وأخته يصنعان من الروث أقراصا خلف السطح، وكانا يتحدثان مع زوجة جارهم التى كانت تأخذ الأقراص من على الجدار وتضعها في كومة .

سأل " صاحبعلى " أم " بولاد " قائلاً : أين " بولاد " ؟

قالت أم " بولاد " : حمل " بولاد " الجدى إلى الخلاء وهو غير موجود في البيت .

وجدنا " بولاد " أعلى التل ، كان قد ترك جديه الأسود يرعى خلف التل . وكان جالساً مع كلبه وعيناه على طريقنا .

والتفت فجأة فوجدت لون بشرة " بولاد " و " صاحبعلى " تماماً مثل لون قشرتي فكلاهما من كثرة ما سارا في الطريق عاريين تحت أشعة الشمس أصبحا أسودين فاحمين .

قال " بولاد " بنفاد صبر : حسنا ! قل خطتك.

قال " صاحبعلى " : - ألا تريد أن تصبح صاحب شجرة خوخ ؟

قال " بولاد " : - أكون مجنونا لو لم أرد.

قال " صاحبعلى " : - إذن لنذهب.

قال " بولاد " : - ماذا نفعل بالجدى ؟

قال " صاحبعلى " : نتركه فى البيت .
قال " بولاد " : - قالت أمى ألا أعود به حتى تغيب الشمس.
قال " صاحبعلى " : - نترك الكلب عند الجدى .
مسح " بولاد " بيده على رأس الكلب وأذنه وقال : - حسناً فلتراقب الجدى حتى أعود .
أخذنا ثلاثتنا نجرى ونجرى حتى وصلنا أسفل سور الحديقة ، وقال " صاحبعلى " : - إقفز عالياً .
قال " بولاد " : الأمر لا يحتاج بعد أن تخفى خطتك .أنا نفسى فهمت:تريد أن نزرع نواة خوختنا .
قال " صاحبعلى " : - هذا صحيح ، فلنزرع نواتنا خلف كومة التراب الموجودة فى آخر الحديقة . بعد ذلك تمر عدة سنوات ونصبح أصحاب شجرة خوخ . من المؤكد أنك فهمت من نفسك لماذا لن نزرعها فى مكان آخر.
قال " بولاد " : - أعلى التل ، لا تنمو شجرة الخوخ ، فالشجرة تحتاج إلى ماء ، وتحتاج أيضاً إلى تربة ناعمة .
قال " صاحبعلى " : - الآن لا تقرأ مرثية مثل الشيخ ، أنا صاعد إلى أعلى لعل البستانى لم يعد .
لم يكن البستانى قد عاد بعد من المدينة . أخذ " بولاد " و" صاحبعلى " يحفران الأرض فى ركن خال في الحديقة خلف كومة التراب، ووضعانى تحت التراب وأخذا يسويان التراب بيديهما . وتركانى وذهبا .

واحتضننى التراب المظلم الرطب وضغطنى والتصق بجسدى ، ومما لاشك فيه أننى لم أكن أستطيع النمو بعد ، وتلزم فترة من الوقت حتى أجد قدرة النمو.

ومن خلال البرودة التى وجدت طريقها إلى أسفل التراب فهمت أن الشتاء قدحل، وأن الثلج قد غطى التراب، وقد تجمد التراب فوقى بنصف شبر، أما تحت التراب فقد كان دافئا بحيث لا أبرد ولاأتجمد . وعلى هذا النحو توقفت عن الحركة والاهتزاز مؤقتا، وغرقت فى نوم عميق ولذيذ تحت التراب . نمت لأستيقظ فى الربيع وأستعد بقوة أكبر، وأنمو وأخرج من التراب وأصبح شجرة يانعة مملوءة بالفاكهة من أجل " بولاد " و" صاحبعلى " . شجرة مليئة بالخوخ الكبير والندى ذي الوجنات الملونة مثل البنات الحسناوات الخجلات .

لا يعلق بذهنى الكثير عن الأحلام التى رأيتها فى الشتاء . ما أعلمه فحسب أننى رأيت ذات مرة حلماً أننى قد أصبحت شجرة كبيرة ، وأن " بولاد " و" صاحبعلى " يتسلقانى ويهزان فروعى . وأن جميع أطفال القرية العرايا كانوا قد تجمعوا حوالى يتلقفون خوخاتى من الهواء ويأكلونها بلذة ويسيل اللعاب من أفواههم ويبلل صدورهم وبطونهم العارية . وأخذ طفل أقرع ينادى على " بولاد " وكان يقول له : " بولاد " ألم تقل لى ما اسم هذا الشىء الذى نأكله ؟ ففى النهاية أريد أن أعود إلى البيت وأقول لجدتى ماذا أكلت . وأكلت منه الكثير أيضاً ولكن من كثرة ما كان لذيذا، حتى الآن لم أشبع . ومستعد أيضا أن آكل منه ثانية . وأنا مستعد أن أراهن أننى لم أشبع .

كان هناك طفلان أيضاً لم يكن يستر جسديهما شيئا ، وقد كان

الذبـاب يحـوم بكثرة حولهمـا بل ويحـط علـى أنفيهمـا وفميهمـا . كـان الأطفـال من كـل صـوب يمسكون بـالخوخ الكبير فى أيديهـم، وكـانوا يقضمونه بلذة وهم يبدون إعجابهم به .

كان هذا أحد أحلامى .

آخر مرة رأيت فى الحلم زهرة اللوز.

كنـت قـد سـقطت مريضـة فـاقدة الوعـى، وفجـأة عـلا صـوت هـادئ، وأحسسـت أن روائـح معهـودة قـد صـاحبت الصـوت، وامتـدت إلى ماتحت التراب . قالـت الصوت : يا زهرة اللون تقدمى وانفثى عطرك داخل وجود الخوخـة الجميلة، وإذا لم تستيقظ مرة أخرى ، إمسحى بيديك على وجههـا وجسـدها واتركيهـا تتنسم جيـداً أريـج الزهـر. الخلاصة أيقظيها بأسرع ما يمكنك .فقدحان وقت نموها واخضرارها، وكل النوى آخذٌ فى الاستيقاظ .

كـان عطر زهـرة اللـوز ويداهـا يتحركـان علـى وجهـي وجسـدي ، كانـا لذيذين بحيث أننى كنت أريد أن أظل فاقدة الوعى ، ولكن لم يحدث . عدت إلى وعيى وأردت أن أتظاهر بفقدان الوعـى مـرة أخـرى ،ولكـن زهـرة اللوز ضحكت وقـالـت : كفـاكِ دلالاً يـا روحـى . إن بـذرة الحيـاة كـامنـة فـى داخلـك فـاتخذتى قـرارك بـأن تـأخذي في النمـو وتصبحـى شجرة كبيرة وتؤتي أكلك أليس كذلك ؟

كـانت زهـرة اللـوز مثل عروس جميلة ترتدى ثوبـاً من الثلـج الأبيـض النقى وكـانت شفتاها فى احمرار الورود . مما لا شك فيه أنى لم أكن رأيت الثلج من قبل وكنت قد سمعت وصفه من أمى عندما كنت ثمرة خوخ .

كنت أريد أنن أعرف مع من كانت زهرة اللوز تتحدث من قبل، ومن الذى قد أحضرها فوق إلى رأسى . طوقت زهرة اللوز رقبتى بيديها ، وقبلتنى وقالت ضاحكة: يا له من قوام ضخم تمتلكين بحيث لا تحيط به يدى .

ثم قالت : - كان الربيع هنا أيضاً وقال : هذا أوان النماء والاخضرار.

وأنا بسماعى إسم الربيع كأننى كنت نائمة واستيقظت،إذ ظننت أن الربيع قد جاء وولى وأنا لم أشق قشرتى بعد .وبهذا الهاجس فزعت من النوم مندهشة . ورأيت التراب الأسود الرطب يحتوينى ويداعبنى .

وكانت قشرتى مبلله من الخارج بينما تصببت عرقا من الداخل ، وكانت القطرات تتصبب من أعلى سطحى . وكانت تتساقط من أطراف بدنى وتنساب أسفل جسدى وفى التربة . وكانت هناك عدة حبات من نبات الخمخم تلتف حولى . كانت منهمكة فى بسط جذورها ، وكانت إحداهما قد استوت ولعلها كانت قد أطلت من التراب . وكانت جذورها الرقيقة تطل هنا وهناك ، وأخذت تمتص ذرات الغذاء والماء وتجمعها فى موضع واحد وترسلها لأعلى . وكانت هناك بذرة مجهولة قد أنبتت جذراً صغيراً وأحنت رأسها، وأخذت تثقب التراب بصبر وهدوء وتصعد ،إذ كانت قد قررت أن تشاهد بعد يومين بزوغ الشمس .

وكان الجذر الجديد يعبر من تحت جسدى ، وأخذ يتقدم فى كل لحظة ويزداد طولاً ويدغدغنى .وأخذ يقول أنه ينتمى إلى شجرة اللوز الواقعة على حافة الجدول، وأخذ جذر اللوز يمتص رطوبة التراب وذرات الغذاء بكل قوته ويتشربها .

وكان الماء الذى ينساب على وجهى هو الماء الذى كان على وجه التراب وانقطع بعد عدة أيام .

سمعت ذات يوم صوت خشخشة، وبعد قليل قدم إلى سرب من النمل الأسود النشط الماهر وشرع فى لدغى وعضى . وكان النمل قد جلب حرارة الشمس وهواء الربيع إلى داخل التراب . ومن لدغاتهم فهمت أنهم آخذون فى النقب . ولدغونى لفترة من الوقت ، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعوا ثقبى حولوا مسارهم ونقبوا فى مكان آخر. ولم أرهم مرة أخرى حتى أطللت من التراب وصرت شجرة .

كنت قد امتصصت قدرا من الماء بحيث انتفخت وتمزقت قشرتى نتيجة لذلك . ذلك الوقت أخرجت جذيرى على شكل عود أبيض من شق قشرتى . وغرسته فى التراب حتى ينمو ويصبح جذراً لى حتى أستطيع أن أستند عليه وأنتصب . وبعد ذلك أخرجت سويقى ، وعلمته كيف يحنى رأسه ويثقب التراب ووجهه إلى أعلى ويسمق ويذهب ليجد الشمس . وأقصى طرف سويقي كانت توجد برعمة صغيرة ، وبينما كنت أطل من التراب أخذت أجعل منها ساقاً مورقاً حتى يصبح جذيرى جذراً ويستطيع أن يجمع الغذاء، وأخذت أطعم جذيرى وسويقى من الغذاء المدخر لدى .

وكان لدى هواء أيضاً داخل التراب حتى لا أختنق .كما كانت حرارة الخارج أيضاً تنفذ داخل التراب .

وفى هذه المراحل أيضاً لم أكن تعبت بعد . وكنت من قبل قد نموت داخل نفسي وأفنيت ذاتى وصرت شيئا آخر. مما لا شك فيه أننى كنت نواة فى مرحلة ما ، كنت نواة كاملة . ولم أكن بعد أستطيع أن

أنمو وأتحرك . أما الآن ، وأنا كنت أريد أن أصبح شجرة ، كنت شجرة شديدة النقص . وكان لا يزال لدى مجال واسع للنمو والحركة . وكنت أفكر أنه ربما كان هناك فرق واحد بين نواة كاملة وشجرة ناقصة، وهو أن النواة الكاملة تكون قد وصلت إلى طريق مسدود وإن لم تتغير سوف تعطب ، أما الشجرة الناقصة فأمامها مستقبل زاهر. وفى الأصل أن كل شئ يتغير من لحظة إلى أخرى . وعندما تتراكم هذه التغيرات وتصل إلى حد معين ، نحس نحن أننا لم نعد بعد الشئ السابق ، لكننا شئ آخر. مثلا أنا نفسى الذى لم أكن على شكل نواة بل كنت على شكل شجرة ، كان لدى جذير وسويق وكنت قد جمعت براعمى ووريقاتى الصفراء بين فلقتى فوق رأسى، وأخذت أنمو تدريجياً . كنت أريد عندما أطل من التراب أن أنشر وريقاتى أمام الشمس حتى تصبغها الشمس باللون الأخضر. وكنت أتصور الأغصان المليئة بالبراعم وثمار الخوخ البضة الحمراء . كنت شجيرة لا قيمة لها ، ومع ذلك يا له من مستقبل مضئ كان أمامى .

وكانت حصاة بحجم الجوزة قد سدت الطريق أمامى، ولم تكن تتركنى أصعد إلى أعلى، ورأيت أننى لا أستطيع ثقبها، فاضطررت إلى الالتفاف والعبور وصعدت إلى أعلى .

وكلما كنت أصعد إلى أعلى كنت أشعر بحرارة الشمس أكثر، وكنت أنجذب صوب الشمس أكثر. والآن كنت أستطيع ثانية الحركة من بين جذور الأعشاب الموجودة على وجه الأرض . وبلغت فى النهاية موضعاً كان ضوء الشمس ينير التراب فيه بشكل أو بآخر. وفهمت أنه لم يبق فوقى أكثر من قشرة ناعمة ، وبعد عدة ساعات أخرى

شققت الأرض بهزة من الرأس ورأيت الضوء والحرارة اللذين كانا قد جاءا لاستقبالى .

كنت الآن على وجه الأرض ، الأرض التى كانت جدتى وكانت أمى أيضاً ، وأيضاً أم جميع المخلوقات الحية .

وشجرة اللوز البيضاء كانت تلمع من قمة رأسها إلى أخمص قدمها تحت الشمس على تل من التراب . وهكذا كانت فرحة ، وجعلتنى أسعد من أعماق القلب ألقيت عليها السلام . قالت شجرة الجوز ،: السلام على وجهك القمرى يا روحى ، مرحباً بك على وجه الأرض ، وما أخبار باطن الأرض؟

كانت شتلات الخمخم قد نمت، وكانت تلقى بظلالها، ولكننى لم أكن أملك بعد سوى ورقتين باهتتي اللون لا أكثر. وكنت أرفع رأسى قليلاً قليلاً .

وفى اليوم الذى جاء فيه كل من " بولاد " و " صاحبعلى " نحوى، كان لدى عشرة أو إثنتا عشرة ورقة خضراء وساق كان أعلى من بعض الأعشاب ،ولكن شتلات الخمضم كانت أطول مما أنا عليه بكثير. فكانت تسمق بسرعة وقوة إلى درجة أننى كنت أتعجب ، وكنت أتخيل فى البداية أنه بعد عدة أيام أخرى سوف تمتد رؤوسها أيضاً أعلى من شجرة اللوز. ولكن عندما انتبهت وجدت أنها ليس لها جذور وعروق قوية فى الأرض . وقلت لنفسى سوف تذبل شتلات الخمضم سريعا وسوف تمحى .

سر " بولاد " و " صاحبعلى " من رؤيتى ، وقال كلاهما : هذه فى النهاية ملكنا . أحضرا عدة حفنات من ماء الجدول وصباها تحت

قدمي وتركاني وذهبا . ولعل البستاني كان بالقرب مني يسقى الأحواض ، وكان صوت معوله مسموعاً .

وكان أواخر الربيع ، عندما رأيت أن بواتق الخمضم تبدو وكأنها لن تستطيع أن تنمو، كانت قد أزهرت ويعثرت بذورها وأخذت تموت قليلاً قليلاً . وعندما حل الشتاء كنت فى حجمها ولكن لم تكن لى فروع بعد . كنت أريد أن أستوى على عودى قليلا ثم أنبت فروعاً .

كان " بولاد " و" صاحبعلى " يأتيان كثيراً إلي ، وأحياناً كانا يجلسان فترة من الزمن ويتحدثان عن مستقبلى وعن خططهما . ذات يوم كانا قد أحضرا حية كبيرة اللون براقة، وكان من المعلوم أنهما حطما رأسها بالهراوة، ثم حفرا الأرض على بعد نصف متر مني ودفناها هناك تحت التراب .

صفق " بولاد " وقال : سوف تقوم بعمل شديد الإمتاع .

مما لاشك فيه أنه كان يقصدني .

قال " صاحبعلى " : - الحية الواحدة تساوى عدة أحمال من السماد والروث .

قال " بولاد " : - أظن أنه فى العام القادم سوف نأكل بواكيرها .

قال " صاحبعلى " : - الله أعلم ، إننا حتى الأن لا نملك شجرة .

قال " بولاد " : - ليكن ، قد سمعت أن شجرتي الخوخ والمشمش تثمران سريعاً .

كنت أيضاً أعلم هذا ، فأمى وعمرها عامان كانت قد أثمرت ثمرتى خوخ .

كنت أفكر ماذا سيكون شكلى عندما تكبر خوخاتي وتنضج ، كنت

أتمنى أن أثمر سريعاً حتى أرى كيف تمتص الخوخات عصير جذعى .
وكنت أتمنى أن تثقل خوخاتي وتُحنى أغصانى حتى تصل أطرافها
الى لأرض .
مضى الصيف وحل الخريف
كنت قد أعددت أنابيب رقيقة داخل جسمى بحيث أن كل ما كانت
تمتصه جذورى من الأرض كانت ترسلها إلى أعلى عبر تلك الأنابيب .
وفى أواسط الخريف أغلقت الأنابيب من عدة أماكن، ولم تعد
جذورى ترسل العصارة بعد إلى أعلى . فى ذلك الوقت بدأت أوراقى
التى لم يكن يصل إليها الغذاء فى الذبول والاصفرار. وأنا أيضاً
قطعت أطرافها جميعاً حتى هبت الريح وألقت بها على الأرض،
وأصبحتُ عارية .
كنت قد عقدت فى طرف كل ورقة عقدة صغيرة . كان هدفي أن أنبت
في الربيع التالي من كل منها غصناً صغيرا ، وأعد فرعا وكنت أيضاً قد
فكرت فى بشائرى وكنت أريد أن أثمر مثل أمى وعمرى عامان . حقا
لا أتذكر جيداً فقد كان هناك فوق جذعى أربع أو خمس عقد، وكنت
أنتوى أن أعطى منها براعم وزهورا ، وأحببت أن أفكر بانتظام فى
زهورى .
كلما كان الهواء يزداد برودة ، كان النوم يغلب علىّ أكثر، بحيث أنه
عندما حط البَرَد على الأرض وتجمدت، كنت أغط فى نوم عميق .
وكان " بولاد " و" صاحبعلى " قد أحاطانى بالأصلة وقطع الخيش ،
كنت فى النهاية لاأزال أملك قشرة هشة رقيقة ، وكنت أعتبر فى جليد
الشتاء غذاءاً لذيذا للأرانب . علاوة على ذلك كان من الممكن أن

يضربني البرد ، وآنذاك كنت أضطر فى الربيع أن أنمو من الأساس مرة أخرى .

عندما حل الربيع كانت جذورى هي التى إستردت وعيهافي البداية ، ويعد ذلك إستيقظ جذعى لوصول العصارة الجديدة ، وتحركت أغصانى وانتفخت قليلاً ، والماء الذى كان يصل إلىّ من التراب كان يفرغ كل أغصانى من النوم ويدفعها إلى الحركة وكنت أنبت داخل أغصانى أوراق متناهية فى الصغر، بحيث أنه عندما تتفتح أغصانى أجعلها كبيرة عريضة ، الآن كانت براعمى قد صارت مثل حبة الشعير، أو أكبر قليلاً . ولم يكن قد تبقى لى أكثر من ثلاثة براعم . إحداها كان العصفور الشره قد نقره وأكله . وانبثقت منى ثلاثة زهرات ولكنى رأيت أنه أثناء العمل لن أستطيع أن أجعل من ثلاثتها ثمارا . سقطت واحدة من زهراتى فى البدايات وذبلت ، والثانية جعلتها ثمرة لم تنضج بعد ، ثم لم أستطع توصيل الغذاء لها فذبلت وهبت الريح وأسقطتها على الأرض . وآنذاك جمعت كل قوتى حتى أنضج ثمرة واحدة لا نظير لها ولا شبيه، بحيث أن كل من يراها تتسع عيناه دهشة، وكل من يذوقها لا يقرب بشفتيه فاكهة أخرى . ويدأت فى تغذية ثمرتى داخل مثبر الزهرة وتكبيرها حتى تمزق مثبر الزهرة وخرجت ثمرتى غير الناضجة . واستقرت قبيل قمة رأسى ، بناء على هذا فمنذ ذلك اليوم الذى كانت فيه فى حجم ثمرة اللوز الفجة ، كانت تحمينى بشكل أوبآخر. وإن كان ينتابنى القلق ، أنه كنت أريد أن أنضج ثمرة على ما أهوى فينبغى أن ينحنى خصرى وربما ينكسر، لكنى كنت فى الأصل لا أريد بسبب المتاعب التى لابد

وأن تحدث أن أصيب ثمرتى بالذبول وألقى بها بعيداً . وإن أردتم الحقيقة كنت قد قررت أن أبلغ بثمارى فى السنوات التالية الألف عدداً ومن هنا كان من اللازم أنه منذ الخطوة الأولى وحتى الثمرة الأولى أن أنجح فى الامتحان . وكانت الحية التى دفنها الصبيان بالقرب منى تحت التراب قد تلاشت، وجعلت التراب الموجود حولى شديد القوة، ومن بركة نفس هذه الحية كنت قد صرت صاحبة فروع وأوراق ذات وزن .

وكان " بولاد " و" صاحبعلى " فى تلك الأيام قليلا ما يأتيان إلىّ، وأظن أنهما كانا يذهبان عند أبويهما فى المزرعة إما من أجل الحصاد ، أو درس المحصول ، لكنهما فى اليوم الذى جاءا فيه إلىّ وغرسا عصيهما إلى جوارى فى الأرض وربطانى بها ، أظن أنه كان نفس اليوم الذى قال " بولاد " فيه فجأة : " صاحبعلى " !

قال " صاحبعلى " : - هيا ! قل !

وقال " بولاد " : - أقول لا قدر الله أن يكتشف هذا البستانى - ابن الكلب- شجرتنا.

وقال " صاحبعلى " : - يكتشفها يعنى ماذا ؟

ولم يقل " بولاد " شيئاً ، وقال " صاحبعلى " : - لا يستطيع أن يقوم بعل خاطئ ، الشجرة زرعناها نحن ورعيناها نحن وثمارها ملك لنا .

وغرق " بولاد " فى تفكيره ثم قال : الأرض ليست ملكا لنا .

وقال " صاحبعلى " : - لا يستطيع أن يرتكب خطأ أيضاً ، الأرض ملك لمن يزرعها ، هذه القطعة من الأرض التى زرعنا فيها الشجرة ملك لنا وتشجع " بولاد " وقال : - نعم ملك لنا . إذا أرتكب خطأ ماغرق البستان كله .

ضرب " صاحبعلى " صدره العارى الذى لوحته الشمس بقبضته وقال:ليمت هذا الجسد إذا تركته يهنأ بشربة ماء ، نشعل النار ونفر.
أظن أنه إن لم يكن " بولاد " و" صاحبعلى " أعطياني عصيهما فى ذلك اليوم بالتأكيد كنت سأتحطم، لأن ريحا عاتية كانت قد هبت خلطت كل فروعى وأغصانى ، وفى الصباح رأيت أن عدة أغصان من شجرة الجوز قد تحطمت .
كانت الأيام تمر تلو بعضها وكنت بكل قوتى أجعل من الثمرة أكبر وأكبر وأترك الشمس تلون خديها بالاحمرار ، والحرارة تنفذ إلى داخل لحمها . والتصقت إبنتى بجسدى بشكل قوى، وأخذت تمتص بحيث كان جسدى يؤلمنى أحياناً لكننى لم أكن أغضب قط منها ، وكانت لى ابنة جميلة فى النهاية .
كان " صاحبعلى " و" بولاد " قد انشغلا بى بحيث نسيا على وجه التقريب الأشجار الأخرى فى الحديقة ، ومثل السنوات الماضية لم يعودا يجلسان فى ظل ثمار أمى . وأنا كنت أعتبر نفسى ملكا لهما، وكنت أعطيهما الحق عندما تنضج ثمرتى تماما أن يقطفاها وأن يأكلاها متمتعين كما أكلانى أنا نفسى فى يوم من الأيام .
كانت أوائل الخريف عندما جاء " بولاد " إلىّ وحيداً حزيناً وكانت المرة الأولى التى أرى فيها أحديهما وحيداً ، وروانى " بولاد " فى البداية، ثم جلس فوق الأعشاب وهمس إلى والى ثمرتى قائلا: - ياخوختى ، يا خوختى الجميلة ، أتعلمين ماذا حدث ؟ ألا تعملين قط لماذا أنا اليوم وحيد؟ نعم أرى إنك لا تعلمين . مات " صاحبعلى "، لدغته حية ... وننه منجوق العجوز قضت ليلة كاملة فوق رأسه،

وأظن أنه لم تكن تتأتى منها فائدة وكل الأدوية التى كانت قد ذكرتها ذهبت أنا ووالد " صاحبعلى " وجئنا بها من الجبل والصحراء ولكن " صاحبعلى " لم يعاف .

مسكين " صاحبعلى " ! لماذا ذهبت آخرا وتركتنى وحدى؟

ويدأ " بولاد " فى البكاء ثم تحدث ثانية قائلاً: منذ عدة أيام عندما كنت عائدا من الخلاء ظهرا، التقينا فوق التل، وقررنا أن نذهب ونصيد حية مثل العام الماضى وندفنها فى نفس المكان بحيث تجعل تريتك شديدة القوة، وذهبنا إلى وادى الحيات ، وفى وادى الحيات ، حيات لا تحصى، وفى ناحية من الوادى جبل كله من صخر، لا تظني أن الجبل قطعة واحدة من الصخر،لا ، تخيلى أحجاراً كبيرة وصغيرة إنصبت من السماء فوق بعضها وصارت تلا، واتخذت الحيات جحورها وسط الحجارة، وعندما كانت الحرارة تصادف أجسادها تخرج . وأرضنا وأرض جيراننا وأرض ابن خالة " صاحبعلى " وعدد آخر كلها داخل وادى الحيات، ومن باطن الأرض يسمع دائما صوت فحيح الحيات .

أخذنا ننظر أنا و" صاحبعلى " فى سفح الجبل إلى ما وراء الأحجار، وكنا نضع عصينا داخل الجحور حتى نجد لك حية سمينة ، وكنا كالعادة عرايا ، كان على جسد كل منا مجرد سروال، وكان ظهرانا قد إكتويا بالحرارة بحيث لو وضعتى بيضة عليها لنضجت . وهكذا بينما كنا نقفز من هذه الصخرة إلى تلك الصخرة، إنزلقت فجأة قدم " صاحبعلى " وسقط على ظهره وصرخ فجأة بحيث امتلأ الوادى بصوته ، كان " صاحبعلى " قد سقط على صخرة كانت حية قد

تحلقت فوقها وصرخ " صاحبعلى " صرخة أخرى وسقط فى أعماق الوادى فوق التراب. وأنا بدورى لم أمهل الحية فضربتها بالعصا فوق رأسها ثم فوق بطنها ثم ثانية فوق رأسها وكان فى بطنها فأران وعصفور.

كان " صاحبعلى " قد سقط فاقد الوعى ولم يكن يصدر عنه صوت. وألقيته عصاه بعيداً لا أدرى إلى أين، وكان موضع لدغ الحية أحمر اللون، ولو كانت الحية قد أصابت قدمه أو يده كنت أعلم ماذا ينبغى علىّ أن أصنع لكن أى أمر كنت أستطيعه واللدغة فى وسط ظهره؟ واضطررت إلى حمل " صاحبعلى " على كتفى وجئت به إلى القرية، وقالت "ننه منجوق" العجوز لأمى صباحاً عند القبر أننى لو كنت حملت " صاحبعلى " إليها أسرع لما مات. الخلاصة بأى شكل كنت أستطيع أن أحمل " صاحبعلى " أسرع يا شجرة الخوخ، أنت نفسك تعلمين أن " صاحبعلى " كان أثقل منى وزناً، ولو كان لدى حمار ووصلت متأخرا لكان لـ "ننه منجوق" الحق فى القول بأننى تأخرت. فى النهاية أى أمر كنت أستطيع القيام به ؟

ويدأ " بولاد " ثانية فى البكاء، وكنت الآن أحس أننى أحب " صاحبعلى " و" بولاد " حباً شديداً. وعندما فكرت أننى لن أرى ثانية " صاحبعلى " أوشكت من شدة الحزن أن أسقط أوراقى وأن أجف إلى الأبد ولا أنبت غصناً.

وانتهى " بولاد " من بكائه وقال: إننى لا أستطيع أن أبقى فى القرية ثانية فحيثما أذهب أرى صورة " صاحبعلى " أمام عينى وأحزن، وعندما أذهب إلى الجبل، أو آخذ الماعز إلى الخلاء، وعندما أريت

بيدى فوق رؤوس الكلاب، أو أمضى سائرا فوق الروث، أو أصطاد مع الأطفال الآخرين داخل المزرعة الجراد والضب أو أدق الأعشاب ، وعندما أصعد فوق السطوح، دائما صورة " صاحبعلى " أمام عينى وكأنه ينادينى " بولاد " " بولاد " !! أجل يا شجرة الخوخ إننى لا طاقة لى على سماع هذا الصوت أريد أن أذهب إلى المدينة عند خالى أعمل صبيا لبقال، وأنا لا أعلم ماذا كان ينبغى علىّ فعله لكى يبقى " صاحبعلى " حياً ، والآن لا أدرى أيضاً ماذا أفعل بحيث لاأسقط مثله فجأة وأموت ، أنا صغير لا يسع عقلى أي شئ ، كل ما أعلمه أننى لاأستطيع أن أبقى فى القرية . أنا ماض يا شجرة الخوخ، تركت ثمرتك أيضاً من أجلك .

وعندما رأيت أن " بولاد " يريد أن ينهض ويمضى تركت ثمرتى تسقط أمام قدمه، وحمل " بولاد " الثمرة وشمها ثم نظفها من التراب، وتحسسنى من أخمص القدم حتى مفرق الرأس بيديه وتركنى ومضى .

وفى السنة التالية كنت قد استويت تماما على عودى، وكنت قد أنبت أوراقاوأغصاناً كثيرة من جميع أجزاء جسمى ، وكنت قد طرحت عشرين أو ثلاثين زهرة، وكنت أستطيع آخر الأمر أن أرتفع على تل التراب، وأطل برأسى وأشاهد أنحاء البستان، وذات يوم انتبه البستانى إلى،وجاء وأمعن النظر في ، ومن الفرحة لم يكن يعلم ماذا يصنع، ومن شكلى ولون أوراقى وزهورى فهم إبنة من أكون ، كانت شجرة خوخ جميلة قد نبتت داخل بستانه بدون أن يقوم بأى مجهود،، وكنت فى غاية الضيق لأننى سقطت فى النهاية فى يد

بستانى هو نفسه خادم لرجل غنى آخر ومن أجل النقود جعل من أهل القرية أعداء له .

كنت قد أنضجت عشرة أو خمس عشرة ثمرة لكننى عندما كنت أفكر من أجل من ستكون ثمراتي نصيبا، كنت أستاء من نفسى ، لقد كان قد زرعنى " بولاد " و" صاحبعلى " وربيانى والحق كان أن يأكلا ثمراتى .

وذات يوم عنت لى فكرة، ومنذ نفس ذلك اليوم بدأت فى إسقاط ثمارى وعندما انتبه البستانى أنه لم تبق ثمرة أخرى فوق ، ظن أن مغرسى سئ وقال بصوت عال: فى السنة التالية أغير مغرسك بحيث تستطيعين أن تروَيْ جيدا وتثمرى ثماراً كبيرة وجميلة .

وفى ربيع السنة التالية عندما أيقظت جذورى، رأيت أن كل نظامها قد اختل وبعضها جف كما أن بعضها قد أقتلع، ولا جدال كانت لدى جذور سالمة وكثيرة ، فبدأت أغمس جذورى السالمة فى التراب الرطب ثم أنبت جذوراً جديدة ووزعتها حولى، وفكرت ذلك الوقت فى إنبات أغصان وأوراق وبراعم ، وعرفت أمى .

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن لم أدركم عام مر من عمرى، لم يستطع البستانى أن يجعل من ثمارى بشائر، ومن الآن فصاعدا لن يجعل منها بشائر، فأنا لا أطيعه، وهو الآن يريد أن يخوفنى أو يقطعنى بالمنشار أو يتوسل إلىّ .

١١- أربع وعشرون ساعة من القلق



القارئ العزيز:

لقد كتبت قصة " نوم ويقظة " لكى تصبح تدريبا لك ، وقصدى أن تتعرف أكثر على أطفال وطنك ، وتفكر فى وسيلة لعلاج آلامهم ؟ لو أردت أن أكتب ما حاق بى فى طهران لطال الأمر، وربما أصاب الجميع الملل ، ومن هنا سأشرح الأربعة والعشرين ساعة الأخيرة التى أظن أنها أيضاً ليست مملة ،ولا جدال فى أننى مضطر أن أتحدث أيضاً فى كيفية مجيئنا أنا وأبى إلى طهران :

كانت قد مرت عدة شهور وأبى عاطل . فى النهاية ترك أمى وأختى وإخوتى فى مدينتنا ، وأخذ بيدى وجئنا إلى طهران ، وكان عدة أشخاص من معارفنا ومن نفس المدينة قد ذهبوا إلى طهران من قبل ، واستطاعوا أن يجدوا عملاً . وجئنا أيضاً بناء على رغبتهم ، فواحد من المعارف كان لديه كشك صغير لبيع الثلج . وآخر كان يشترى الثياب القديمة ويبيعها . وواحد آخر كان بائع برتقال ، وأحضر أبى أيضاً عربة يد وأصبح بائعا جائلاً ، كان يدور بالبصل والبطاطس والخيار وأشياء من هذا القبيل . كنا نأكل لقمة عيش ونرسل لقمة عيش لأمى . كنت أنا أيضاً أحيانا أتجول بصحبة أبى وأحيانا أخرى أتسكع فى الشوارع بمفردى، وكنت أعود إلى أبى فى الليل فقط . وأحياناً أيضاً كنت أبيع اللبان بريال أو فأل حافظ وما إلى هذا .

الآن نأتى إلى أساس الموضوع :

تلك الليلة كنت أنا وكان " قاسم " ، وابن زيور بائع اليانصيب ، و"أحمد حسين"واثنان آخران قد تصادقنا منذ ساعةأمام طوار البنك.

كنا جالسين نحن الأربعة على طوار البنك وكنا نقول أين نذهب لنلعب بالزهر، فجاء الجميع وجلسوا بجانبنا ، كلاهما كانا أكبر منا ، كان أحدهم أعور وكان الآخر ينتعل حذاء أسود جديدا ، ولكن العظمة القذرة لإحدى ركبتيه كانت تطل من ثقب فى سرواله ، وكان مظهره أسوأ منا .
بدأنا نحن الأربعة نسترق النظرات إلى حذائه ثم نظرنا أيضاً إلى وجهه ، وقال بعضنا للبعض بالنظر أيها الأطفال فلتنتبهوا أننا نتعامل مع سارق أحذية . وقال صاحبنا الذى انتبه إلى نظراتنا : ماذا ؟ ألم تروا حذاء؟!
قال صديقه : لا تعبأ بهم يا محمود ، ألا ترى أنهم جميعا فى غاية الهزال ، فأين رأوا حذاءا هؤلاء المساكين .
قال محمود : كان ينبغى أن أنظر إلى أقدامهم الحافية ثم أسألهم : ألم يروا حذاءا فى أرجلهم .
قال صديقه وكان أعور : ليس الجميع مثلك لديهم أب من الأعيان ينفق ببذخ ويشترى لأطفاله أحذية جديدة .
بعد ذلك أغرق الاثنان فى ضحكة مكتومة . وبقينا نحن الأربعة وحدنا ، نظر "أحمد حسين" إلى " ابن زيور" ثم نظر كلاهما إلى قاسم ، وبعد ذلك نظر ثلاثتهم إلىّ ، ماذا نفعل ؟ نشاغب أو نتركهم يضحكون علينا ويخدعوننا؟
قلت لمحمود بصوت عال : أنت لص ! لقد سرقت الأحذية .
إنطلق كلاهما فى ضحك مكتوم كالفقاقيع ، وأخذ الأعور ينخزه بكوعه وهو يقول: ألم أقل يا محمود؟ هاها،، ألم أقل ؟؟ هه... هه ... هه ...

وكانت سيارات مختلفة الألوان قد توقفت على جانب الشارع، وكانت قد ألصقت ببعضها وكأنها جدار من حديد كان قد وضع أمام وجوهنا . وتحركت السيارة الحمراء التى كانت أمام وجهى مباشرة، وظهرت فجوة بحيث أرى وسط الشارع .

وكانت السيارات المتنوعة من أجرة وملاكى وحافلات قد ملأت نهر الشارع وأخذت تتحرك ببطء ولصق بعضها البعض، وكانت تحدث جلبة وهى تتقدم وكأن كل منها تدفع الأخرى وتصرخ كل منها فى الأخرى . وفى رأيى أن طهران أكثر أماكن الدنيا ازدحاماً، وهذا الشارع أكثر الشوارع ازدحاماً فى طهران .

أوشك الأعور وصديقه محمود على الإغماء من شدة الضحك، وأخذت أدعو الله أن تقع بيننا مشاجرة لأننى كنت قد تعلمت شتمة جديدة ، وكنت أريد بأى شكل كان حتى ولو كانت فى غير موضعها أن أوجهها إلى أحد . أخذت أقول لنفسى : ليت محمود يصفعنى ، ذلك الوقت أغضب وأقول له: " ترفع يدك علىّ؟ الآن آتى وأمزق خصيتك بالمطواة أنا بنفسى؟!! وعلى هذه النية أمسكت بخناق محمود الذى كان جالسا إلى جوارى وقلت : إن لم تكن لصا فقل لى من الذى أشترى لك الحذاء؟

هذه المرة انقطع الضحك ، وأبعد محمود يدى بعنف وقال : إبق فى مكانك، يا ولد ، ألا تفهم معنى كلامك؟

ألقي الأعور بنفسه بينهما ولم يترك المشادة تحتدم ، قال : دعك منه يا محمود ، هذا الوقت من الليل لا يحتاج إلى إثارة مشاجرة ، اترك مذاق الضحك يظل فى أفواهنا .

نحن الأربعة كنا نفكر فى المشاجرة والتضارب، ولكن محمود و الأعور كانا يرغبان حقيقة فى المرح والضحك .
قال محمود لى : - يا أخينا نحن لا نفكر الليلة فى الشجار، ولو كنت تشتهى الشجار، لنؤجله إلى الليلة القادمة .
قال الأعور : - الليلة ، نرغب أن نتمازح قليلا حسنا ؟
قلت : - ليكن .
جاءت سيارة لامعة ووقفت أمامنا على جانب الشارع، وشغلت المكان الخالى . ونزل منها سيد وسيدة شابان وكلب أبيض لامع . وكان هناك ولد فى قامة أحمد حسين تماما، يرتدى سروالا قصيرا وجورباً أبيض . وحذاءا مكشوفا ذا لونين وكان مصفف الشعر مدهونه . ويمسك فى إحدى يديه نظارة بيضاء . وأمسك بيده الأخرى يد أبيه، وكانت سلسلة الكلب فى يد السيدة ، بينما كان ساعداها وساقاها عاريين وفى قدمها حذاء ذو كعب عال ومرت بنا فصافح أنوفنا عطر جميل . ورفع "قاسم" قشرة من تحت قدمه وألقاها بشدة فى قفا الولد . عاد الولد ونظر إلينا وقال : متشردون .
قال أحمد حسين بغضب : غور فى داهية ، ولد مدلل . وجدت فرصة وقلت : الآن آتى وأمزق خصيتك بالمدية ، وانطلق الأولاد فى الضحك مرة واحدة فسحب الأب يد الولد ودخلا فندقا كان يبعد عدة أمتار.
اتجهت الأنظار كلها مرة أخرى إلى حذاء محمود الجديد ، قال محمودبمودة:ليس الحذاء بالنسبة لى مهما جدا،لو أردتموه فليكن لكم .
ثم التفت إلى أحمد حسين ، وقال - تعال يا صغيرى ، تعال إخلع الحذاء عنى وضعه فى قدمك .

وألقى أحمد حسين نظرة شك إلى قدم محمود ولم يتحرك .
قال محمود: لماذا وقفت تنظر؟ لا تريد الحذاء الجديد؟هيا تعال خذه.
هذه المرة نهض أحمد حسين، وذهب وانحنى أمام محمود ليخلع عنه الحذاء . وأخذ
ثلاثتنا ننظر ولا نقول شيئا .
أمسك أحمد حسين بقدم محمود بشدة وسحب، لكن يديه انزلقتا وسقط على ظهره فى الشارع . إنطلق محمود والأعور فى الضحك بحيث أننى قلت لنفسى ستوجعهما بطناهما . وكانت يدا "أحمد حسين" قد اسودتا وأخذ الأعور يلكز جنب محمود ويقول: ألم أقل يا محمود؟ هاها ... ها : ألم أقل؟ هه ... هه ...
وكانت آثار أصابع أحمد حسين المنزلقة تشاهد على قدم محمود .
وانتبه ثلاثتنا أخيرا إلى أننا خدعنا ، وسرت إلينا عدوى ضحك ذلك الرفيقين النصابين فانطلقنا ضاحكين ، ونظر إلينا أحمد حسين لفترة الذى كان قد قام متضايقا من تحت أقدام الناس ، ثم انطلق هو أيضاً فى الضحك ، ثم ضحك لا نهاية له . وأخذ المارة ينظرون إلينا ويمرون ، انحنيت ونظرت إلى قدم محمود عن كثب ، أين كان الحذاء !! كان محمودقددهن قدميه بحيث كان المرءيظن أنه لبس حذاءً أسود جديدا ، فيالها من خدعة عجيبة .

* * *

قال محمود : - هيا نلعب نحن الستة بالزهر.
كان لدى أربعة قروش ، ولم يقل قاسم كم لديه من النقود .وكان مع ذلكما الرفيقين خمسة قروش ، وكان مع ابن زيور، بائع اليانصيب

عشرة قروش . ولم يكن مع أحمد حسين أية نقود ، وكان أسفل الشارع قليلا محل مغلق ، وذهبنا إليه وأمامه شرعنا فى رمى الزهر .
ولنبدأ اللعب رمينا رمية القرعة . وقعت القرعة الأولى على ابن زيور، رمى الزهر، جاء على الخمسة ثم جاء دور قاسم ، رمى الزهر جاء على الستة وأخذ قرشا من ابن زيور وألقى بالزهر مرة أخرى فجاء على اثنين وأعطى الزهر لمحمود، جاءت لمحمود على أربعة فأخذ قرشين من قاسم، صفق بيده بسرور وقال: بركة يا بنى !! وقال هذا حظنا .
وعلى هذا النحو أخذنا نلقى بالزهر اثنين اثنين ونلعب . وعن يميننا كان شابان أنيقان يأتيان ، تقدم أحمد حسين جاريا وقال برجاء: سيدى أعطنى قرشاً ، قرش لايعد شيئاً ، بالله عليك .
وبينما كانا يمران بنا ، أمسك الشاب بقفا أحمد حسين ورفعه ووضعه على بطنه فوق سور بجوار الشارع ، وكان رأس أحمد حسين معلق ناحية وسط الشارع وقدماه ناحية الطوار وفلفص أحمد حسين حتى وصلت قدماه إلى الأرض وفى نفس المكان وقف على حافة الجدول ، وكانت فتاتان تأتيان بصحبة شاب من الناحية اليسرى ضاحكتين، وكانت الفتاتان ترتديان ثوبين قصيرين ذا لون حسن، كانتا تسيران على جانبى الشاب، تقدم أحمد حسين مسرعا وقال راجيا إحدى الفتاتين: بالله عليك يا سيدتى أعطنى قرشا ، فأنا جائع ، القرش لا يعد شيئاً ، بالله عليك ، قرش يا سيدتى .
فلم تأبه الفتاة ، وألح أحمد حسين ثانية ، أخرجت الفتاة قطعة نقود من حقيبتها ووضعتها فى كف احمد حسين ، عاد إلينا أحمد حسين سعيدا وقال : – أنا أيضاً سألقى الزهر.

قال ابن زيور : - أين نقودك ؟

فتح أحمد حسين قبضته وأشار إليها ، وكانت قطعة من العملة ذات القرشين في يده.

قال قاسم : هل تسولت ثانية ؟

وهم بضرب أحمد حسين وأمسك محمود بيده ولم يتركه يفعل .

لم يقل أحمد حسين شيئا ، وأفسح لنفسه مكانا وجلس ، نهضت وقلت لن ألعب بالزهر مع متسولين .

الآن لم يكن معى أكثر من قرش واحد . كنت قد خسرت ثلاثة قروش من الأربعة التى معى . وقال محمود الذى كان قد خسر كثيرا :- كفى لعبا بالزهر ، لنعلب لعبة أسفل الجدار .

قال لى قاسم : يا لطيف ، ثانية لا تفسد اللعبة بكلامك هذا. بعد ذلك قال للجميع: من الذى سيلقى ؟!

قال الأعور : - إرم أنت وحدك ، سنلعب لعبة أسفل الجدار. أشار ابن زيور إلى قاسم وقال : - لعب الزهر بهذا لا فائدة منه كل ما يأتى به خمسة أو ستة فنلنلعب ملك أو كتابة .

قال أحمد حسين : - فليكن .

قال محمود : - لا ، لا نلعب لعبة أسفل الجدار.

كان الشارع فى سبيله إلى الخلو. كانت عدة محلات متواجهة قد أغلقت . ولبداية اللعبة ألقى كل منا بقطعة من فئة القرش من حافة الجدول إلى أسفل الجدار. وكانت قطع العملة لا تزال الجدار حين صرخ "احمد حسين" قائلاً : الشرطى .

وكان الشرطى والهراوة فى يده على بعد خطوتين أو ثلاث منا . وأفلت

أنا و أحمد حسين و الأعور. وكذلك هرب محمود وابن زيور خلفنا .
وأراد قاسم أن يجمع النقود من أسفل الجدار إذ وصل الشرطى ، صرخ قاسم من ضربة الهراوة وبدأ فى الجرى .
وصاح الشرطى خلفه قائلاً : أيها المتشردين المقامرين ! أليست لكم بيوت وحياة ؟ أليست لكم آباء وأمهات ؟!
ثم انحنى وجمع النقود ومضى .
عندما عبرت الميدان وجدت أننى بقيت وحيداً . كان محل الأرز بالشواء الواقع من الناحية الأخرى من الشارع مغلقا ، كنت قد تأخرت عندما كان صبى المحل يترك الباب الحديدى حتى نصفه، كان هذا هووقت عودتى إلى أبى . وكنت أعبر الشوارع والميادين مسرعا وأنا أقول لنفسى . الآن ثانية نام أبى متضايقا، ليته يجلس فى انتظارى، لابد أنه الآن نام متضايقا ثم قلت لنفسى مرة أخرى: وماذا عن محل لعب الأطفال؟ هو أيضاً مغلق . من الذى لديه فى هذا الوقت من الليل صبر لشراء لعب أطفال . لابد الآن أنهم حشروا جملى داخل المحل وأغلقوه وذهبوا . ليتنى كنت أستطيع أن أتحدث مع جملى ، أخاف أن ينسى ما اتفقنا عليه بالأمس ، ولو لم يأت إلىّ؟ لا.. لا ... لابد سيأتى ، هو نفسه قال سآتى ليلة الغد تركبنى ونمضى وتطوف طهران ، ركوب الجمل فيه متعة أيضاً .
وفجأة ارتفع صوت فرملة وطرت فى الهواء . بحيث أننى ظننت أننى انتهيت، وبمجرد أن سقطت على الأرض أدركت أننى اصطدمت وسط الشارع بسيارة ولم يحدث لى شئ . بينما كنت أدلك رسغ يدى أخرج شخصا رأسه من السيارة وصاح قائلاً : يا للا غور من قدام السيارة! لست تمثالاً .

عدت فجأة إلى وعيي . كانت تجلس خلف عجلة القيادة عجوز متزينة ويقبع إلى جوارها كلب ضخم وكان طوق رقبته يلمع.
وفجأة انتابتني حالة بحيث ظننت أنني إن لم أقم بعمل ما في التو واللحظة - كأن أكسر زجاج السيارة مثلا - فإنني سوف أنفجر من شدة الغضب ولن أستطيع أن أتحرك من مكاني أبداً .
وضربت العجوز بوق السيارة مرتين وقالت : هل أنت أصم يا ولد؟ غور من أمام السيارة .
جاءت سيارتان أخريان ومرا بجوارنا ، أخرجت العجوز رأسها وهمت بقول شئ فبصقت بصقة كبيرة في وجهها وجهت إليها عددا من الشتائم وابتعدت عن ذلك المكان سريعاً .عندما مشيت قليلا ، جلست فوق مصطبة محل مغلق ، كان قلبي يدق بشدة . كان للمحل باب حديدي ذو فجوات وكان داخل المحل مضيئا ، وكانوا قد عرضوا أحذية متنوعة خلف الزجاج وكان أبي يقول ذات يوم أننا لانستطيع حتى بأجر عشرة أيام أن نشترى زوجا من هذه الأحذية .
أسلمت رأسي إلى الباب ، ومددت قدمي وكان رسغ يدي لازال يؤلمني . وكانت بطني تنقبض، وتذكرت أنني حتى الآن لم آكل، قلت لنفسي : ينبغي عليّ أن أنام الليلة جائعا ، ليت أبي ترك لي شيئاً .
تذكرت فجأة أن جملي سوف يأتيني الليلة ويُركبني ويحملني للنزهة، قفزت من مكاني وأسرعت في الطريق ، كان محل بيع اللعب مغلقا، ولكن أصوات اللعب كانت تصل إلى مسامعي من خلف الباب الحديدي . قطار بضاعة كان يفح ويصفر، ودب ضخم أسود كأنه كان يجلس خلف مدفع رشاش وهو يطلق الطلقات ويخيف الدمى الجميلة

الرقيقة . وكانت القردة تقفز من مكان إلى آخر وتارة أخرى تتعلق بذيل الجمل حيث كان الجمل يرفع صوته وهو يطلق السباب والشتائم ، وحمار طويل الأذن كان يصك أسنانه ببعضها وينهق ويضع فوق ظهره أطفال الدببه والدمى ويسير بخطوات واسعة . وكان الجمل ينصت إلى دقات ساعة الحائط وكأنه وعد أحداً . وطائرات الهيلوكبتر كانت تدور فى الهواء . والسلاحف كانت تنعس داخل أصدافها وإناث الكلاب كانت ترضع جراءها . وكانت القطة تسحب البيض خفية من السلة ، والأرانب كانت تنظر بدهشة إلى الصياد فى الرف المقابل لها، والقرد الأسود كان يضع بين شفتيه الغليظتين الناى الخاص بى الذى كان دائما خلف الزجاج، وكان يصدر منه أصواتا جميلة متنوعة والسيارات والحافلات كانت تُركب الدمى وتطوف بها . وكانت الدبابات والبنادق والمسدسات والرشاشات تطلق الطلقات بسرعة شديدة . وصغار الأرانب البيضاء كانت قد أمسكت بأيديها ثمار جزر ضخمة وأخذت تمضغها بينما كانت أفواهها مفتوحة حتى أسافل آذانها . والأهم من هذا كله جملى أنا نفسى الذى إذا أراد أن يتحرك حركة واحدة لخلط كل شئ ببعضه ، كان ضخماً لدرجة أنه لم يكن يسعه مكان خلف الزجاج، وطوال النهار كان يقف على حافة الطوار يتفرج على الناس، وهو الآن واقف وسط المحل ويجعل الجرس المعلق فى رقبته يرن، وكان يمضغ اللادن وهو يسلم أذنه لدقات الساعة . وصف من صغار الجمال ذات الوبر الأبيض أخذت تصيح من داخل الرف : أمى ، إذا خرجتِ إلى الطريق سنأتى معك ، حسنا؟

أردت أن أتحدث مع جملى كلمتين ولكن مهما صرخت لن يسمع صوتى ، اضطررت إلى رفس الباب عدة مرات عل الآخرين يصمتوا، ولكن في نفس الوقت أمسك أحدهم بأذنى وقال : هل جننت ياولد ، هيا إذهب ونم .

لم يكن هناك محل للوقوف . وخلصت نفسى من يد الشرطى وبدأت فى العدو حتى لا أتأخر أكثر من هذا .

عندما وصلت إلى أبى ، كانت الشوارع كلها ساكنة خالية . وكان عدد قليل من سيارات الأجرة يأتى ويمر، وكان والدى نائماً فوق عربة اليد الخاصة به بحيث أننى لوكنت أردت أن أنام أيضاً فوق العربة كان لزاما علىّ أن أوقظه حتى يزيح قدميه ويترك لى مكانا . وغير عربة اليد الخاصة بنا كانت هناك أيضاً عربات أخرى على حافة الجدول أو إلى جوار الجدار نام عليها أشخاص آخرون . كان هناك عدة أشخاص أيضاً ناموا فوق الأرض إلى جوار الجدار. كان هذا ميدانا . كان أحد مواطنينا يمتلك كشكا لبيع الثلج . كان النوم يجتاحنى من رأسى إلى قدمى فسقطت أسفل عربة اليد الخاصة بنا .

* * *

ترن ! .... ترن ! ..... ترن ! .....

- أين أنت يا لطيف ؟ لماذا لا تجيب يا لطيف ؟ لماذا لا تأتى لنذهب للنزهة .

ترن ! .... ترن ! ..... ترن ! .....

- لطيف يا حبيبى هل تسمع صوتى ؟ أنا جملك ، جئت لنذهب للنزهة هيا إركب لنذهب .

عندما وصل الجمل أسفل الشرفة ، نهضت من فراشى وقفزت من ذلك العلو وسقطت على ظهره وقلت ضاحكاً ، امتطيتك فلماذا تصيح ؟

سُر الجمل من رؤيتى ووضع قليلا من اللادن فى فمه وأعطانى أيضاً منه وانطلقنا . كنا قد سرنا قليلا حين قال الجمل : - آتيتك بنايك خذه وانفخ فيه لنسمع .

أخذت نايي الجميل من الجمل . وبدأت النفخ فيه بقوة وصاحب الجمل أيضاً نايي بأجراسه الكبيرة والصغيرة .

وأدار الجمل رأسه ناحيتى وقال : يا لطيف ، تعشيت ؟

قلت : - لا ، لم يكن معى نقود .

قال الجمل : لنذهب أولاً لنتعش.

فى نفس الوقت قفز الأرنب الأبيض من أعلى شجرة إلى أسفل وقال : - أيها الجمل الحبيب : الليلة سنتناول طعام العشاء فى الفيلا . سأذهب وأخبر الآخرين ، فلتذهبا أنتما .

وألقى الأرنب بطرف الجزرة الصغيرة التى كان يأكلها فى الجدول وابتعد عنا قافزاً .

قال الجمل : - أتعلم ما معنى فيلا ؟

قالت : - أعتقد أنها المصيف .

قال الجمل : ليست المصيف . فأصحاب الملايين يشيدون لأنفسهم قصوراً ومنازل فخمة فى أماكن حسنة الجو كلما أرادوا ذهبوا إليها واستراحوا . ويطلقون على هذه المنازل فيلا . ولاشك أن هذه الفيلات فيها أيضاً حمامات سباحة ونافورات وحدائق كبيرة مليئة بالورود

وفيها أيضاً طاقم من البستانية والخدم والحشم ، وبعض أصحاب الملايين عندهم فيلات خارج القطر مثلا فى سويسرا وفرنسا . الآن نذهب إلى إحدى الفيلات فى شمال طهران حيث نُخرج حرارة الصيف من أجسادنا .

قال الجمل هذا وكأنه أخرج جناحا وارتفع فى الهواء مثل الطيور. وكانت المنازل الجميلة والنظيفة أسفل أقدامنا . ولم تكن رائحة الدخان والقاذورات موجودة فى الهواء . وكانت المنازل والحارات تبدو لى وكأننى أرى فيلماً . فى النهاية قلت للجمل: - أخشى أن نكون ذاهبين خارج طهران .

قال الجمل : - كيف حدث وفكرت فى هذا ؟

قلت: الخلاصة أن هذه الأنحاء لا دخان فيها ولا قذارة . منازلها كلها كبيرة ومثل باقة ورد .

ضحك الجمل وقال : - معك الحق يا عزيزى لطيف ، تنقسم طهران إلى قسمين وكل قسم يختلف عن الآخر. جنوب وشمال ، الجنوب ملئ بالدخان والقاذورات والغبار والأتربة ، ولكن القسم الشمالى نظيف ، لأن كل الحافلات التى تعمل فى هذه الأماكن قديمة ومستهلكة وكل قمائن حرق الطوب موجودة فى هذه الأماكن . وكل القطارات وعربات النقل تمر من تلك الأنحاء وكثير من حارات وشوارع الجنوب ترابية . وجميع المياه القذرة والعفنة لجداول الشمال تصب فى الجنوب . الخلاصة أن الجنوب هو حى المعوزين والجوعى والشمال حى الأعيان والأثرياء . هل رأيت قط فى "حصير آباد" و"نازى آباد" و"شارع الحاج عبد المحمود" عمارات مرمرية من عشرة طوابق؟ هذه

العمارات الشاهقة التي يوجد بأسفلها محلات فاخرة وعملاؤها يركبون سيارات فارهة وبها كلاب بالآف التومانات .

قلت : -في شوارع الجنوب لا تشاهد هذه الأشياء ، لا أحد هناك يملك سيارة ، لكن الكثيرين لديهم عربات يد وينامون فى أكواخ .

كنت جائعاً بحيث كنت أحس أن قاع بطنى مثقوب ، كان تحت أقدامنا حديقة كبيرة مليئة بالمصابيح الملونة ، وجوها معتدل وشديد الطراوة ومليئة بالورود والأشجار. وفى وسطها بناء ضخم كأنه باقة ورد وعلى بعد عدة أمتار من الطرف الآخر يوجد حمام سباحة كبير ذى مياه صافية وأسماك حمراء ويحيط به مناضد وكراسى وورود وبراعم . وصُف فوق المناضد ما لا يحصى من الأطعمة المختلفة كانت رائحتها تسكر المرء .

قال الجمل : فلننزل العشاء جاهز.

قلت : لكن أين صاحب الحديقة؟

قال الجمل : لا تفكر فيه ، سقط فى السرداب معقود اليدين ونام .

حط الجمل فوق القيشانى الملون على حافة حمام السباحة وقفزت وهبطت . كان الأرنب موجوداً . أخذ يدى واصطحبنى وأجلسنى إلى إحدى المناضد وبعد قليل ظهر الضيوف الدمى بالسيارات ، وعدد منهم بالطائرات الهيلوكبتر، ووصل الحمار يرطع والسلاحف متعلقة بأذيال صغار الجمال والقرود قافزة ومتشقلبة والأرانب مسرعة مسرعة .

كانت ضيافة عجيبة ذات ضجيج ومع أطعمة كانت رائحتها فحسب تجعل اللعاب يسيل فى فم المرء ، الديكه الروميه المحمرة

والدجاج المشوى ، والحملان المشوية ، وأنواع الأرز والخضار المطبوخ المتنوع والعديد والعديد من الأطعمة المتنوعة التى لم أكن أستطيع أن أفهم ما هى . وكل ما يشتهيه قلبك من فاكهة كانت كثيرة ملقاة تحت الأيدى والأقدام .

وقف الجمل على رأس حمام السباحة وأسكت الجميع بإشارة من رأسه وعنقه وقال : - مرحبا بكم جميعا صغارا وكبارا، نزلتم أهلا ، ولكن كنت أريد أن أسألكم من أجل من ولماذا أقمنا مثل هذه الوليمة باهظة التكاليف؟

قال الحمار: - من أجل لطيف ، كنا نريد أن يأكل وجبة محترمة ولاتبقى في قلبه حسرة .

قال الدب من خلف المدفع الرشاش : الخلاصة أن لطيف يأتى كثيرا لرؤيتنا ولذلك نحبه جميعاً .

قال النمر : نعم بالطبع ، كما أنه يرغب فى أن نكون ملكا له ، فنحن أيضاً نشتهى أن نكون ملكا له .

قال الأسد :نعم ، فإن أولاد الأثرياء سرعان ما يملوننا فآباؤهم يشترون لهم يوميا لعب جديدة ، ثم إنهم يلعبون بنا مرة أو مرتين ويملون منا ثم لا يأخذوننا للعب ثانية يهملوننا ونبقى ونتعفن وننتهى .

وتحدثت قائلاً : لو أن كل منكم أصبح ملكا لى ، أعدكم ألا أمل منكم أبد ، دائما ألعب معكم ولا أترككم بمفردكم .

قالت اللعب فى صوت واحد : نعلم ذلك فنحن نعرفك جيداً ، ولكن لانستطيع أن نصبح ملكك، يبيعوننا بسعر غال .

ثم قال أحدهم : لا أظن أن دخل أبيك لمدة شهر يكفى لشراء واحد منا .

أسكت الجمل الجميع مرة أخرى وقال : نعود لأصل الموضوع ، كل كلامكم جميعا ضجيج ، ولكننا أقمنا وليمة الليلة من أجل شئ آخر مهم لم تشيروا إليه .

وتحدثت مرة أخرى قائلا : أنا نفسى أعلم لماذا أتيتم بى إلى هنا !! حتى تقولوا لى أنظر ليس كل الناس مثلك أنت وأبيك ينامون جوعى على طوار الشارع .

كان عدد من الرجال والنساء قد جلسوا حول المناضد ويأكلون بسرعة شديدة وكان من الواضح أنهم خدام المنزل وحشمه . وبدأت أنا أيضا فى الأكل ،وكأن معدتى كانت مثقوبة مهما أكلت لم أصبح شبعا وكانت بطنى تقرقر مثل تلك الأوقات التى أكون فيها جائعا جدا لدرجة أننى فكرت أنها مصيبة أن أكون أحلم ولذلك لا أشبع؟ حككت عينى بيدى، كانتا مفتوحتين تماما . قلت لنفسى:-هل أنا نائم ؟ لا لست بالنائم ، الإنسان الذى ينام لا تكون عيناه مفتوحتين ولا يرى مكانا، إذن لماذا لا أشبع؟ لماذا لا أزال أظن أن بطنى تؤلمنى ؟ والآن بينما كنت أطوف بالبناء وأتحسس جدرانه والأحجار الثمينة فى جداره لا أعلم من أين كان يأتى التراب والغبار ويصطدم مباشرة بوجهى . الآن لابد أنني كنت فى السرداب حيث كنت أظن أن التراب والغبار من ذلك المكان، وعلى أول درجة انحشر التراب والغبار فى أنفى وفمى بحيث غلبنى العطاس .

****

قلت لنفسى ماذا حدث ؟ أين أنا ؟
مكنسة الكناس مرت من أمام وجهى تماماً وألقت التراب والغبار على وجهى .
قلت لنفسى : ماذا حدث ؟ أين أنا ؟ مصيبة أن أكون فى حلم؟
ولكننى لم اكن نائما ، رأيت عربة اليد الخاصة بأبى، وبعدها سمعت جلبة سيارات الأجرة ثم وقعت عيناى على ضوء المصباح الخافت على العمارات حول الميدان .
إذن لم أكن نائما ، كان الكناس قد مر من أمامي ولكنه كان يثير التراب والغبار ويرسم خطوطا على الطوار ويتقدم .
قلت لنفسى : رأيت كل ذلك في النوم ؟ لا ! أجل رأيته فى النوم لا ....؟ لا ....؟ لا ......!!
قال الأب : لست نائما فلماذا تصرخ ؟ اصعد بجانبى.
صعدت ووضع أبى ساعده تحت رأسى لكن النوم لم يغلبنى، كانت بطنى تؤلمنى ، فقد كانت بطنى قد التصقت بلوح ظهرى، ورأى أبى أن النوم لم يغلبنى ، قال : تأخرت الليلة ، أنا أيضاً كنت متعبا فنمت سريعاً .
قلت : - كانت سيارتان قد اصطدمتا ووقفت أتفرج فتأخرت .
ثم قلت : أبى هل يستطيع الجمل أن يتحدث ويطير ؟
قال أبى : لا ، لا يستطيع .
قلت : - نعم ، ليس للجمل جناح .
قال أبى : ماذا بك يا ولدى ؟ عندما تستيقظ كل صباح تتحدث عن الجمل .

قلت بينما كنت أفكر في شئ آخر
- الثراء شئ جيد ، أليس كذلك يا أبى؟ الإنسان يستطيع أن يأكل كل ما يشتهيه وأن يملك ما يشتهيه أليس كذلك يا أبى؟
قال أبى : لا تجحد يا بنى ، الله يعلم جيدا من يجعله غنيا ومن يجعله فقيرا . كان أبى دائما يقول هذا الكلام .
عندما طلع النهار حمل أبى حذاءه من تحت رأسه ولبسه، ثم نزلنا من فوق العربة . قال أبى : - بالأمس لم أستطع تصريف البطاطس فبقى أكثر من نصفها لدى .
قلت : - كنت ترغب فى إحضار صنف آخر.
لم يجب أبى . فتح قفل العجلة وأتى بجوالين مليئين وفرغهما فوق عربة اليد . وأخرجت الميزان والسنج وصففتها ، ثم سرنا .
قال أبى : لنذهب فنتناول حساءً .
كلما كان يقول أبى فى الصباح لنمضى ولنتناول حساء كنت أفهم أنه لم يتناول عشاء .
كان الكناس قد خط خطوطا حتى وسط الشارع ، وأخذنا نمضى نحو منتزه المدينة (بارك شهر) وكان الرجل الشيخ بائع الحساء جالسا كعادته على حافة الجدول ظهره إلى وسط الشارع وقدر الحساء أمامه فوق موقد بفتيله يغلى . وأمامه ثلاثة من زبائنه من الرجال والنساء البائعين الجائلين يأكلون حساءهم من أطباق مصنوعة من الألمونيوم، هم زوجة بائع اليانصيب مثل "زيور" بائع اليانصيب وطراحتها فوق رأسها، كانت قد جلست القرفصاء وقد وضعت مجموعة أوراق اليانصيب بين بطنها وركبتيها وقد سحبت طراحتها القذرة فوق ركبتيها .

وتبادل أبى السؤال عن الصحة مع الرجل الشيخ ، أكل كل منا طبقا صغيرا من الحساء وقمنا . أعطانى والدى قرشين ، وقال : أنا ذاهب لأسرح، فلتأت ظهرا فى نفس المكان لنتناول طعام الغذاء معاً .

* * *

أول من رأيت كان ابن زيور بائع اليانصيب ، اعترض رجلا وأخذ يقول: إشتر ورقة يا سيدى ، إن شاء الله ستكسب ، بالله يا سيدى إشتر.

تملص الرجل من ابن زيور وذهب ، همس ابن زيور ببضع شتائم وكان يوشك على المضى حين ناديته وقلت : لم تستطع خداعه !

قال ابن زيور: كان نكدا ، وكأنه تشاجر مع زوجته .

وذهبنا معا ، كان ابن زيور يعترض الناس بمجموعة من أوراق اليانصيب تبلغ عشرة أو عشرين ورقة ولا يزال يكرر يانصيب ياسيدى؟ يانصيب ياست؟

كان ابن زيور يأخذ من أمه قرشا على كل ورقة يانصيب يبيعها، ولم يكن يبيع بمجرد أن يحصل على نفقاته ، فكان يذهب للعب والنزهة والشجار والسينما . كان أكثرنا نقودا ، وكان من عادته فى أوقات الظهر أن ينزل إلى مجرى ماء (جاف) تحت جسر ويتمدد وينام لساعة أو لساعتين ، كان يستيقظ صباحا قبل طلوع الشمس، فيأخذ من أمه عشرة أو عشرين ورقة يانصيب ويمضى حتى لا يفقد زبائن الصباح وحتى ينهى عمله قبل الظهر. لم يكن يرغب فى أن يهدر فترة ما بعد الظهر عنده أيضاً فى بيع اليانصيب .

وحتى شارع "نادرى" باع ابن زيور ثلاث ورقات ، عندما وصلنا هناك، قال: يجب أن أبقى فى هذه الأنحاء .

كان قليل من المحلات مفتوحة، وكان محل اللعب مغلقا، ولم يكن جملى قد جاء إلى جانب الطوار بعد ، ولم يطاوعنى قلبى أن أدق عليه الباب خشية أن أفسد عليه نومه فى الصباح . مررت وتقدمت وتقدمت ، كانت الشوارع مزدحمة بتلاميذ المدارس . وفى كل عربة تلميذ أو تلميذان ، كانوا قد جلسوا إلى جوار آبائهم وأمهاتهم ذاهبين إلى المدرسة .

هذا الوقت فى النهار كنت أستطيع فقط أن أجد "أحمد حسين" حتى أتخلص من الوحدة . وعبرت ثانية بضع شوارع حتى وصلت إلى شوارع لم يكن فيها ذرة من الدخان أو رائحة القذارة. والصغار والكبار جميعا كانوا يرتدون ثيابا نظيفة كانت وجوههم جميعا تلمع . وكانت البنات والنساء يتلألأن مثل الورود الملونة . وكانت المحلات والمنازل تبدو كالمرايا تحت أشعة الشمس . كنت كلما مررت من هذه الأحياء أتخيل أننى جالس فى السينما أشاهد فيلماً، لم أكن أستطيع أن أفهم أى نوع من الطعام يأكلونه فى منازل بهذا الارتفاع وبهذه النظافة، وكيف ينامون وكيف يتحدثون وكيف يلبسون ، هل تستطيع بينك وبين نفسك أن تفهم كيف كنت تعيش فى بطن أمك؟ وهل تستطيع مثلا أن تجسد أمام عينك كيف كنت تأكل الطعام داخل بطن أمك؟ طبعا لا تستطيع ، أنا أيضا كنت مثلك ، لم أكن أستطيع أصلا أن أفكر فى هذا الموضوع .

وأمام أحد المحلات كان ثلاثة أولاد قد وقفوا والحقائب فى أيديهم يشاهدون الأشياء المعروضة خلف الزجاج ، ووقفت أنا أيضاً خلفهم ، كان عطر جميل يفوح من شعورهم المصففة ودون إرادة تنسمت قفا

أحدهم. والتف الأولاد وتفحصونى ثم ابتعدوا عنى بعبوس واشمئزاز ومضوا، وسمعت من بعيد أحدهم كان يقول : أى رائحة كريهة تفوح منه !

وجدت الفرصة فحسب أن أرى وجهى فى زجاج المحل، كان شعر رأسى طويلا ومشعثا بحيث غطى أذنى، وكأننى كنت قد وضعت قلنسوة ذات شعر فوق رأسى، كان ثوبى المصنوع من الدمور قد تلون بالقذارة والسواد ومن ياقته الممزقة كان يُشاهد بدنى الملفوح، كانت قدمى حافية قذرة وكعباى مشققين، وكنت أرغب من كل قلبى أن أحطم رؤوس أولاد الأعيان هؤلاء.

أكان ذنبهم أننى أعيش بهذا الشكل ؟

وخرج رجل من داخل المحل وبإشارة من يده زجرنى وقال : اذهب ياولد، مازلنا فى الصباح ولم نستفتح بعد لأعطيك شيئاً.

لم أحرك ساكنا كما لم أقل شيئاً. وزجرنى الرجل ثانية بإشارة من يده. وقال : هيا ! غُروانذهب، يا لها من وقاحة.

ولم أتحرك وقلت : لست شحاذا.

قال الرجل : العفو يا سيدى الولد، إذن فماذا تريد ؟

قلت : لا أريد شيئاً، أنا أتفرج.

ومضيت، ودخل الرجل المحل، وكانت قطعة من القيشانى الأبيض تلمع داخل ماء الجدول، ولم أنتظر طويلا حملت قطعة القيشانى وبكل قوة ساعدى طيرتها نحو الواجهة الزجاجية للمحل، وأصدرت الواجهة صوتا وتحطمت، وكأن حملا ثقيلا قد انزاح من فوق صدرى، وحينذاك كأننى أقترضت قدمين فوق قدمى (وهات يا جرى)

وأطلقت ساقى للريح ولا أدرى كم من الشوارع عبرت حين التقيت بـ "أحمد حسين" وفهمت أننى ابتعدت كثيرا عن المحل.
وكان "أحمد حسين" كالعادة يتسكع أمام مدرسة البنات الابتدائية ويتسول من السيارات التى كانت تنزل البنات الصغيرات. وفى الصباح الباكر كان هذا عمل "أحمد جسين". والخلاصة لم أفهم مع من يعيش "أحمد حسين" لكن "قاسم" كان يقول إن "أحمد حسين" له جدة متسولة أيضاً، ولم يكن "أحمد حسين" نفسه يتحدث.
وسرنا عندما دق جرس المدرسة ودخل التلاميذ الفصول، قال "أحمد حسين" : - لم أكسب كثيرا اليوم، الجميع يقولون ليس معنا عملات صغيرة (فكه).
قلت : أين نريد أن نذهب ؟
قال أحمد حسين : نتسكع أيضاً.
قلت : لا يمكن هكذا ، نذهب ونجد "قاسم" ويشرب كل منا كوبا من اللبن المخمر (المخيض).
كان "قاسم" يبيع فى شارع الثلاثين كوب اللبن المخمر بقرش، وكنا كلما ذهبنا لرؤيته يشرب كل منا كوبا من اللبن بالمجان، كان والد "قاسم" يتاجر فى الملابس القديمة فى شارع عبد المحمود، القميص الواحد بخمسة عشر قرشا والزوج من السراويل الداخلية بخمسة وعشرين قرشا والسترة والسروال بسبعين أو ثمانين قرش. وكان محل عمل "قاسم" يلتقى فى انحناءه بشارع الحاج عبد المحمود، وكان باب الشارع وحائطه وأرضه مليئة بالأشياء القديمة والمستهلكة، كان أصحابها يقفون أمامها ينادون الزبائن. كان لوالد "قاسم" حانوت

صغير جدا ، كانوا ينامون فيه أيضاً ثلاثتهم هو زوجته و "قاسم"، لم يكن لهم بيت آخر، وكانت والدة "قاسم" من الصباح حتى الليل تغسل الملابس الممزقة والقذرة التى كان والد "قاسم" يشتريها من هذا وذاك داخل الدكان أو فى جدول شارع الثلاثين ثم ترتقها، كان شارع الحاج عبد المحمود ترابيا وليس به جدول ماء، ولم تكن سيارة تمر فيه قط .

وصلت أنا و "أحمد حسين" بعد ساعة أو ساعتين من المشى إلى محل عمل "قاسم" ولم يكن قاسم هناك . ذهبنا إلى شارع الحاج عبد المحمود ، قال والد "قاسم" : قاسم أخذ أمه إلى المستشفى .كانت دائما تعانى من ألم فى ساقها أو فى معدتها .

* * *

قبيل الظهر كنت أنا و "أحمد حسين" وابن "زيور" جالسين فى شارع "نادرى" على حافة الجدول بجوال الجمل نقزقز اللب ونتناقش بشأن ثمن الجمل ثم قررنا فى النهاية أن ندخل المحل ونسأل البائع .

وقال البائع ظنا منه أننا متسولون ولما ندخل من الباب بعد : أخرجوا ليس معى عملة صغيرة .

قلت : لم نكن نريد نقودا ياسيدى ، بكم تبيعون الجمل ؟

وأشرت بيدى إلى الخارج ، قال صاحب المحل بدهشة : الجمل ؟!

وقال " أحمد حسين " و "قاسم" من خلفى : نعم بالطبع ، بكم تبيعونه؟

قال صاحب المحل : أخرجوا يا شطار ليس الجمل للبيع .

وخرجنا من المحل محبطين، وكأنه لو كان للبيع كان لدينا هذا القدر

من النقود بحيث ندفعها ونأخذ بزمام الجمل ونسحبه، كان الجمل واقفا ثابتا فى مكانه ، كنا نظن أنه يستطيع أن يُركبنا ثلاثتنا ولايحس بالتعب مثقال ذرة . كانت يد "أحمد حسين" تصل بصعوبة إلى بطن الجمل وكان ابن زيور يريد أيضاً أن يختبر يده إذ خرج البائع وأمسك بأذن "قاسم" وقال : - ألم تر أنه مكتوب عليه ممنوع اللمس ؟!

وأشار بيده إلى قطعة من الورق كانت مشبوكة بدبوس على صدر الجمل وكان مكتوبا عليها شئ . ولكن أحداً منا لم يفهم شيئاً ، وابتعدنا عن ذلك المكان وبدأنا فى قزقزة اللب والمشى . وبعد قليل قال ابن زيور إن النوم يغلبه، ووجد مكانا خاليا وذهب إلى جدول الماء تحت جسر ونام . قلت أنا و"أحمد حسين" لنذهب إلى منتزه المدينة "بارك شهر". كان الجو حارا خانقا . كنا قد عرقنا عرقا لايوصف ، لم يكن أحدنا يتحدث ، كنت أشتهى أن أكون عند أمى فى الحال، كنت أحس بالغربة بشكل فظيع .

على باب "بارك شهر" دفع "أحمد حسين" قرشين واشترى سندوتش بيض وتركه حتى اقضم منه قضمة . ثم ذهبنا إلى المكان المعتاد داخل الجدول لنستحم ، وكان عدد آخر من الأطفال على بعد منا أيضاً يستحمون ويرشون وجوه بعضهم البعض ورؤوسهم بالماء، وتمددنا أنا و"أحمد حسين" فى الماء ساكتين وغسلنا رأسينا وجسدنا ولم يكن لنا شأن بهم. وجاء حارس الحديقة بجلبة نحونا وفررنا جميعا، ومضينا وجلسنا فى ضوء الشمس فوق الرمل، وكنت أشكل أنا و"أحمد حسين" بالرمل جملاً. سمعت صوت أبى فوق رؤوسنا ،

تركنا "أحمد حسين" ومضى وذهبت أنا وأبى إلى حانوت بائع كبده وتغذينا ، رأى ابى أننى لا أتكلم وغارق فى الفكر فقال : لطيف ، ماذا حدث؟ ألست بخير؟

قلت : لا شئ .

ذهبنا وتمددنا تحت أشجار "بارك شهر" لننام ، رأى أبى أننى أتقلب من هذا الجنب إلى ذاك الجنب ولا أستطيع النوم. قال : يا لطيف ، هل تشاجرت؟ هل قال لك أحد شيئاً ؟ الخلاصة قل لى ماذا حدث . لم يكن عندى فى الأصل استعداد للحديث . كنت استعذب إحساس الألم دون كلام . كنت اشتهى أن أسمع الأن صوت أمى وأشم رائحتها واحتضنها وأقبلها . ومرة واحدة أجهشت بالبكاء وخبأت رأسى فى صدر أبى ، ونهض أبى وجلس واحتضننى وتركنى أبكى كما أشتهى ، لكنى لم أقل شيئا لأبى ثانية ، قلت فحسب أننى أشتهى أن أكون مع أمى ثم غلبنى النوم. وحين فتحت عينى رأيت أبى جالساً إلى رأسى وقد ضم ركبتيه وينظر إلى الناس، فأمسكت بقدمه وهززتها وقلت : أبى !

نظر أبى إلى وربت على شعرى بيديه وقال : استيقظت يا حبيبى؟

هززت رأسى علامة الموافقة .

قال أبى : سوف نعود غدا إلى بلدتنا ، نذهب عند أمك ، إذا تيسر عمل نقوم به هناك ونأكل لقمتنا وإن لم يتيسر، لا تيسر، مهما يكن فأفضل مما نحن فيه من أن نبقى هنا مشردين يتامى، ليكن هذا أيضاً هناك .

فى الطريق ، من الحديقة إلى الموقف لم أكن أدرى هل أنا سعيد أو لا،

لم يكن قلبى يطاوعنى أن ابتعد عن الجمل، ولو كنت استطيع لأخذته معى، ولم أشعر بعدها بحزن قط .

ذهبنا واشترينا تذكرة السفر، ثم سرنا ثانية فى الشوارع، كان أبى يريد أن يبيع عربة اليد الخاصة به حتى العصر بأى شكل من الأشكال، وكنت أرغب أن أرى الجمل وأشبع منه مرة أخرى، واتفقنا أن نلتقى ليلاً بالقرب من الموقف وننام ، لم يكن أبى يريد أن يتركنى وحدى ولكنى قلت له أننى أريد أن أذهب فأتنزه قليلاً ربما يستريح قلبى .

* * *

كان الوقت قبيل الغروب، لا أدرى كم ساعة كنت قدقضيتها واقفا أشاهد الجمل . عندما رأيت سيارة مكشوفة تصل من الطريق وقفت بالقرب منى ومن الجمل ، وكان هناك رجل وطفلة نضرة ونظيفة جالسين داخل السيارة ، كانت عين البنت قد تركزت على الجمل وتضحك وهى سعيدة وحدثنى قلبى أنهما يريدان شراء الجمل وأخذه إلى منزلهما، وأمسكت البنت بيد أبيها تجره خارج السيارة وتقول سريعاً يا بابا ربما يأتى أحد آخر ويشتريه .

كان الأب والبنت يريدان دخول المحل عندما أبصرانى أقف أمامهما وأسد الطريق، لا أدرى أية حالة انتابتنى هل كنت خائفاً ؟ هل كان البكاء يغلبنى؟ هل كنت حزيناً لشئ ما ؟ لست أدرى أية حالة انتابتنى ، كل ما أدريه أننى وقفت أمام الأب والبنت وأخذت أقول بشكل رتيب ، سيدى ليس الجمل للبيع ، لقد قال لى هو نفسه فى الصباح صدقنى ليس للبيع .

وانتحى الرجل جانباً بشدة وقال : لماذا سددت الطريق يا ولد ، تنح جانباً .

ودخل كلاهما الحانوت وبدأ الرجل الحديث مع صاحب المحل وكانت البنت لا تفتأ تعود وتنظر إلى الجمل . كانت فى حالة سعيدة بحيث يظن المرء أنها لم تشعر طوال حياتها بذرة من الحزن ، وأنا كأن لسانى كان قد عقد ، وقدماى تسمرتا وكنت واقفاً إلى الباب أمسح بنظرى داخل المحل القردة وصغار الجمال والدببة والأرانب، والآخرون أخذوا ينظرون إلى، وكنت أظن أن قلوبهم تحترق من أجلى .

أراد الأب والبنت أن يخرجا من المحل، ومد الأب يده بعملة من فئة القرشين إلى فوضعت يديى خلف ظهرى ونظرت إلى وجهه ، لاأدرى بأى بشكل نظرت الىوجهه بحيث وضع القرشين سريعاً فى جيبه ومر. وفى ذلك الوقت أبعدنى صاحب المحل عن الباب وخرج إثنان من عمال المحل وذهبنا نحو الجمل، وكانت البنت قد ذهبت وجلست فى السيارة وهى تنظر إلى الجمل وتداعبه بعينيها وحاجبيها، وعندما رفع العاملان الجمل من الأرض أسرعت دون إرادة متقدماًوأمسكت بقدم الجمل وصرخت، الجمل ملكى ، إلى أين تحملونه؟ أنا لا أسمح .

قال أحد العمال : تنح جانباً أيها الولد، هل جننت ؟!

وسأل والد البنت صاحب الحانوت : هل هو شحاذ ؟

وكان الناس قد تجمعوا للمشاهدة ولم أكن لأترك قدم الجمل، وفى النهاية أضطر العمال إلى ترك الجمل على الأرض ليبعدونى بالقوة، وسمعت صوت البنت من السيارة تقول لأبيها:بابا لا تتركه ثانية يلمسه .

وذهب الأب وجلس إلى عجلة القيادة ووضعوا الجمل خلف الأب والبنت وأوشكت السيارة على الحركة عندما خلصت نفسي وأسرعت نحو السيارة وألصقت كلتا يدي بالسيارة وصرخت إلى أين تحملون جملي ؟! أريد جملي .

وأظن أن أحدا لم يسمع صوتي، وكأنني كنت قد صرت أخرس، ولم يكن صوتي يخرج من حلقي، وكنت أظن فقط أنني أصرخ، وتحركت السيارة وجذبني أحدهم من ظهري، وانتزعت يداي من السيارة، وسقطت على وجهي فوق أسفلت الشارع، ورفعت رأسي، ورأيت جملي لآخر مرة يبكي ويهز جرس رقبته بغضب .

وسقط وجهي فوق الدم الذي كان قد نزف من أنفي، وضربت الأرض بقدمي وأجهشت بالبكاء . كنت أتمنى أن يكون المدفع الرشاش الموجود خلف الزجاج ملكا لي .

١٢ - السمكة السوداء الصغيرة

كـانت ليلـة في منتصـف الصيـف ، عندمـا جمعـت السـمكة العجوز في قـاع البحـر حولها إثنى عشـر ألفـا مـن صغارهـا وأحفادهـا لتقص عليهم قصة ، وأخذت تقـــول :

كان يا ما كان ، كانت هناك سمكة صغيرة سوداء تعيش مع أمها في أحد الجداول . كـان الجـدول ينبـع مـن الجـدران الصخريـة للجبـل وينساب في قـاع الـوادى . وكـان بيـت السمكة الصغيرة وأمهـا خلـف صخرة سوداء ، أسفل سقف من الطحالب ، وكانا ينامان ليلا أسفل الطحالب . كانت قد بقيت في قلب السمكة الصغيرة أمنية غالية هي أن ترى ضوء القمر مرة ثانية في بيتها كما حدث من قبل .

ومـن الصبـاح إلى المسـاء ، كـانت الأم وابنتهـا كـل في أثـر الأخـرى يمضيان مسرعين إلى مواضع ما ثم تعودان ، وأحيانا كانتا تختلطان بالأسماك الأخرى . كانت السمكة وحيدتها ، هي الوحيدة التي نجت من بين عشرة آلاف بيضة كانت الأم قد وضعتها .

كانت السمكة الصغيرة قد استغرقت في التفكير منذ عدة أيام وقد قل حديثها بشكل ملحـوظ ، وأخـذت تمضي بتكاسـل وبـلا حمـاس مـن موضع إلى لآخر ثم تعود ، كما كانت تتخلف عن أمها معظم الوقت . وكـانت الأم تظـن أن طفلتهـا متوعكـة ، وسرعان مـا تشـفى . لكـن - ولانطيل عليكم - فقد كان إنشغال السمكة السوداء بسبب شيء آخر. وذات يـوم في الصبـاح البـاكر، وقبـل أن تشـرق الشـمس ، أيقظـت السمكة الصغيرة أمها وقالت : يا أمي ، أريد أن أتحدث معك قليلا .

قـالت الأم وهـي ناعسـة : وهـل هـذا وقتـه يـا ابنتـى العزيـزة ؟ أجلـى الكلام إلى وقت لاحق ، أليس من الأفضل أن نذهب للنزهة ؟

قالت السمكة الصغيرة : لا يا أمي ، لم أعد أستطيع النزهة ، لا بد أن أذهب من هنا. قالت الأم :

- أمن المؤكد أنك يجب أن تذهبى ؟ قالت السمكة الصغيرة :

- نعم يا أمى ، يجب أن أذهب . قالت أمها :

- إلى أين تريدين الذهاب في هذا الوقت المبكـر؟

قالت السمكة السوداء الصغيرة :

- أريد أن أذهب لأكتشف نهاية الجدول ، تعلمين يا أمي أنني ومنذ عدة شهور وأنا مستغرقة في التفكير إلى أين ينتهي الجدول ، وإلى الآن لم أفهم شيئا ، ومنذ ليلة الأمس وحتى الآن ، لم تغمض لي عين ، وأفكر في هذا الأمر، الخلاصة لقد صممت على الذهاب بنفسي لأكتشف نهاية الجدول ، فضلا عن أن قلبي يشتاق إلى معرفة ما يحدث في الأماكن الأخرى .

ضحكت الأم وقالت : عندما كنت صغيرة ، كانت تنتابني كثيرا مثل هذه الأفكار. في النهاية يا عزيزتي الجدول لا بداية له ولا نهاية ، فهو كما هو، دائما ينساب ولا يصل إلى مكان قط .

قالت السمكة السوداء الصغيرة : أليس لكل شيء نهاية ؟ الليل والنهار ينتهيان ، وأيضا الأسبوع والشهر والسنة .....

وأثناء حديثها قاطعتها أمها قائلة :

- دعك من هذه الكلمات الكبيرة ، وانهضي لنذهب للتجوال ، فالآن وقته ، وليس وقت مثل هذه الكلمات .

قالت السمكة السوداء الصغيرة : - لا يا أمي ، لقد سئمت من هذه النزهات ، أريد أن أمضي وأذهب لأرى أماكن أخرى وما يحدث

فيها. ومن المحتمل أن تظنى أن هذا الكلام قد لقنه أحد للسمكة الصغيرة . لكن إعلمي أنني من تلقاء نفسي أفكر في هذا منذ فترة طويلة. ولا شك أنني تعلمت أشياء كثيرة من هنا وهناك ، وفهمت مثلا أن أغلب الأسماك العجوز قد ضيعت حياتها بلا طائل وبلا إرادة ، ودائما تئن وتلعن وتشكو من الجميع ، وأريد أن أعلم حقا وصدقا: هل تعني الحياة أن تذهبى إلى مكان ما ثم تعودى إلى أن تصيبك الشيخوخة ، ولا شيء سوى ذلك أو أنه يمكن العيش في الدنيا بشكل آخـــر ؟

عندما انتهى كلام السمكة الصغيرة ، قالت أمها :

- يا ابنتى العزيزة ، هل فقدت رشدك ؟ الدنيا .. الدنيا ؟! عالم آخر يعنى ماذا ؟ الدنيا هي هذا المكان الذى نوجد فيه ، والحياة هي مانعيشها .

في هذا الوقت ، اقتربت سمكة كبيرة من منزلهم وقالت :

- أيتها الجارة ، لأى سبب تدخلين في نقار مع ابنتك ؟ كأنكم لا تفكرون اليوم في النزهة ؟

خرجت السمكة الأم على صوت جارتها من البيت وقالت :

-عجبا على هذا الزمن ، الآن يريون الأبناء أن يعلموا أمهاتهم أشيــاء!!

قالت الجارة : - كيف ذلك ؟

قالت السمكة الأم : أنظرى هذه النصف شبر.. إلى أين تريد أن تذهب ، دائما تقوال أنها تريد أن تذهب لترى ما يحدث في الدنيا .. يالها من كلمات كبيرة !!

قالت الجارة : يا صغيرتي .. منذ متى أصبحت فيلسوفة وعالمة ولم تخبرينا ؟

قالت السمكة الصغيرة : أيتها السيدة ، لا أعلم لمن تقولين عالمة وفيلسوفة ، أنا قد سئمت فحسب من هذا التجوال ، ولا أريد أن أواصل هذه النزهات التي لا طائل من ورائها ، وأسعد سعادة واهية ، وأفتح عيني فجأة لأجد أن الشيخوخة قد لحقتني مثلكم، ولا زلت نفس السمكة مغمضة العين والأذن التي كنتها ..

قالت الجارة : آه .... يا لها من كلمات !!

قالت أمها : لم أكن أعتقد أن طفلتي الوحيدة تفاجئني بأن تكون هكذا ، لا أعلم أى شرير سمم أفكار طفلتى المدللة .

قالت السمكة الصغيرة : لا أحد يحرضني ، فأنا لي عقل ، وفهم ، ولي عينان أرى بهما .

قالت الجارة لأم السمكة الصغيرة : أختاه ، أتتذكرين ذلك الحلزون المتلوى ؟

قالت الأم : نعم ، حسنا ما قلت ، فهو يلازم ابنتي كثيرا ، وأنا أقول يا إلهي ماذا بينه وبينها ..

قالت السمكة الصغيرة : كفى يا أمي ، كان صديقي .

قالت الأم : لم نكن قد سمعنا قط عن صداقة بين سمكة وحلزون .

قالت السمكة الصغيرة : وأنا أيضا لم أكن قد سمعت قط عن عداوة بين سمكة وحلزون ، ولكنكم طردتم ذلك المسكين .

قالت الجارة : هذا كلام قديم .

قالت السمكة الصغيرة : أنت نفسك التي طرحت هذا الكلام القديم .

قالت أمها : كان من الواجب قتله .. هل نسيت أى كلام كان يقوله عندما كان يجلس هنا وهناك ؟
قالت السمكة الصغيرة : أقتلوني أنا أيضــا ، لأنني أقول نفس الكلام. مــالي أصدعكم .. لقد أدى صوت الحـوار بينهـم إلى تجمـع الأسمــاك الأخرى ، وكان كلام السمكة الصغيرة قد أغضب الجميع .
قالت إحدى السمكات العجائز : أتظنين أننا سوف نرحمك ؟
قالت أخرى : إنها فقط في حاجة إلى تأديب بسيط .
قالت أم السمكة السوداء : ابتعدوا ، لا تلمسوا طفلتي .
قالت سمكة منهم : يا سيدتي ، ما دمت لا تربين طفلتك كما ينبغي ، فيجب أن ترى عاقبة ذلك .
قالت الجارة : إنني أحس بالخجل أنني أعيش إلى جوارك .
قالت أخرى : حتى لا يتطور أمرها إلى مالا يحمد عقباه ، نرسلها إلى الحلزون العجوز.
عندما اقتربت الأسماك لتمسك بالسمكة الصغيرة السوداء ، التفت صديقاتها حولها وأخرجنها من الحلقة ، وأخذت أم السمكة السوداء تلطم رأسها ووجهها وتبكي وتقول:
-وامصيبتـاه .. ماذا أفعل ، ابنتي تضيع من يدى .. أيـة مصيبـة تحل برأسي.
قالت السمكة الصغيرة : لا تبكي يا أمي من أجلي ، بل ابك من أجل تلك الأسماك العجوز المسكينة .
صاحت إحدى الأسماك من بعيد قائلة : لا تشتمي يا نصف الشبر.
قالت أخرى :إذاذهبت ثم ندمت،فلن نسمح لك بالعودة.

قالت ثالثة: هذا هوجنون الشباب،لاتذهبي.

قالت رابعة: ماعيب هذا المكـــان؟

قالت خامســة: ليس هناك عالم آخر، العالم هو ما نحن فيه ، عودي.

قالت سادسة: إذا عاد عقلك وعدت،نصدق آنذاك أنك حقا سمكة عاقلة.

قالت سابعة: لقداعتدنافي الحقيقة على رؤيتك .

قالت لأمها : إرحميني ، لا تذهبي... لا تذهبي.

لم يكن لدى السمكة الصغيرة ما تقوله لهم، ورافقها بعض صديقاتها اللائي في عمرها حتى الشلال، وعدن .

عندما افترقت السمكة الصغيرة عنهن قالت :صديقاتي ، أتمنى أن أراكن ثانية ، لا تنسونـــي .

قالت صديقاتها :كيف ننساك وأنت قد أيقظتينا من نوم الغفلة ، وعلمتينا أشياء لم يكن لدينا حتى الحق في أن نفكر فيها ، لنراك دائما بخير أيتها الصديقة الجريئة الشجاعة.

هبطت السمكة الصغيرة من الشلال وسقطت في بركة مليئة بالمياه ، في البداية فقدت توازنها . لكنها بعد ذلك بدأت في السباحة والتجوال في البركة ،حتى ذلك الوقت لم تكن قد رأت مثل تلك الكمية من الماء متجمعة في مكان واحد ، وكانت آلاف من صغار الضفادع تتحرك كيفما اتفق في المـاء ، وما إن رأت السمكة الصغيرة السوداء حتى سخرت منها وقالت – أنظروا إلى هيئتها !! أى نوع من المخلوقات أنت ؟

وتفحصتهم السمكة جيدا ، وقالت :

- أرجوكم لا تهينوني ، إسمي السمكة الصغيرة السوداء ، فماذا تسمون ؟ قولوا لكي نتعارف .
قال أحد صغار الضفادع : ينادى كل منا الآخر ابو زنيمة ..
قال آخر : نحن أصحاب الأصالة والشرف .
قال آخر : ولا يوجد في الدنيا من هو أجمل منا .
قال آخر : نحن لسنا مثلك قبحاء ولا شكل لنا .
قالت السمكة : لم أتخيل قط أنكم على هذه الدرجة من الغرور.. ليكن ، فأنا أسامحكم، فأنتم تتحدثون بهذه الكلمات جهلا .
صاح صغار الضفادع في صوت واحد : يعنى نحن جهلاء .. نحن جهلاء؟
قالت السمكة : إن لم تكونوا جهلاء ، لعلمتم أنه يوجد في الدنيا آخرون كثيرون ، أشكالهم تعجبهم ، وأنتم حتى أسماؤكم ليست ملكا لكم .
غضب صغار الضفادع بشدة ، لكنهم عندما رأوا أن السمكة الصغيرة تقول الحق ، دخاوا من باب آخر ، وقالوا :
- إنك في الحقيقة تجاهدين بلا طائل ، فنحن يوميا نتجول من الصباح حتى المساء
في الدنيا ، ولكننا لا نرى سوى أنفسنا وآباءنا وأمهاتنا وبعض الديدان الضئيلة والتي لا تعد في الحسبان .
قالت السمكة : أنتم لا تستطيعون الخروج من البركة ، فكيف تتحدثون عن الطواف بالدنيا ؟
قالت صغار الضفادع : هل هناك عالم آخر غير البركة ؟

قـالت السمكة : ينبغي أن تفكروا على الأقل من أين يأتي هـذا الماء ويصب هنا ، وماذا يوجد خارج هذا الماء .

قالت صغار الضفادع : أي مكان تعنين بخارج الماء ؟ على كل حال ، نحن لم نرقط خارج الماء . وأخذوا يقهقهون .. ها ها .. معتوهة أنت يا أختاه .. وضحكت السمكة السوداء الصغيرة أيضـا ، وفكرت أنه من الأفضل أن تترك صغار الضفادع لحالها ، وتذهب ، ثم فكرت أنه من الأفضل أن تتحدث بكلمتين إلى أمهم ، فسألتم قائلـة :

– والآن ، أين أمكم ؟

وفجـأة جعلها صوت غليظ لضفدعـة تقفـز مـن مكانهـا . كـانت الضفدعة الأم قدجلست على حجر عندحافة البركة ، فقفزت في الماء ، وتقدمت من السمكة وقالت :

– أنا هنا ، أي خدمة ؟ قالت السمكة الصغيرة :

– سلاما أيتها السيدة الكبيـرة . قالت الضفدعة الأم :

– يا له من موضع للتعالم ، مخلوقة عديمة الأصل سيئة النسب ، قمت بصيد الأولاد ولا تزالين تتحدثين إليهم بكلام كبيـر، وقد عشت عمرا يكفيني لكى أعلم أن الدنيا هي البركة فحسب . من الأفضل أن تذهبي إلى عملك ، ولا تفسدي أطفالي .

قالت السمكة الصغيرة : إن عشت مائة ضعف هذا العمر ، ستظلين ضفدعة جاهلة عاجزة ليس أكثـر.

غضبت الضفدعة ، وقفزت نحو السمكة السوداء الصغيرة ، فتحركت السمكة حركة سريعة ومرقت مثل البرق ، وأصابت الطمي والطين والديدان في قاع البركة بالإضطراب .

كان الوادى مليئا بالتعاريج والانحناءات ، كما تضاعف ماء الجدول، لكن إذا أردت أن تنظر من فوق الجبال إلى قاع الوادى لرأيت الجدول مثل خيط أبيض . كانت قطعة كبيرة من الصخر قد انفصلت عن الجبل وسقطت في قاع الوادى وقسمت الماء إلى قسمين . وكانت سحلية ضخمة بحجم كف اليد قد ألصقت بطنها بالصخرة ، وكانت مستمتعة بحرارة الشمس وتنظر إلى سرطان مستدير وضخم ، قد قبع في قاع الماء فوق الرمال حيث كان عمق الماء أقل ، وانهمك في إلتهام ضفدعة كان قد صادها .

وقعت عين السمكة الصغيرة فجأة على السرطان فخافت ، وسلمت عليه من بعيد ، ونظر إليها السرطان بازدراء شديد ، وقال :

- يا لك من سمكة مؤدبة ، تقدمي يا صغيرة ، تقدمي .

قالت السمكة الصغيرة : أنا ذاهبة لأتجول في الدنيا ، كما أني لاأريد أبدا أن أصبح صيدا لسعادتكم .

قال السرطان : لماذا أنت خائفة ومتشائمة إلى هذا الحد أيتها السمكة الصغيرة ؟

قالت السمكة الصغيرة : أنا لا خائفة ولا متشائمة ، لكن لسانى يتحدث بما يمليه عليه عقلي وما أراه بعيني .

قال السرطان : حسنا ، تفضلي لأر ماذا رأت عينك وماذا قال عقلك حتى تعتقدى أنني أريد أن أصيدك ..

قالت السمكة : لا تحاول تنفيذ ما في نيتك ..

قال السرطان : تقصدين الضفدع ؟ أنت طفلة تماما يا عزيزتي ، فبيني وبين الضفادع خصومة ، ولذا أصيدها ، تعلمين أنهم يظنون

أنهم المخلوقات الوحيدة في الدنيا ، وهم سعداء بهذا ، وأنا أريد أن أفهمهم أن الدنيا في الواقع في يد من ، فلا تخافي ثانية يا عزيزتي ، تقدمي ، تعالي ...قال السرطان هذا وأخذ يقترب من السمكة الصغيرة متسللا ، كان يمشي بطريقة مضحكة مما جعل السمكة تضحك بالرغم منها ، وقالت :

- أيها المسكين ، إنك حتى الآن لا تعرف كيف تمشي ، من أين لك أن تعلم في يد من تكون الدنيا ؟!

ابتعدت السمكة السوداء عن السرطان ، ووقع ظل على الماء ، وفجأة جاءت ضربة محكمة أسقطت السرطان في الرمال ، وأخذت السحلية تضحك بشدة من شكل السرطان بحيث انزلقت قدمها وأوشكت على السقوط في الماء . ولم يستطع السرطان الخروج ثانية . رأت السمكة الصغيرة راعيا صبيا كان واقفا على حافة الماء ، وكان ينظر إليها وإلى السرطان ، وكان قطيع من الخراف والماعز قد اقترب من الماء ، وقد مدت أفواهها ، ملأ صوت الثغاء الوادى .

انتظرت السمكة الصغيرة السوداء طويلا حتى انتهى القطيع من الشرب وذهب . وحينذاك نادت على السحلية وقالت :

- أيتها السحلية ، أنا السمكة الصغيرة السوداء ، ذاهبة لأكتشف نهاية الجدول ، وأظن أنك مخلوقة عاقلة وحكيمة ، لذلك أريد أن أسألك عن شيء ما ..

قالت السحلية : سلي عما تشاءين .

قالت السمكة : لقد خوفوني كثيرا في طريقي من البجعة وسمكة

المنشــار وطائر النورس ، إذا كنت تعرفين شيئــا عنهم فأخبرينــي .
قـالت السـحلية : سمكـة المنشـار وطـائر النـورس لا يظهـران في هـذه الأنحـاء ، وبخاصة أن سمكـة المنشــار تعيـش في البحـر ، ولكـن مـن الممكن أن يكون البجع هنا ، فلا تنخدعي به ، فتقعين في كيســه .
قالت السمكة : أي كيس ؟
قـالت السحلية : للبجعـة كيـس تحـت رقبتهـا يسـع كثيرا مـن المـاء ، وأحيانـا وهي تسبح في المـاء تدخل الأسماك كيسها دون إرادة منهـا ، ومن ثم تذهب إلى بطنها مباشــرةً ، ومما لاشك فيه أن البجعة عندما لا تكـون جائعـة ، تدخــر الأسمـاك في نفـس الكيـس لتأكلـه في وقـت آخــر .
قالت السمكة: أما وقد دخلت سمكة الكيس،ألا سبيل لها إلى الخروج؟
قـالت السحلية : لا سـبيل لهـا إلا أن تمـزق الكيـس . سـوف أعطيـك خنجرا ، فإن سقطت أسيرة للبجعة ، تقومين بهذا العمل
ثم زحفت السحلية داخل شق في صخرة وعـادت بخنجر صغير جدا .
أخذت السمكة الصغيرة الخنجر وقالت
- أيتهـا السحلية العزيزة ، أنت عطوفة جدا ، لا أعلم كيف أشكرك .
قـالت السـحلية : لا لـزوم للشكر يـا عزيزتي ، فأنـا لدى الكثير من هـذه الخنـاجر ، عندما لا يكون لدى ما أفعله ، أجلس وأصنـع الخنـاجر من نصال النباتـات ، وأعطيهـا للأسمـاك الحكيمة مثلك .
قالت السمكة : وهل مرت سمكة قبلي من هنــا ؟
قـالت السحليـــة : مـر الكثـيرون ، وهـم الآن قـد شـكلوا جماعـة مـن أنفسهم ، ويسببون الضيق للصيـاد .

قالت السمكة السوداء : فلتسمحي لي فالكلام يجر بعضه ، إن لم تعتبري قولي هذا فضولا ، أخبريني كيف سببت الضيق للصياد ؟
قالت السحلية : الخلاصة أنهم متحدون ، ما إن يرمي الصياد شبكته ، فإنهم يدخلون الشبكة معا ويسحبونها ويحملونها معهم إلى قاع البحر .
وضعت السحلية أذنها على شق في صخرة وأصغت ثم قالت :
- عن إذنك ، فأطفالي قد استيقظوا .
ذهبت السحلية داخل شق الصخرة ، ولم يكن في وسع السمكة السوداء إلا الرحيل ، لكنها أخذت تسأل نفسها السؤال تلو السؤال : لأرى حقا هل يصب الجدول في البحر؟ مصيبة أن تتمكن البجعة مني !! أحقا يطاوع سمكة المنشار قلبها وتأكل من هم من جنسها؟! أي عداء لطيور النورس معنا ؟
ظلت السمكة الصغيرة في سيرها سابحة تفكر، كانت ترى في كل شبر تخطوه جديدا وتتعلم ، وهي الآن سعيدة لأنها راحت تتشقلب هابطة من مياه الشلال ، ثم تعاود السباحة ، وكانت تحس بحرارة الشمس فوق ظهرها ، فكانت تستمد منها القوة . وفجأة شاهدت غزالا يعب الماء بسرعة فحيته السمكة الصغيرة وقالت له :
- أيها الغزال الجميل ، لم هذه العجلة ؟
أجاب الغزال:الصياد يطاردني ،وقد أطلق علي رصاصة ، هذا أثرها ..
لم تر السمكة الصغيرة مكان الرصاصة ، لكنها فهمت من جرى الغزال وهو يعرج أنه صادق . وفي موضع ما كانت السلاحف تغفو تحت حرارة الشمس، وفي موضع آخر كان هديل القطا يرن في الوادي.

وكان شذى الأعشاب الجبلية يتموج في الهواء ويمتزج بالماء .
وبعد الظهر وصلت إلى مكان كان الوادى يتسع فيه . وكانت المياه تمر وسط غابة، وكانت المياه كثيره جدا، وكانت السمكة السوداء حقا سعيدة بهذا . ثم التقت أيضا بأسماك كثيرة ومنذ ان كانت قد تركت أمها لم تكن قد رأت سمكة ، والتفت عدة سمكات صغيرة حولها وقالت : يبدو أنك غريبة ها ؟
قالت السمكة السوداء : نعم ، فانا غريبة ، جئت من مكان بعيد .
قالت الأسماك الصغيرة : أين تريدى أن تذهبى ؟
قالت السمكة السوداء : أريد أن أذهب لاكتشف نهاية الجدول .
قالت الأسماك الصغيرة : أى جدول ؟
قالت السمكة الصغيرة : هو نفس الجدول الذى نسبح فيه .
قالت الأسماك الصغيرة : نحن نطلق على هذا نهر.
لم تقل السمكة السوداء شيئا . وقالت احدى السمكات الصغيرات :
ألا تعلمين أن البجعة على رأس الطريق ؟
قالت السمكة السوداء : نعم أعلم .
قالت أخرى : وهل تعلمين أيضا أن للبجعة كيسا واسعا ؟
قالت السمكة السوداء : نعم أعلم ذلك أيضا .
قالت سمكة صغيرة : مع كل هذا ومازلت تريدين الذهاب ؟
قالت السمكة السوداء : نعم ، مهما يكن من أمر، لابد أن أذهب .
وسرعان ما انتشر بين الأسماك خبر السمكة السوداء الصغيرة التى كانت قد جاءت من بعيد وتريد أن تذهب لتكتشف نهاية النهر. ولاتخشي أيضا من البجعة مطلقا . خطر لبعض السمكات الصغيرات

الذهاب معها ولكن لم تنبس خوفا من الكبار. وقال بعضهم : " لولم تكن البجعة هناك لاتينا معك ولكننا نخشى كيسها " .

كان هناك قرية على ضفة النهر، وكانت نساء القرية وفتياتها يغسلن ملابسهن ومواعينهن راحت السمكة الصغيرة تنصت إلى ضجيجهن لفترة، وشاهدت أيضا أطفالهم وهم يستحمون لفترة ثم ذهبت . وأخذت تسير وتسير حتى حل الليل، وأوت إلى أسفل صخرة ونامت، واستيقظت فى منتصف الليل فرأت أن ضوء القمر سقط فى الماء وأضاء كل مكان .

كانت السمكة الصغيرة السوداء تحب القمر كثيرا . ففى الليالى التى كان ينعكس القمر فيها على الماء، كانت السمكة تحب أن تخرج من أسفل الطحالب وتتحدث معه ببضع كلمات . ولكن كل مرة كانت أمها تستيقظ وتسحبها تحت الطحالب وتنيمها مرة أخرى .

تقدمت السمكة الصغيرة من القمر وقالت : " سلاما ياقمرى الجميل"

قال القمر : سلاما ، ايتها السمكة الصغيرة السوداء . أين أنت من هذا المكان ؟

قالت السمكة : أطوف حول العالم .

قال القمر : العالم كبير جدا وأنت لايمكنك الطواف فيه كله .

قالت السمكة : ليكن ، سأذهب إلى حيث أستطيع .

قال القمر : أريد أن أبقى أمامك حتى الصباح ، ولكن هناك سحابة سوداء كبيرة تتجه صوبى وسوف تحجب ضوئى .

قالت السمكة : أيها القمر الجميل ، أنا أحب ضوءك كثيرا ، وأريده أن يشع على دائما .

قال القمر : أيتها السمكة العزيزة ، فى الحقيقة أنا لاأملك ضوءا ، فالشمس تعطينى الضوء ، وأنا بدورى أعكسه على الأرض . حقا ألم تسمعى قط أن البشر فى خلال بضع سنوات قادمة قد يطيروا ويحطوا على سطحى .

قالت السمكة : هذا غير ممكن .

قال القمر:إنه عمل صعب للغاية،ولكن البشر كل مايرغبون فيه ..... .

لم يستطع القمر ان يتم كلامه لأن سحابة السوداء وصلت وغطت وجهه . وأظلم الليل مرة أخرى . وظلت السمكة السوداء بمفردها تماما ولبضع دقائق حدقت فى الظلمه وهى مبهوته ومتحيرة ثم زحفت أسفل الصخرة ونامت .

استيقظت مبكرة ، فرأت أعلى رأسها عدة سمكات صغيرات كن يتحدثن مع بعضهن همسا وما أن رأين السمكة السوداء تستيقظ حتى صحن معا قائلات :

صباح الخير.

وسرعان ماعرفتهم السمكة السوداء وقالت : صباح الخير، فى النهاية تبعتمونى ....

قالت إحداهن : نعم ، ولكن الآن لم ينته خوفنا .

قالت أخرى : التفكير فى البجعة يؤرقنا .

قالت السمكة السوداء: أنتم تفكرون كثيرا . لاينبغى أن تفكروا طوال الوقت، بمجرد أن نبدأ السير يزول خوفنا تماما .

ولكن عندما أرادوا السير رأوا أن الماء من حولهم إرتفع ووضع غطاءا فوق رؤوسهن وأصبح المكان مظلما تماما ولامجال للهرب أيضا .

فأدركت السمكة السوداء فورا انهن قد وقعن فى كيس البجعة .

قالت السمكة السوداء : ياأصدقاء لقد وقعنا فى كيس البجعة ، ولكن طريق الفرار لم يغلق تماما .

شرعت السمكات الصغيرات فى البكاء والنحيب ، قالت إحداهن : ليس أمامنا طريق للفرار. فهذا تقصير منك ، فأنت التى أغويتينا وضللتينا .

قالت أخرى : الآن ستبتلعنا جميعا وينتهى أمرنا .

فجأة دوت ضحكة مخيفة فى الماء . كانت هذه هى البجعة تضحك وتقول : يالها من سمكات صغيرة كثيرة حصلت عليها ، هاها هاها ... أننى أشفق عليكن حقا ولايطاوعنى قلبى على ابتلاعكن ها !! ها ها ها ها ها .

أخذت السمكات الصغيرة تتوسلن وقلن : ياصاحبة السيادة البجعة لقد سمعنا الثناء عليك منذ وقت طويل ، وإذا تفضلت فلتفتحي منقارك المبارك قليلا كي نخرج ، وسوف نشكرك وندعو لك دائما!

قالت البجعة : اننى لاأريد أن أبتلعكن الآن ، فلدى سمك فائض ، أنظرن أسفل بطونكن .....

كانت بعض السمكات الصغيرة والكبيرة ملقاة أسفل الكيس . قالت السمكات الصغيرة : ياصاحبة السعادة أيتها البجعة ، إننا لم نفعل شيئا ، نحن أبرياء . هذه السمكة الصغيرة السوداء هى التى أغوتنا....... .

قالت السمكة الصغيرة : أيتها الجبانات ، هل تعتقدن أن هذا الطائر المحتال هو معدن العطاء بحيث تلتمسن منه هكذا .

قالت السمكات الصغيرة : ألا تفهمين ماتقولين ؟. الآن ترين كيف أن حضرة سيادة البجعة ستعفو عنا وتبتلعك أنت !!!!

قالت البجعة : نعم ، أعفو عنكن ولكن بشرط واحد .

قالت السمكات الصغيرات : تفضلي أملي شرطك ياصاحبة السعادة.

قالت البجعة : أخنقوا هذه السمكة الفضولية حتى تظفروا بحريتكن.

نحت السمكة الصغيرة السوداء نفسها جانبا وقالت للسمكات للصغيرات : لاتقبلن، هذا الطائر المحتال يريد أن نتشاجر معا ... لدى خطة ..... .

لكن السمكات الصغيرات كن يفكرن فى خلاصهن بحيث لم يفكرن فى شيء خر

وهجمن على السمكة الصغيرة السوداء، فأخذت تتراجع نحو أسفل الكيس وهى تقول بهدوء : أيتها الجبانات ، على كل حال لقد وقعتن، وليس لكن طريق للفرار، ولا قدرة لكن عليّ .

قالت السمكات الصغيرة : لابد أن نخنقك ، نريد حريتنا .

قالت السمكة السوداء : هل جننتن ؟ إذا خنتنني فلن تجدن طريق الفرار، لا تخدعكن البجعـــة .

قالت السمكات الصغيرات : تقولين هذا الكلام لتخليص نفسك ، وإلافأنت في الأصل لا تفكرين فينـــا .

قالت السمكة السوداء : إذا أنصتن سأدلكن على حل ، سأتظاهر بالموت وسط الأسماك الميتة ، ولنر عندئذ هل ستطلق البجعة سرا حكن أولا ، وإذا لم تقبلن كلامي ، أقتلكن بهذا الخنجر وأخلصكن وأخلص نفسي

قاطعتها إحدى السمكات وصاحت : كفى ، لا أتحمل هذا الكلام .. أوهو.. أوهو..أوهو

عندما رأتها السمكة السوداء تبكي قالت : أيتها الطفلة المدللة ، لماذا اصطحبتموها معكم ؟

ثم أخرجت خنجرها وشهرته أمام السمكات الصغيرات ، فقبلت التعسات اقتراح السمكة السوداء الصغيرة ، وتظاهروا كذبا بشجار فيما بينهم ، كما تظاهرت السمكة السوداء بالموت ، وصعدت الأخريات وقلن :

- يا حضرة البجعة ، خنقنا السمكة السوداء الفضولية

ضحكت البجعة وقالت : حسنا فعلتن ، والآن مكافأة لهذا العمل ، سأبتلعكن وأنتن حيات لتقمن برحلة طيبة في بطني .

لم يعد أمام السمكات الصغيرات أى فرصة ، وعبرن حلقوم البجعة بسرعة البرق ، وانتهى أمرهن .

أما السمكة السوداء فقد سحبت خنجرها فى نفس الوقت، وبضربة واحدة مزقت جدار الكيس، وخرجت وصرخت البجعة من شدة الألم ، ودقت رأسها فى الماء ولكنها لم تستطع مطاردة السمكة الصغيرة .

ظلت السمكة السوداء تسبح وتسبح دون توقف حتى الظهيرة. الآن كان الجبل قد اختفى وكذلك الوادى . وكان النهر يعبر خلال سهل منبسط . وكانت عدة أنهار صغيرة قد أتصلت به من يمين ومن يسار وتضاعفت كمية الماء . وكانت السمكة السوداء تستمتع بكثرة المياه . ثم أفاقت فجأة ورأت أنه ليس للماء قاع ، ذهبت هنا وهناك ولكنها

لم تصطدم بشيء . كانت المياه غزيرة لدرجة أن السمكة الصغيرة تاهت فيها ، وسبحت بقدر ما اشتهت لكن رأسها لم تصطدم بمكان. وفجأة رأت حيوانا طويلا ضخما ينقض طرفها بسرعة البرق ، وكان منشار ذو حدين يتقدم فمه . واعتقدت السمكة الصغيرة أن سمكة المنشار سوف تمزقها إربا في نفس اللحظه . وتحركت بسرعة وجمعت نفسها ، وارتفعت قريبا من سطح الماء، ثم بعد فترة نزلت أسفل الماء مرة أخرى لرؤية قاع البحر. وألتقت في وسط الطريق بمجموعة من الأسماك ، آلاف آلاف الأسماك ! فسألت إحدى الأسماك قائله : " أيتها الرفيقة ، أنا غريبة ، جئت من طرق بعيدة ، أين نحن ؟ "

نادت السمكة على رفيقاتها وقالت : " أنظرن .. واحدة أخرى .... "

ثم قالت للسمكة السوداء : أيتها الرفيقة ، مرحبا بك في البحر. "

قالت واحدة أخرى من السمكات : كل الأنهار والجداول تصب هنا ، ومما لاشك فيه أن بعضها يغوص في المستنقع .

قالت أخرى : يمكنك الانضمام إلى مجموعتنا في أي وقت تشائين .

كانت السمكة الصغيرة السوداء سعيدة لأنها قد وصلت إلى البحر. فقالت : من الأفضل أولا أن أتجول ثم أجيء بعد ذلك وأنضم إلى مجموعتكن ، فأنا أرغب أن أكون هذه المرة بصحبتكن وأنتن تسحبن شبكة الصياد .

قالت إحدى السمكات : ستحققين رغبتك سريعا ، الآن إذهبي وقومي بجولتك ، ولكن كوني حذرة من النورس إذا صعدت إلى سطح الماء ،

لأنه في هذه الأيام لا يخشى أحدا ، وكل يوم لا ينصرف ما لم يصد أربع أو خمس سمكات منا .
في ذلك الوقت تركت السمكة السوداء مجموعة أسماك البحر ، وأخذت في السباحة . وبعد قليل صعدت إلى سطح البحر ، كانت الشمس دافئة ساطعة ، فكانت السمكة الصغيرة السوداء تحس بحرارتها الشديدة على ظهرها ، وكانت تقول لنفسها :
يمكن للموت الآن أن يتجه صوبي بسهولة ، لكن ما دمت أستطيع الحياة ، فعلى ألا أذهب لاستقبال الموت ، ولا جدال لو اضطررت لمواجهة الموت في وقت ما ، ليس يهم ماذا سأصبح ، المهم أى أثر يكون لحياتي أو موتي في حياة الآخرين ....
لم تستطع السمكة الصغيرة السوداء أن تمضي في أثر أفكارها وخيالاتها أكثر من ذلك إذ جاء النورس ورفعها وحملها . حاولت السمكة الصغيرة تخليص نفسها من بين منقار النورس ، لكنها لم تستطع ، فقد قبض النورس على خصرها بشدة كادت تزهق روحها ..
وفي النهاية كم يمكن لسمكة صغيرة أن تبقى حية خارج الماء ؟!..
فكرت السمكة : ليت النورس يبتلعها في الحال ، حتى يحول الماء الرطب داخل بطنه دون موتها بضع دقائق على الأقل .. وعلى هذا الأساس قالت للنورس : لماذا لا تبتلعني حية ؟ فأنا من ذلك الصنف من السمك الذى يصبح لحمه ساما بعد الموت
وفكر النورس دون أن يقول شيئا : أيتها الماكرة ... ترى ماذا وراؤك؟ مصيبة أن تريدى دفعي إلى الكلام حتى تخرجي .

وكـان الشـاطيء يبدو واضحـا من بعيد ، وأصبـح أكـثر قربـا ، وفكـرت السمكة الصغيرة : إذا وصلنـا إلى اليابســة فقد انتهيت . فكـان أن قالت :

- أعـرف أنـك تريـد أن تـأخذني لأطفـالك ، لكـن إلى أن نصـل إلى الشاطيء سأكون ميتــة ، وقد يصبح جسدى كيسا من السم ، فلمـاذا لاترحم أطفالك ؟

فكـر النـورس : الاحتيـاط واجـب ، تكونـين لي وأصطـاد سمكـة أخـرى لأطفالي ، لكن لأر

.. هل هناك خدعة في الأمر؟ لا .. إنك لا تستطيعين عمل شيء

بينما كان النورس يفكر في هذه الأمور، رأى جسد السمكة السوداء قد شُل وبقي بلا حراك ، ففكر بينه وبين نفسه : يعني مـاتت ، الآن أنـا نفسي لا أستطيع أن آكلها ايضـا ، لماذا خسرت سمكة بهذه الليونة واللذة ؟

وكـان أن نادى السمكة السوداء وأخذ يقول : أيتهـا الصغيرة أمـا زال بك حتى الآن بعض الروح حتى أستطيع أن آكلك ؟

لكنه لم يستطع أن ينهي كلامه ، لأنـه مـا إن فتـح منقـاره حتى قفزت السمكة السوداء وسقطت ، ورأى النورس أنه خدع ،فبدأ فى مطـاردة السمكة الصغيرة السوداء أخذت السمكة تتشقلب كالبرق فى الهواء ، وكـانت السـمكة فـاقدة الوعـى مـن شـدة اشـتياقها إلى مـاء البحـر فأسلمت فمهـا اليابس إلى ريـاح البحـر الرطبـه . ولكـن مـاإن وصلت السمكة داخل الماء وتنفست من جديد حتى وصل النورس مثل البرق ، وهذه المرة اصطادها بسرعة، وابتلعها بحيث ظلت السمكة فترة لاتعى

مـاحل بهـا من بـلاء كـانت فقط تحس أن المكـان كلـه رطـب ومظلـم ولاطريـق . وكـان صوت بكـاء يـأتى ، وعندمـا اعتـادت عيناهـا علـى الظلمة رأت سمكة صغيرة جدا ، كـانت قابعة فى زاويـة وهـى تبكـى وتنـادى علـى أمهـا . اقتربت منهـا السمكة السـوداء وقـالت : أيتهـا الصغيرة .. انهضى وفكرى فى حـل ، يعنـى مـاذا البكـاء والنـداء على أمك ؟

قـالت السمكة الصغيرة : مـن تكونـين أنـت الأخـرى ؟ ...... ألا تريـن ....أن...... تهـى......؟ أهـى .....أهـى ..... أهـى .... أمـى .... أمـى ....لم أستطع ثـانيـة أن آتـى معـك وأسـحب شبكة الصيـاد إلى قـاع البحـر .....أهى ....أهى ...... !!!!!

قـالت السمكة الصغيرة السوداء : كفـاك يـابنيـه ، ضيعـت كرامـة كـل الأسمـاك .....عندمـا توقفـت السـمكة الصغـيرة عـن البكـاء ، قـالـت السمكة الصغيرة السوداء : أريد أن أقتل النورس وأريح السمك منـه . ولكن يجب بداية أن أخرجك ، حتى لاتقومى بعمل فاضح .

قالت السمكة الصغيرة : أنـت نفسك تموتين ، فكيف تريدين أن تقتلى النورس ؟

أشارت السمكة الصغيرة السوداء إلى خنجرها وقـالت : سـأمزق بطنـه مـن الداخـل ، الآن اسمعـى مـاذا سـأقول . أنـا سـأبدأ بـالرواح والغـدو والذهـاب هنـا وهنـاك وذلك سـوف يدغدغـه فيفتـح منقـاره ويبـدأ فـى الضحك وتسرعين أنت إلى الخـارج .

قـالت السمكة الصغيرة : ومـاذا عنك أنـت ؟

قالت السمكة الصغيرة السوداء : لاتفكرى فى . أنا إن لم أقتل هذا الشرير لن أخرج .

قالت السمكة السوداء هذا وبدأت فى الرواح والغدو والذهاب هنا وهناك ودغدغت بطن النورس وكانت السمكة الصغيرة واقفة عند فم معدة النورس مستعدة . ماإن فتح النورس منقاره وشرع فى الضحك والهقهقة حتى قفزت السمكة الصغيرة من فمه وهربت وبعد قليل سقطت فى الماء ولكنها ظلت منتظره ولم يكن هناك خبر عن السمكة السوداء . فجأة رأت النورس قد أخذ يتلوى ويصرخ . ومـاأن بدأ الرفرفة والسقوط حتى سقط فى الماء محدثا صوتا وعاد يرفرف مرة أخرى حتى سكت تماما عن الحركة . ولكن لم يكن هناك خبر عن السمكة الصغيرة السوداء بل ولاخبر عنها حتى الآن .

أنهت الجدة قصتها وقالت لأولادها وحفدتها الإثنى عشر ألفا : حان وقت النوم ، أيها الأطفال ، اذهبوا لتناموا .

قال الأولاد والأحفاد : ياجدتنا لم تخبرينا ماذا حدث للسمكة الصغيرة؟

قالت السمكة العجوز لتبق بقية قصتها إلى ليلة الغد . الآن حان وقت النوم ، تصبحون على خير.

قال إحدى عشرة ألف وتسعمائة وتسع وتسعون سمكة صغيرة : تصبحين على خير. وذهبن ونمن .

ونامت الجدة أيضا ، ولكن سمكة صغيرة حمراء لم يغلبها النوم مهما فعلت، وظلت تفكر فى البحر طوال الليل وحتى الصباح .

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٧/٤٥٢٧

الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977 - 235 - 966 - 9

مطابع الأهرام بكورنيش النيل